دكتور
لطفى عبد البديع محمد

الأدب السياسي

في النزاع

بين "علي" و "معاوية"

دراسة تحليلية نقدية موازنة

(١)

القسم الأول

الدراسة والتحليل

١٩٨٧

دكتور
نظمي عبد البديع محمد

الأدب السياسي

في النزاع

بين "علي" و "معاوية"

دراسة تحليلية نقدية موازنة

القسم الأول

الدراسة والتحليل

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

باسم الله الملهم للصواب ، والسداد ، المعين الهادى إلى طريق الرشاد وصلاة وسلاما على نبى الهداية والرحمة .

وبعـــــد :

فهذه الفترة من تاريخ الأمة العربية الإسلامية بكل ماوقع فيها من أحداث ليست بخافية على أحد ، فقد حوتها أمهات الكتب التى دونها ثقات المؤرخين من أمثال « ابن سعد » و « ابن عبد البر » و « ابن حجر » و « ابن كثير » و « ابن الأثير » وغيرهم .

ولا يخالطنى أدنى شك فى أن هؤلاء المؤرخين لم يعترهم أدنى تهاون أو تساهل فى النقل الأمين لوقائع العصر وهم يدونون أحـداث تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأمة ـ فما أظنهم نسبوا لأحد من رجالات تلك الفترة وعلى الأخص الصحابة (رضوان الله عليهم) شيئاً لم يحدث منه ، أو قولا لم يقله أحد منهم — بمعنى أنهم لم يتعاطوا الكذب فيما دونوا بحق أى منهم .

هـذا والأحداث التاريخية للنزاع بين الخليفة الإمام « على » والوالى « معاوية » وقائعها ظاهرة شهيرة تجذب كل من يحاول النظر فى التاريخ الإسلامى، وقد وسعت تلك الأحداث نشراً وسائل النشر

الحديثة، فحملتها إلى سائر أطراف المعمورة بمختلف اللغات يقرأها العرب والعجم على اختلاف مللهم ونحلهم .

ولا يملك أحد أن يستطيع الحجر على الفكر الإنسانى فيحرمه حق الاضطلاع أو النظر فى أحداث تلك الفترة بمحاولة الحجب أو الإخفاء القسرى ، ولا ينبغى أن نترك تراثنا عملا دون تمحيص له طبقا لفكرنا وقيمنا نزولا على أى اعتبار ، أو تخوفا وهربا تحت أى ظرف كان ، ولا ينبغى كذلك أن نُجبر على تخطى أحداث تلك الحقبة — خاصة وأن المادة العلمية مدونة مطروحة مبسوطة منثورة فى بطون المصادر التاريخية وفى متناول أيدى الجميع .

غير أن التقصير فى العرض السليم لأحداث ذلك النزاع فى جانبيه التاريخى والأدبى تلحقنا بسببه الملامة نحن جماعة المؤرخين والأدباء أمام أجيال شباب الأمة ، فلربما عرّضهم هذا التقصير منا للارتماء على ما كتبه المستشرقون أو المؤلفون المغرضون ـ مما يشوه صورة التاريخ الإسلامى ويشوشه فى أذهانهم ، ومما يؤدى بهم إلى اهتزاز ثقتهم فى شخصيات كبار الصحابة رضوان الله عليهم نتيجة للنظر فى بعض تصرفاتهم إذا ما أوّلت بطريقة مضللة مدخولة منغولة لتسقط الثقة فى عظماء الأمة الإسلامية .

ونكون نحن السبب المؤدى لتلك النتائج المؤلمة بتقصيرنا فى العرض والبيان الأمين لحقائق النزاع الذى وقع ـ حيث لا ينقصنا الفكر ، ونربأ بأنفسنا عن أن تكون مجردة من العزم .

وإذا أمكن القول بأن المؤرخين قد أدوا دورهم حيال تلك الأحداث

تجلية وإيضاحا فإنى أستطيع القول بأن الأدب لم يؤد دوره بصدقما يتعلق بهذه الأحداث ـ حيث قد خشى القربان منها لعلاقتها بشخصيات لها خطرها فى التاريخ الإسلامى ، فقصرت الكتابة الأدبية فى حق العرض والبيان للأغراض والفنون والخصائص والسمات الأدبية التى نتجت عن أحداث الفوران العاطفى الناجم عن ذلك النزاع ـ مما عرضها للخفاء وعدم الاتضاح فى أذهان دارسى الأدب ـ حيث قد أصبح من المألوف لديهم الانتقال من أدب صدر الإسلام وتخطيه إلى أدب العصر الأموى مقتصرين فى الغالب على مجرد العرض التاريخى السريع لانتقال مسئولية الحكم إلى الأمويين ، والإهمال المريع لأخصب ألوان الأدب المنتج فى تلك الآونة .

وإذا كانت العصور الأدبية سلسلة متتابعة الحلقات فلا ينبغى الإهمال لحلقة منها بقطعها وإغفال الحديث عنها .

وإذا كان الأدب صورة لفكر الأمة وسجلا لأحداث حياتها فلا يسوغ لنا الطمس لفكرها حتى وإن كان الفكر فى قمة غليانه غضبا ، ولا يسوغ لنا التقصير فى حق الجلوة للأحداث التى ألمت بالأمة حتى وإن كانت أحداث حرب أهلية ابتليت بها فى مسار حياتها المديدة أعاقتها عن تحقيق آمال أرحب كان يمكن أن تمتد إليها .

وإذا كان قد صح الحكم لدى الأدباء بأن الشاعر لا يجيد القول إلا إذا استغضب فبناء على هذا نستطيع القول بأن أدب ذلك النزاع يمثل القمة فى الصدق الفنى من أدب الاستغضاب العنيف الوقع على أوتار المشاعر الملتهبة ، فقد أنتجه خطر النزاع ، والنزاع الخطير بين الخليفة المبايع له

والوالى الذى يرفض التسليم بتلك البيعة، وقد انحاز إلى كل مناصرون.
ومؤازرون ، والجميع عرب فصحاء بلغاء شعراء خطباء ورسل سفراء —
ورثة أخصب عصور الفصاحة والبلاغة التى وفرت بما وافاها من مدد
بيان القرآن الكريم والأحاديث الشريفة .

ولما كان النزاع سياسيا لتعلقه بنظام الحكم طبقا للشرع فى الدولة
الإسلامية فكيف يسوغ لنا الإهمال لقسم الأدب السياسى التى خلفها
العرب بسبب أن ذلك الأدب نتاج نزاع بين كبار الصحابه ؟!!

إن النزاع بين الخليفة الإمام « على » وبين والى الشام « معاوية »
يمثل فترة التحول السياسى فى نظام الحكم فى الدولة الإسلامية من
الخلافة الراشدة إلى الحكم المتوارث .

ولما كانت هذه فترة تحول خطيرة إذن لابد وأن يكون نتاجها
الأدبى المواكب للنزاع والتحول خطيرا أيضا ـ خاصة أن الأمة العربية
ماتزال خلال تلك الفترة تسطر بشعرها سجل تاريخها ، ونبض مشاعرها.
ولما كان العرض السليم لتاريخ أحداث ذلك النزاع كفيلا بصون عقول
الأمة وتحصينها من أدواء الانحراف والتلاعب بها بما يدسه المغرضون
من المستشرقين[1] فكذلك نحن المشتغلين بالأدب علينا النهوض بواجبنا
الأدبى بحثا ودرسا وبيانا لمواطن القوة وتبديدا للخفاء حتى يتم التضام
والالتحام والوصل بين حلقات العصور الأدبية ، ويبدأ التأريخ الصحيح
السياسى لحياة الأمة العربية ، فليس من المعقول ولا من المقبل عقلا

---

(١) راجع ملحق الخلافة والملك ـ لأبى الأعلى المودودى ص ٢٠٣ ومابعدها.

أن تـكون الأمة العربية قد بدأت شعرها السياسي بسخائم النقائض المعروفة كخصيصة للأدب الأموى مزدهرة كما وجدت دون أن يكون للنزاع أى أثر على صفة ما أنبتت تلك الأهاجى وأرثت لها فاستحالت فيما بعد إلى ماصارت إليه من إقذاع فى السب والشتم تم فيه التخطى للقيم الإسلامية عوداً إلى رذائل الجاهلية .

فما وُلد فنٌّ شعرى كاملاً منذ ميلاده ، إذ لابد له من فترة حضانة سابقة تُنضجه ، ثم يُلقَى به وليداً بعدأن تهيأله الظروف السياسية والاجتماعية التى تعين على تنشئته وازدهاره .

هذا ـ وللصحابة (رضوان الله عليهم) أقدارهم التى لاتطاولها عظمة أحد ، وهم ثمم لهم فى نفوسنا كل تجلة وإعظام ، وقد استوجبوا علينا ذلك بما كان لهم من كفاح بطولى فى سبيل الدين حفظا وصيانة وفداء وإعلاء ونشرا ـ استحقوا به وضعا دينيا كريما لايبزهم فيه أحد .

ونحن هنا بصدد التناول لأدبهم خلال فترة النزاع أرانى قدألزمت نفسى ألا أخرج فى العرض للموقف السياسى عن حدود ماوردفى أمهات المصادر التاريخية الوثيقة .

وفى مجال التحليل البيانى والنقد للنصوص لن أتعدى دائرة المعانى التى تحويها وتتضمنها الألفاظ دون عمد إلى تأويل أو تزيد يدفع إليهما أو إلى أى منهما التحامل أو الممالأة ـ مما يخرج بنا عن حدود الإنصاف فى التحليل أو النقد للنص .

والدلالة المعنوية للنص هي الوسيلة المثلى والأثيرة لدينا لتجلية البيان الأدبي .

ولن يكون مني وقوف إلى جانب الدفاع والمساندة أو المعارضة والمضادة لأي من المواقف التي حدثت :

فالموقف السياسي لا يعنيني منه غير المقدمة والبيان للدوافع التي أسهمتْ ودعَتْ إلى ميلاد النص وإنشائه : قصيدةً كان أو خطبة أو حوارا أو رسالة — لتتضح المناسبة التي قيل فيها ، ويرتبط النص ويظل موصولاً بدوافعه ، وتظل الأحداث تترى مَسْلوكة في تيار جريانها .

ولست في مجال التقييم للتصرفات التي صدرتْ ، أو النقد أو التعريض بمن صدرت عنه — وإنما الذي يعنيني فعلا هو البيان الأدبي، والتقييم لفنون الأدب الذي أنتجه النزاع .

ولن أنتحل المعاذير ، أو أحاول ارتكاب التأويل في محاولة البيان لمعنى لفظ ناب ورد على لسان أيٍّ من رجالات النزاع ، وإنما سأقتصر على بيان المعنى المراد طبقا للدلالة التي تجيزها اللغة فقط .

هذا — وليس في الدنيا عظيم ليست له فلتات لسان عند الإغضاب اللهم إلا من عصم الله — وقليل ماهم .

والفلتة لاتقدح فى عظمة العظيم ، والخطأ لايمكن الدفاع عنه ، ونحن بشر ، وكل ابن آدم خطاء !!!

فاللهم جنبنا الخطأ ، وألهمنا السداد والرشاد .

هذا وبالله التوفيق .

دكتور
لطفى عبد البديع محمد

القاهرة فى ٢٥ /٧/ ١٩٨٢

تقديم

فضلت السَّرد التاريخي للأحداث وفق تسلسل حدوثها ، وعرضت النصوص في أثنائها متصلة مرتبطة بالأحداث والدوافع التي دفعتْ إلى إنشائها - من بعد أن مارستُ فعلاً منهج الفصل بين الأغراض والفنون الأدبية ، وجمعتُ كل غرض على الغرض المجانس له .

غير أني وجدتُ أن الفصل للنص الأدبي عن الحدث الذي أبدعه أمر يميته ، ويحرمه حيويته ، ويقضي على الحماس له لانفصاله عن جذوره التي أنبتته ، ودفعت إلى ميلاده .

كما أني تحققتُ من أن اقتلاع النصوص قصد تجميعها في أغراض وفنون يقضي على أثر المتابعة لسلسال السرد التاريخي للأحداث مما يشتت القارىء ويفقده حماسه للاضطلاع ، ويدفعه إلى الملل ، وربما يخل بالوضوح الفكري عنده ويغشي الأحداث عليه نتيجة للتوزع الذي تؤدي إليه فكرة البتر للنصوص عن الأجواء والمناسبات التي قيلت فيها بحجة التجميع والضم — كوجهة نظر عند من عناها - لارتباط الفنون الأدبية بأحداث تاريخية ، ومعارك سياسية وقتالية دفعتْ إليها .

لذا — تراني قد عدلتُ عن السير طبقاً لمنهج النصوص المقتلعة المبتورة عن مناسباتها استجابة منِّي للأسباب السالفة التي صَحَّتْ عندي وجاهتهـا .

وأخذت نفسي بالتزام المتابعة للسرد التاريخي للأحداث، وأورد في أثنائها النصوص في مواضعها طبقا لأحداث وقوعها ، حتى لا أعزل القارىء العربي عن تاريخه، وأستعين بارتباطه بتاريخه على تزويده ببيان واضح من المعاني والدلالات التي يمكن أن يمتد إليها ويتناولها النص عند الدراسة والتحليل له وهو في عين مكانه ، وفي موضع ميلاده غير منبت الصلة بدوافعه ومناسبته ، والأحداث المنتجة له والتي ترتبت عليه.

هذا ـ وقد عمدتُ إلى تقسيم المؤلَّف إلى قسمين :

(أ) الدراسة والتحليل :

سالكا في ذلك منهج العرض للموقف السياسي متخذاً منه مقدمة ومناسبة تعين على تفهّم النص ، ثم البيان الأدبي عقيب القصيدة والتعليق إثر الخطبة أو الرسالة أو الحوار للتحليل والتعليل .

(ب) التقييم للفنون والأغراض الأدبية التي شملتْها الفترة الزمنية للدراسة — وهي المحددة ببدء نشوب النزاع وحتى التحكيم .

سالكاً منهج النقد للأغراض والفنون الأدبية ، والبيان للجديد منها ، والخصائص والسمات التي تميز بها كل غرض .

ولقد حاولتُ الجمع للنصوص مما انتثر في بطون كتب التاريخ غير أني لحَظتُ أن عملية التنقيب والجمع ، ورصد الحدث ونصوصه مرتبة في خاص المكان الذي لها كان أمراً مُضْنِيًا وعسيرا .

وأثناء التنقيب كان أن تمّ الاهتداء إلى مصدر تاريخي وثيق جنّبني

إمعنات الجمع ، ووفر منى الجهد للدراسة والتقييم — وكان هذا ممثلا في كتاب (وقعة صفين) لـ « نصر بن مزاحم المنقرى » حيث لم يكن لى بد من أن أعتمد على متسكأ تاريخى وثيق يقودنى بأمان عبر أحداث النزاع .

حول المصدر التاريخى

كتاب (وقعة صفين) لـ « نصر بن مزاحم » يعتبر أقدم نص معروف لدينا فى هذه الوقعة .

ومؤلفه أقدم من ألّف فيها ، ويعدّ فى طبقة شيوخ شيوخ « الطبرى » الذى روى أحداث الوقعة أثناء سرده التاريخى لأحداث عام ٣٣ — ٣٧ هـ .

وقد روى « الطبرى » أحداثه تلك عمن روى عن « أبى مخنف الأزدى » الذى يعد المؤلف « ابن مزاحم » الذى معنا من طبقته ومن معاصريه .

قال « ابن النديم » عن « نصر بن مزاحم » إنه من طبقة « أبى مخنف » المتوفى قبل عام ١٧٠ هـ .

ويرى المؤرخون فى صاحب (وقعة صفين) أنه كان من الثقاة كما ذكر « ابن حبان » أنه كان من أصحاب الحديث .

وقال عنه « ابن أبى الحديد » هو ثقة ثبْت صحيح غير منسوب إلى هوىً أو إدغال .

وقد عاصر المؤلف « عبد الله بن عمر الواقدى » المتوفى ٢٠٧ هـ وهو ثالآخر مؤرخ لوقعة صفين .

هذا ـ وقد ساق المؤلف أحداث الوقعة فى حذق وحصافة ، وصور حروبها بدقة واستقصاء ، وروى الأحداث والأحاديث والأشعار والخطب فى انسجام واستواء واتساق .

ويُلمَس فى مؤلَّفه هذا روح الهدوء التى يتحلى بها المؤرخ الثبت الذى لا تستفزه عصبية أو هوى يخرجانه عن اتزانه فى موقفه بين الشخصيتين. والكتاب فوق تسجيله لأحداث الوقعة هو مؤلف زاخر بالحوادث والأعلام والشعر والرجز والخطب والآثار الأدبية القيمة[١] .

---

(١) راجع مقدمة الطبعة الثانية لوقعة صفين .

فى الطريق إلى (صفين)

للوقف السياسى : غادر الخليفة « على » (البصرة) بعد أن خرج من معركة (الجمل) منتصرا حيث قَدِم الكوفة [١] فاستُقْبِل من أهلها استقبالا حافلا كريما ثم أتى المسجد فخطبهم قائلا :

« أما بعد يا أهل (الكوفة) فإن لكم فى الإسلام فضلا ما لم تبدِّلوا وتغيِّروا — دعوتُكم إلى الحق فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيرتم إلا أن فضلكم فيما بينكم وبين الله فى الأحكام والقسم ، فأنتم أسوةُ مَنْ أجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه .

ألا إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل .

فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق — وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة ألاَ إنّ الدنيا قد ترحَّلتْ مُدْبرة ، والآخرة ترحَّلتْ مقبلة ، ولكل واحدة بَنُونَ :

فكونوا من أبناء الآخرة — اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل .

الحمد لله الذى نصرَ وليَّهُ ، وخذَلَ عدوهَ ، وأعزَّ الصادق المُحِقَّ ، وأذل الناكِث المبطل .

عليكم بتقوى الله ، وطاعة مَنْ أطاع الله من أهل بيت نبيكم —

---

(١) فى ١٢ رمضان ٣٦ هـ

الذين هم أَوْلى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المنتحلين المدّعين القائلين إلينا . يتفضلون بفضلنا ، ويجاحدونا أمرنا ، وينازعونا حقنا ويدافعونا عنه ، فقد ذاقوا وبال ما اجْتَرَحوا فسوف يلقَوْن غيًّا.

ألا إنه قد قعد عن نصرتى منكم رجال فأنا عليهم عاتِبٌ زَارٍ ، فاهجروهم وأَسمعوهم ما يكرهون حتى يُعتِبوا [١] — ليعرف بذلك حزب الله عند التفرقة »

التعليق :

وفى الخطبة بيان وتوضيح لأمور جدَّتْ فى زمن الخليفة الإمام « على » :

(أ) فالفضل فى الإسلام أصبح مَنوُطا بالثبات والاستمساك بالأسس والأصول التى التزمها المسلم وبايع عليها ، ومحاولة التغيير والتبديل لما التزم به مُسقِطة لفضله ـ وافتتاح الخطبة دعوة صريحة لأهل الكوفة أن يلتزموا بمبايعتهم « عليا » .

(ب) استخدام أسلوب الوعظ المطوَّل للحث على طاعة الله ، وسحَبَ هذه الطاعة على المطيع لله من آل بيت النبى عليه السلام (ويعنى بذلك نفسه) مما يُعرَف فى الخطبة باسم حُسْنِ الاستخدام للعاطفة الدينية فى نفوس المخاطبين جذْباً لهم تجاه طاعته ، والانضواء تحت سلطانه — لظهور حقه فى ذلك دنيا وعقيدة .

(جـ) حديث عن النصر والخذلان ، والعزّ والذل ، وإظهار الحجة

---

(١) يقدمون ما يرضى عنهم

فى مقام التبرير للفصل عند النقاش لإقناع الموالين ، ودفـع الشك عن نفوس المناصرين ، والرد على مَنْ حاول التشكيك فى صنع « عـلى » بضرب المثل بمن خرج على بيعته بقتالهم فى موقعة (الجمل) (فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا) بمنازعتهم حقه ، ومدافعتهم إياه .

والعبارة تحمل معنى التهديد بأن مثل ذلك الصنيع من القتـل والقتال أمر قائم فى وجه كل من يحاول الخروج على الخليفة الإمام.

عتاب وإعتاب

فى جانب الخليفة الإمام

الموقف السياسى : يدخل « سليمان بن صرد الخزاعى » على « على ابن أبى طالب » وكان ممن تخلفوا عن وقعة (الجمل) فيعاتبه الخليفة الإمام قائلا :

على : ارتبتَ وتَرَبَّصْتَ وراوغْتَ ، وقد كنتَ من أوثق الناس فى نفسى وأسرعهم — فيما أظن — إلى نُصْرتى .

فما قعد بك من أهل بيت نبيك ؟ وما زهَّدك فى نصرهم ؟ (١)

سليمان : (مُعتبا إلى الإمام) يا أمير المؤمنين — لا تَرُدنَّ الأمور على أعقابها ولا تؤنبنى بما مضى منها ، واستبق مودتى تخلص لك نصيحتى — وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك (٢)

ويدخل « سعيد بن قيس » على الإمام فيلقى السلام فيرد عليه بجفوة وقسوة ومرارة عاتبا فيقول :

(٢،١) وقعة صفين ص٦

« وعليك — وإن كنتَ من المتربّصين »

ويطلب « سعيد » لنفسه البراءة فيقول :

حاشا لله يا أمير المؤمنين — لستُ من أولئك »

فيردّ الإمام قائلا : « فعل الله ذلك »

ثم يعتب الإمام على أشراف (الكوفة) قائلا :

« ما أبطأكم عنى وأنتم أشراف قومكم ؟ والله لئن كان من ضعف النية ، وتقصير البصيرة إنكم لبُوُر — والله لئن كان فى شكّ فى فضلى ومظاهرة علىّ إنكم لعدوّ[1] »

ويعقب الأشراف الخليفة الإمام قائلين :

حاشا لله يا أمير المؤمنين — نحن سِلْمُك وحربُ عدوك .

ويمكث الخليفة « على » بالكوفة بعدّ العتاب لمن قعد عن نصره وبعد توضيحه لدوافعه إلى قتال أصحاب (الجمل) حيث انتفى شكّ الشاكّين، واستبانَ خطأ المقصّرين ، واعتذر مَنْ اعتذر ، وهدأت النفوس وقرّت.

فما كان من الشاعر الأهور الشقىّ « بِشْر بن مُنقذ » وكأنه قد استطال فترة قرار الخليفة «على» بالكوفة دون تهيّؤ للتحرك إلى الشام لقتال واليها الذى لم يبايع .

فما كان منه إلا أن أنشأ قصيدة تُعتبَر من البدايات الشعرية فى التحريض على « معاوية » قال فيها[2] :

قل لهذا الإمام قد خَبَتْ الحر ب ، وتمّتْ بذلك النّعماءُ

(١) وقعة صفين ص ٧ (٢) وقعة صفين ص ٩٠٨

وفرغنا من حرب من نقض العهـ ـد ، وبالشام حية صماء
تنفث السم لن نهشته فارمها قبل أن تعض شفاء
إنه والذى يحج له النـا س ، ومن دون بيته البيداء
لضعيف النخاع إن رمى القو م بخيل كأنها الأشلاء (1)
جانحات (2) تحت العجاج سخالا (3) مجهضات (4) تخالها الأسلاء (5)
تتبارى بكل أصيد (6) كالفحـ ـل ـ بكفيه صعدة سمراء
ثم لا ينثنى الحديد ولما يخضب العاملين منها الدماء
إن تذره فما « معاوية » الدهـ ـر بمعطيك ما أراك تشاء
ولنيل السماك أقرب من ذا ك ونجم العيوق والعواء (7)
فاضرب الحد والحديد إليهم ليس والله غير ذاك دواء

البيان الادبى :

القصيدة تعتبر من البدايات الشعرية فى التحريض عـلى الوالى « معاوية » والافتتاح فيه التذكير بالنصر المحرز على ناقضى البيعة

---

(١) خيل كثيرة منتثرة
(٢) تكسر الجوانح
(٣) الصغير من ولد الضأن والمعز
(٤) ألقى بها جنينا قبل تمام الحمل
(٥) السلى ـ كيس جلدى رقيق محيط بالجنين يلحظ عند الولادة ـ والمراد فغير بخيل تحطم ضلوع الأعداء التى لم تقو بعد .
(٦) فارس قوى يحسن القتال بالحراب .
(٧) السماك والعيوق والعواء نجوم فى السماء

من أصحاب (الجمل) ثم أتبعه سريعاً لفت نظر الخليفة « على » إلى أن مواطن الخطر لم تنته بعد حيث ما تزال بالشام خطورة أعظم مصدرها واليها (الحية الصماء) والذى ينبغى المسارعة للقضاء عليه لتأمين النصر فى يوم (الجمل) قبل أن يتهيأ لنفث سمومه والنهش والقتل ، وخصوصا أنه الآن فى حالة ضعف تقتضى اهتبال الفرصة والتعجيل بالإجهاز عليه .

من أجل هذا ينصح الشاعر الخليفة بألا يتباطأ فى حرب « معاوية » حتى يستجيب فيبايع ؛ بل نجد الشاعر يقطع فى معرض التحذير بأن « معاوية » لن يُنيل الخليفة « عليا » من ذلك شيئا بطريق سهل مسالم ميسور — ولم يعد من دواء لحالته هذه سوى الجِدّ فى قتاله دون تَرَيُّث .

الرؤيا الشعرية

الرؤيا الشعرية لدى الشاعر كانت واضحة دقيقة فى حينها حيث استنبأت الأحداث بصدق فاق كل حقيقة مما تكشّفتْ عنه حُجُب الغيب فيما بعد :

(ا) لقد صوّر الشاعر والى الشام حية قاتل سمها — وهى الآن كامنة ، ولكنها تتهيأ للنهش ، ولن تتوانى عن المهاجمة والانقضاض ، وأنها فقط تتحين الفرصة المواتية .

لذا تجب المسارعة إلى القضاء عليها وهى لم تباشر هجومها بعد .

إنه بُعْد النظر الشعرى الذى أدرك مكمن الخطر فحذَّر منه ، ودعا إلى تأمين النصر بإحراز نصر آخر على خطر حقيقى يتهدده .

(ب) أعْلم الشاعر الخليفة « عليا » أن « معاوية » لن يُنيله ما يريد منه بأن يبايعه سِلْماً إطلاقا ، ونجوم السماء أقرب اليه من بلوغ ذلك الهدف (ويبدو أن هذا الرأى كان مُدْركاً واضحا لدى أتباع علي) مما دعا الشاعر إلى أن يطلب مِنَ الإمام أن يسارع إلى القتال ، ولا يطمئن إلى نصر (الجمل) ولا ينتظر استجابة مرجوّة من « معاوية » فليس له من علاج أصح من القضاء عليه حربا .

(حـ) ولما كان أمر الحرب مخوفا مفزعا، وليس من السهل الإقدام عليها إلا بعد أخذ الحذر والحيطة، وإجراء حسابات دقيقة لهذا — نرى الشاعر قد نثر خلال القصيدة من المعانى ما يهوّن من حرب أهل الشام ، خاصة أنها إِثْر حرب لم يفرغ منها إلا حديثا فتراه يصف متولّى (الشام) بأنه ضعيف النخاع لا يقوَى عـــلى حرب الإمام إنْ رُمِى بها اليوم قبل الغد .

وهذه — دعوة إلى اقتناص فرصة الضعف التى هو فيها الآن قبل أن تفلت ويشتد عوده وتقوى عظامه .

(د) والشاعر المدرك لأمر الحرب — نراه — فى تقييمه لقوى الخليفة الإمام وقوى منازعه « معاوية » ومن معه — نراه قد خرج بنتيجة مؤداها تفوق الإمام فى احتيازه لعناصر القوة :

١ — فجيشه فى قمة الروح المعنوية لخروجه منتصرا فى وقعة (الجمل) .

٢ — وقوة (سلاح الفرسان) أهم الأسلحة آنذاك واضحة لدى الإمام ، وهى الكفيلة بأن تحقق النصر له لوفرتها وقوتها التى تمكنها من فرض سيطرتها على ميدان القتال إذا ما انتشرتْ فيه .

٣ — وتفوق الفرسان على الأعداء أمر واضح لأنهم سيعتلون أعداء ضعافا كالسخال المجهضة فى برانسها ، والتى لن تملك لأنفسها حَوْلاً سوى أن تُداس بسنابك الخيل .

٤ — وقوة الفرسان كامنة فى قوة المقاتلين الممتطين ظهور الخيل وهم بكامل أسلحتهم التى يجيدون استخدامها ، وقد تعودوا ألا يعودوا إلا وقد القوتْ رماحهم ، وتخضبت بدماء أعدائهم . وليس أوضح من ذلك بيان أرجح من كفة الإمام فى ميزان قُوَى الجيوش !! مما يبدو مُغْرِيا بالتشجيع على الهجوم ، وركوب هَوْل المخاطرة .

(ه) أوضح الشاعر وأبرز عنصر التهْوين من شأن « معاوية » وأهل الشام فى ميزان قوى الحرب ، واتخذ من ذلك دافعا للإمام المتملك لضروب القوة عساه يغتنم فرصة ربما لن تتاح له إذا ما أفلتتْ ، ولربما انقلب ميزان القُوَى ولم يعد فى صالحه فيما بعد ، وقد كانت هذه من الشاعر رؤيا ممتدة بعيدة الغَوْر فى أبعاد الزمن المقبلة ، وقد صدَّقتْها الأيام والأحداث التى تَلَتْ .

والشاعر لم يُهمل عنصر الزمن ، فقدعا الإمام إلى المسارعة بالإغارة قبل أن تتغير الظروف ، وتختلف موازين القوى، ويتبدَّل ضعْف الخصم

إلى قوة فيصبح الموقف فى حاجة إلى تقييم من جديد ، ولربما لا تواتى الإمام فرصة كما هى مواتية له الآن — وهيهات أن يعود ماانقضى .

وهكذا — تعتبر القصيدة مبادرة داعية إلى التحريض على والى الشام ومن تبعه — وقد تمت فى وقت مبكر ، وكانت محسوبة بدقة طبقا لموازين الحرب التى وازنت بوضوح بين قوى المتنازعين ، ورجحت كفة على كفة طبقا للاعتبارات الحربية المنظورة ، ولم تهمل عامل قوة الروح المعنوية ومدى الحماس الزائد الذى كان يتمتع به جيش الإمام فى ذلك الحين .

إنها رؤيا الحس الشاعرى الصادق صاحب القدرة على الإدراك المبكر ، والتنبؤ بأحداث تصدقها الأيام بنتائجها التى حسبت بميزان دقيق فى عالم الأفهام ذوات الرؤى الشاعرية الواضحة الممتدة .

عتاب

الموقف السياسى : بعث الإمام « على » بـ « الأشتر » واليا من قبله على (الموصل ونصيبين ودارا وسنجار وآمد) وما غلب عليه من أرض الجزيرة .

وبعث « معاوية » بـ « الضحاك بن قيس » واليا على ما كان مسيطراً عليه من أرض الجزيرة أيضا (حران والرقة والرها وقرقيسيا) .

فخرج إليه « الأشتر » قاصدا إياه بـ « حران » وعلم بذلك « الضحاك » فاستمد أهل المناطق الموالية له فأمدوه والتقى الواليان بين

معهما من جند فى منطقة (مرج مرينا)[1] واقتتلا قتالا شديداً اضطر « الضحاك » رجل « معاوية » إلى الانسحاب تحت جنح الظلام، ويبلغ ذلك « معاوية » فيأخذه العتب على المنسحبين[2]، ويعدم بعدد يغيثهم فلم يحدث أثرا — فينصرفون من بعد أن هددهم « الأشتر » رجل « على » قائلا : ألا إن الحى عزيز — ألا إن الذمار منيع .

ألا تنزلون أيها الثعالب الرواغة ؟

احتجرتم احتجار الضب .

ويبدو أن « معاوية » قد أحس الانكسار نتيجة اللقاء الحربى الأول بينه وبين « على » وهما فى مرحلة السبق والمسارعة إلى بسط النفوذ على أطراف الدولة قبل أن يتم التحديد والفصل للمواقف وتجييش الجيوش للقائهما القتالى الرئيسى الفاصل المرتقب .

وقد كانت تلك بادرة تقطع بأن الاحتكاك بين المتنازعين وهما فى مرحلة محاولة بسط النفوذ الموزع بينهما تقطع بأن اللقاء القتالى بينهما أمر آكد ترتيباً على النزاع الناشب بينهما ، والمسألة لا تحتاج طويل وقت تستغرقه إلا ريثما يستبين لكل أتباعه بالفصل بين الموالين منهم والخارجين عن الولاء .

---

(١) تقع بين (حران والرقة)

(٢) لم ينص على عتاب « معاوية » وإنما ذكر عتاب « أيمن بن خريم » التالى ، ويبدو أن العتاب كان بحضرة « معاوية » إثر عودة المنسحبين فكانت المعاتبة له شعراً .

فالوالى — لم يكتف فى نزاعه عند حد محاولة التثبيت لنفسه على ولاية (الشام) فقط ، وإنما أخذ يحاول فرض سلطانه على أطراف من الدولة الإسلامية أبعد من حدود ولايته معارضاً بذلك سلطان الخليفة وحقه المشروع .

وبهذا — يكون الوالى « معاوية » قد أخرج نزاعه مع الخليفة الإمام عن أن يكون نزاعاً بين (وال وخليفة) حول وجهة نظر إدارية معينة وإنما صعّده إلى آفاق أخطر حيث أصبح نزاعاً بين الخليفة المبايَع له والوالى الطامح إلى الخلافة ذاتها — من بعد أن طعن على الخليفة فى خلافته اعتماداً على ما أظهره من الدعوى بأنه لم يقتص من قتلة الخليفة المقتال (عثمان).

ولما كانت بواكير الاقتتال بين جند الوالى « معاوية » وجند الخليفة الإمام قد أظهرت تفوقاً حربياً لجند الخليفة فما كان من « معاوية » الذى أحس بدايات غير مشجعة لبواكير الاقتتال إلا أن عاتب جنده المنسحبين — وما كان من جنده إلا أن ردوا عتابه بما هو أقسى منه .

فقد انبرى « أيمن بن خريم الأسدى » يعاتب « معاوية » ذاكراً بلاء قومه (بنى أسد) فى (مرج مرينا) وساق عتابه شعراً فقال[1] :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة	من عاتبين مساعرٍ أنجادِ
منّيتهم أن آثروك مثوبة	فرشدت إذ لم توف بالميعاد

(١) صفين ص ١٣ — ١٤

أنسيتَ إذْ فى كل عام غارة | فى كل ناحية كرِجْل جرادِ
غارات «أشتر» فى الخيول يريدكم | بمعرَّة ومضرّة وفساد[1]
وضع المسالح مُرصداً لهلاككم | ما بين عانات إلى زيداد
وحوى رساتيق الجزيرة كلها | غضباً بكل طِمِرَّة وجواد
لما رأى نيران قومى أوقدت | وأبو أنيس فاتر الإيقاد
أمضى إلينا خيله ورجاله | وأغذّ لا يجرى لأمر رشاد
ثرنا إليهم عند ذلك بالقنا | وبكل أبيض كالعقيقة[2] صاد
فى (مرج مرّينا) ألم تسمع بنا | نبغى الإمام به، وفيه نقادى
لولا مقام عشيرتى وطعانهم | وجلادهم بالمرج أىّ جلاد
لأتاك (أشتر مذحج) لا ينثنى | بالجيش ذا حنق عليك وآد[3]

البيان الادبى :

(ا) القصيدة عتاب صريح لـ « معاوية » من قبل أتباعه الذين ناصروه فى نزاعه مع الخليفة الإمام وخاصة فى الجانب القتالى — وإن كان القتال ما يزال فى بواكيره !

(ب) ركز الشاعر عتابه فى التذكير لـ « معاوية » إن كان قد نسى وقوف قومه — (بني أسد) فى وجه غارات فرسان «الأشتر» القتالية ،

---

(١) الأشتر رجل «على» المولى من قبله على (الموصل) وما جاورها .
(٢) البرق يبدو فى وسط السحاب كالسيف المسلول
(٣) مثل الأيد أى القوة

والتى شابهت أرجال الجراد فى شمولها لعديد من المناطق ، وقوة تأثيرها فى إحداث المضار والإفساد ـ وكل هذا تقدمة وإرصاد لإهلاككم ـ وعلى الرغم من أن « الأشتر » يستهدفكم بغاراته غير أنكم لم تقابلوه إلا بفتور ، وكنا نحن مركز المقاومة الوحيد الذى انبرى له ؛ فما كان منه إلا أن ركز حملاته الانتقامية — ومع ذلك لم نخنع فقد لاقيناه فى (مرج مرينا) نبغى قتاله وقتال من أرسله ، ولولا خروجنا وقتالنا له لأطبقت عليك فرسانه بكل ما لديهم من قوة وحنق .

(جـ) وفى القصيدة روح الإدلال بادية من (الأسديين) على « معاوية » بأنه لولا خروجهم لقتال « الأشتر » وفرسانه لا ندفع بكل قواه حتى بلغ « معاوية » وما استطاع أحـــد أن يتصدى لزحفه ، أو أن يحاول الوقوف فى طريقه .

ويمكن رد المعنى فى عجز القصيدة على صدرها الذى افتتح بلقب (أمير المؤمنين) ربطاً للمعنى ما بين الصدر والعجز والحاوى لمعنى الإدلال على « معاوية » بأن الشاعر يريد أن يقول :

لولا بنو أسد لما صح فى «معاوية» أن يغدو أميراً للمؤمنين؛ ابتناء على التوقيع اللاشعورى المؤمّل فى خلافة « معاوية » للمسلمين — فيما بعد —وفى هذا الإدلال القاسى على « معاوية » .

(د) وصراحة العربى فى التعبير عن رأيه موفورة عند كل من المتنازعين « على » و « معاوية » .

فالأتباع يناقشون ويحاورون ويعاتبون — خضوعاً للخاصية التى

تميز بها العربى التى تمثلت فى شجاعته فى التعبير عما يريد دون خشية — حتى ولو كان النقاش الحوارى والعتاب مع خليفة أو والٍ ، وسعة الصدر فى التقبل للنقاش والحوار والعتاب موفورة لدى القائمين بالأمر ؛ فلديهم القدرة على الإنصات والسماع والرضى والتقبل إذا ما توفرت الدواعى لذلك .

غير أنه يبدو أن « معاوية » قد استطاع أن يضع حداً لمدى النقاش وحرية الرأى فى التعبير بين الموالين له .

فقد حدّهما بأن لا يتجاوزا المعايير التى رسمها لهما ، فلم يسمح لهما بأن يتعديا قدرهما فيفسدا عليه وحدة المجتمع والجند عنده فى الشام وقد استطاع بما أوتى من مقدرات شخصية أن يوقف الأمر فى النقاش فى حينه عند حده الذى لا يفسد عليه أمر الموالين له ويستطيع إلزام النقاش طريقاً واحداً لا يتعداه ويقف به عند حد معين مما يضمن له حصره فى الحيز المحدود الذى يمكن التحكم فيه ، ويملك صواب الحكم عليه ، وإمكانية الإقناع به ، وتطويعه لصالحه .

ومما لا شك فيه أن إمكانية التحديد لمسار النقاش فى الرأى ، والقدرة على التوقف به حيث يجب أن يتوقف تحويله لصالح صاحبه ، وعدم تسريبه إلى مسارب عديدة تميّعه — كل ذلك يمثل قدرات شخصية خاصة — ربما تكون قد وضحت عند « معاوية » بشكل ظاهر ، وانضم إليها ما تميز به من مقدرة على المداورة والمحاورة والمناورة ، والتحكم فى أسلوب التعامل بالإخفاء والتخفى والإعلان والكشف للمفهوم الذى يريده فى الوقت المناسب طبقا لما يراه ملائما لصالحه .

كل هذه الإمكانيات قد صنعتْ من « معاوية » شخصيةَ الداهية التى عُرِف بها وكان بها رجلَ الدولة الأقدر على سياستها ، من بعد أن تحولت الأمور فى الدولة الإسلامية من خلافة راشدة إلى ملك عضوض آل إليه .

مع سَيْر الأحداث

الموقف السياسى : بادر الإمام عقيب وقعة « الجمل » بالكتابة إلى الولاة والعمال مبيناً لهم حقيقة الأمر فى تلك الوقعة — لينفى من نفوسهم أى شك يعلق بها يمكن أن يسيء إلى تصرفات الإمام بدءا من البيعة العامة له عقيب « عثمان » وحتى الفراغ من قتال مَنْ ناوأه بعد البيعة منهم.

ويمثِّل هذا من الإمام الإعلام والترشيد لهم ليكونوا على بيِّنة من الأمر ، ولم يتركهم فى حالة عمىً كامل تجهِّلهم بحقيقة مسلك الخليفة إثر مبايعته ، وخاصة أن الأمر يتعلق بقتال مرير يديره ، وحرب خاطفة طاحنة يشنُّها ، تُقتَل فيها شخصيات إسلامية مشهورة لها قدرها ووزنها ، وتخرج فيها « عائشة » أم المؤمنين تناصر فريقاً على فريق .

فكان لا بد من المسارعة إلى إطلاع الولاة وإعلامهم بجلية الأمر كتفسير صريح لتصرفات الخليفة الجديد .

وقد عمد الإمام فى رسائله الترشيدية هذه إلى التحليل السياسىّ الكاشف لحقيقة وقعة (الجمل) بما يصوِّب موقفه ، ونراه يزاوج

ترشيده بالدعوة إلى مبايعته ، ليتبين مواقف الولاة منه ، وليعلم مَنْ معه منهم ومَن عليه .

وقد اتبع ترشيدا عاما على الولى أن يلتزمه فيما يتعلق بمطالبته بالاستقامة والأمانة فى نظام الحكم .

وبسلوك هذا الأسلوب السياسى الرشيد يستطيع الإمام أن يُجرى تصفية عامة للولاة تكشف حقيقة مواقفهم منه .

وقد كان ممن كتب إليهم الإمام مِنَ الولاة — «جرير بن عبدالله البَجَلى» [1] وقد بعث إليه يقول [2]

«أما بعد — فإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؛ وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال .

وإنى أخبرك عن نبأ من سِرْنا إليه من جموع «طلحة» و«الزبير» عند نكثهم بيعتهم ، وما صنعوا بعاملى «عثمان بن حنيف» [3] إنى هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار — حتى إذا كنت بـ(العُذَيب) بعثت إلى أهل «الكوفة» بـ«الحسن بن على» و«عبدالله بن عباس» و«عمار بن ياسر» و«قيس بن سعد بن عبادة» فاستنفروهم فأجابوا فسِرتُ بهم حتى نزلت بظهر (البصرة) فأعذرتُ فى الدعاء ، وأقلتُ العثْرة ، وناشدتُهم عقد بيعتهم — فأبَوْا إلا قتالى ، فاستعنتُ بالله

(١) كان واليا للخليفة «عثمان» على ثغر (همدان)

(٢) صفين ص ١٥ — ١٦

(٣) كان «على» قد ولاه البصرة قبل قدومه إليها فغلبه عليها «طلحة» و«الزبير»

عليهم — فقُتِل من قُتِل ، وولّوْا مدبرين إلى مصرهم، فسألونى ما كنتُ دعوتهم اليه قبل اللقاء ، فقبلتُ العافية ، ورفعتُ السيف ، واستعملتُ عليهم « عبدالله بن عباس » وسرتُ إلى (الكوفة) وقد بعثتُ إليكم « زحر بن قيس » فاسأل عما بدا لك »

التعليق :

ومما يلاحظ على رسالة الإمام الترشيدية لـ « عبدالله البجلى » أنه قد عرض فيها للمعانى التالية :

١ — التوضيح للمصير الذى حلّ بناكثى بيعته فى وقعة (الجمل) وقد أورده على سبيل التهديد لكل من تحدثه نفسه بسلوك طريق النكث أو المخالفة والخروج على الخليفة المبايع له .

٢ — إظهار أن الخليفة الإمام محرز للتأييد من قِبل كل من له سَبْق إلى الإسلام من المسلمين ، ذوى الفضل من المهاجرين والأنصار — أصحاب الحلّ والعقد فى المجتمع الإسلامى .

٣ — التحديد لأسلوب الخليفة الإمام فى التعامل مع الرعية ، وبيان أنه يرتكز على الإعذار إلى القوم أوّلاً — لعلهم ينتهون ويعدلون عن موقف المخالفة والنكث ، ويدخلون من جديد فى عقد بيعته .

٤ — اللجوء إلى القتال كحلّ أخير لا بد منه لمن أصرّ على النكث للبيعة .

٥ — بيان أنه مُؤيّد من الله فى قتاله للناكثين — بناء على أن النقض للبيعة عصيان لا يرضى الله عنه .

٦ ـ القبول بالعفو ، ورفع السيف ، ووقف القتال عند الاعتراف بالخطأ والعودة إلى الصواب بالدخول فى البيعة مُجدَّدا .

٧ ـ الرسالة فيها الإعلام لكل من يهمه الأمر ـ ولاة ورعية بالأسباب التى دعتْ الخليفة الإمام إلى قتال أصحاب (الجمل) بأنهم : نقضوا بيعته وقتلوا عامله المعيَّن من قِبله ، وغلَبوه على أمره ، وتركيز على بيان صحة مَسْلك الإمام فى ذلك ـ خاصة وأن من بين القتلى جَمْع من أعيان الصحابة من أمثال «طلحة» و«الزبير» .

هذا ـ ولم يذهب « زحر بن قيس » إلى « جرير بن عبدالله البجلى » وهو خاوى الوفاض من الشعر ـ وإنما وجدناه إلى جانب رسالة الإمام يحمل أيضا قصيدة بعث بها إليه أحد أبناء أخت « جرير » من الطائيين موجهة إلى خاله « جرير » والى (همذان)

وفيها يقول :[1]

«جرير بنَ عبدالله» لا تردُدْ الهدَى	وبايعْ «عليا» إننى لكَ ناصحُ
فإنَّ «عليا» خيْر من وَطِىءَ الحصَى	سوى «أحمد» والموتُ غادٍ ورائح
وبايِعْه إنّ بايعتَه بنصيحةٍ	ولا يك منها فى ضميرك قادِح
فإنك إنْ تطلب به الدين تُعْطَه	وإن تطلب الدنيا فبيعُكَ رابح
وإن قلت « عثمان بن عفان » حقه	علىَّ عظيمٌ والشكورُ مُناصِح
فحقّ « علىٍّ » إذْ وليك كحقِّه	وشكر ما أوليتَ فى الناس صالح
وإنْ قلتَ لا نَرْضى «عليا» إمامنا	فدعْ عنك بحراً ضلَّ فيه السَّوابح
أبى اللهُ إلاّ أنّهَ خيْرُ دهْرِه	وأفضل من ضُمّتْ عليه الأباطح

(١) وقعة صفين ص ١٦

البيان الأدبى :

القصيدة تتضمن نُصْحاً يسوقه ابنُ مخلص إلى خاله الوالى ـ وهـذا الاعتبار سابق على أن تكون القصيدة نصيحة . يسوقها أحد أتباع الخليفة « على » إلى والٍ وضعتْه الظروف السياسية التى تمرُّ بها الدولة الإسلامية فريسة التحيّز فى الاختيار بين اتجاهين ربما كان لا يُدْرَى أيهما أصوب ـ فى وقتٍ كثُر فيه القيل والقال ، وعلا فيه اللَّغطو تعددتْ التهم وتوزّعتْ ذات اليمين وذات اليسار ، وخيّمَ فيه ظلام الفتنة ، ووسع الأرجاء واستحال على الولاة المنتثرون فى سحيق الأصقاع التى يَلونها التبيّنُ لحقيقة الأمر ، وصواب ما حدَث ، ودخل الجميع فى متاهة يكادون لا يتبيَّنون لأنفسهم منها مخرجا ـ لبعد الشقة ، وبطء وسائل الاتصال.

وهنا تظهر قيمة النصيحة ، وتتضح أهميتها ، وتبدو كشعاع هادٍ فى ثنايا دياجير ظلام الفتنة المدلهمة .

وقد ركز الشاعر فى نصحه على أمور نجملها فيما يلى :

(أ) المبايعة للخليفة الإمام قبول للهُدَى الذى لا ينبغى أن يرفضه أحد ممن يريدون صواب الأمر ، وسليم المنفذ فى الاتباع لمن هو أولى بالاتباع والمتابعة ، فالردُّ لبيعته ردٌّ للهدى ، ورفض لخالص النصح .

وقد بنَى الشاعر رأيه هذا اعتمادا منه على أن الخليفة « عليا » قد انحصرتْ فيه الخيرية بحيث لا يفضُله أحد فيها سوى النبى عليه السلام فـ « على » خير من وَطِىء الحصى سوى « محمد » ولا يوجد مَنْ يستحق التقدم عليه فى هذا الأمر (الخلافة) من بقية الأحياء ما دام حيّاً ـ فإذا ما انتهى من الدنيا خضوعا لقاعدة الموت الغادى الرائح انتقلت

الأفضلية منه إلى مَنْ سواه من بقية الأحياء الذين يستحقون شرف الاتّصاف بها أما وهو حَىٌّ فلا ينبغى أن تتعداه إلى من سواه .

لذا — يتحتّم أن يُبايَع الخليفـة « على » بكل إخلاص لا تشوبه شائبـة شك .

(ب) المبايعة — للخليفة « عـلى » كفيلة بتحقيق الربح المرجو للمبايع سواء كان مرغوبُه أمراً دنيويا أو أُخرويا .

فالمبايعة تضمن للوالى « جرير » البقاء على الولاية بكل مالها من مظاهر الحـكم ، وأبهة السلطان فى الدنيا ، والمبايعة تُـكسب المبايـع رضا الله لمتابعته ما شرعه من وجوب الموالاة للخليفة المبايَع له ، وطرح الشك له مهما كثرت الأقاويل حوله ، أو لُفّقتْ له التهم ، فالبيعة له نافذة ما لم يثبت على الخليفة انحراف فيقوّم شريعة أيضا .

(ج) يسوق الشاعر قياسا يهدُف من ورائه إلى إثبات الحق للخليفة الإمام « على » فى المتابعة له ما دام قد ولى أمر الخلافة بنفس القدر الذى كان يعتبر للخليفة « عثمان » فليس هـذا بأقل من ذاك ، ومسئولية الخلافة هى عين المسئولية ، وقد انتقلت من سابق إلى لاحق بنفس الثِّقل والحجم إذن — لا تَقِلّت من وجوب المتابعة لـ« على » الخليفة الجديد (فحق « على » إذْ وليك كحقه) وِفْقاً ، ومسئولية ينبغى أن تُلتزم أداءً بالمتابعة لـكل خليفة تم له البيعة العامة الواضحة جهارا نهارا عن رضىً كامل ، وحريّة موفورة .

(د) يطلق الشاعر فرضا بعيدا يحذر منه خاله إذا ما عرَض له — ومؤداه أن الرفض لبيعة الخليفـة « على » تُلقِى بالرافضين فى بحر من

الضلال لن يقوى على عبوره أحد ويضلّ فيه كل من يحاول خوضه .

وإن قلت لا أرضى «عليا» إمامنا   فدع عنك بحراً ضل فيه السوابح

وبعد الفرض يتجلى فى سلامة وحسن الاستخدام لأداة الشرط المشككة فى موضعها (إنْ) وصواب النصح ينحصر فى فعل الأمر (دع) التالى لفاء الترتيب وكأن الشاعر يريد أن يُسْلِم خاله الوالى من الوقوع فى ضلالات لا تُضمَن فيها السلامة ، وأن يبرأ فكره من فروض عقيمة لا تقود إلا إلى متاهات مُضلّة .

وكأنى بالشاعر يبرىء نفسه أيضا من أن ينقاد وراء خاله الوالى اذا ما اختار خاله على سبيل الفرض الخوض فى بحر الضلال ، وكأنى به يستأذنه فى عدم المتابعة له ، ويستسمحه فى أن يُباعِد بينه وبين متابعته لخاله خوضاً فى الضلال ، فوجوده مع صاحب الحق الخليفة «على» يكفل له البراءة والسلامة .

وبناء على هذا فلن يتابعه فى هذا الطريق ، وسُحقاً لرابطة خئولة تقود إلى الضلال .

(هـ) ويختم الشاعر قصيدته بما بدأ به (اذا ما استبعدنا بيت النداء الأول) وفيه يكون ردّ للصدر على العجز المفيد حصر الخيْرية فى شخص الخليفة « على » ما دام حيا .

وقد زاد الأمر قوة فى البيت الأخير حيث نسب الحكم بذلك الى الله جلت قدرته وبذلك يكون حَصْرُ الخيرية والأفضلية فى « على » حكما إلهيا يتحتم القبول به ، ويُعضّد هذا بحكم رفيع آخر يقضى بأن الأفضلية ، لا تبارحه الى من سواه من البشَر ممن هم سوى « محمد » .

والاختتام للقصيدة بهذه الكيفية فيه التذكير بأن « عليا » هو الحائز الوحيد للوَسْم بالخيرية والأفضلية دون غيره ممن هم فى زمانه من المعاصرين له طبقا لشرع الله فى الحكم بين خلقه .

والتذكير الخاتم بهذه الطريقة فيه دفع من الشاعر لخاله الوالى برفق إلى ما يُعتَقد تماما أنه عين الحق والصواب فيما يتعلق بوجوب المبايعة والمتابعة للخليفة « على » وقد استخدم فى ذلك النصح الرقيق وسيلة تصله الى ما يهدف اليه من خير لخاله الوالى ، ولخليفته الإمام — مما كان له أطيب الأثر فى استجابة « جرير » ومبايعته الخليفة « عليا »

والقصيدة على الرغم من أنها منصبّة على النصح فى طابعها العام ولكنها تعتبر من شعر التأييد والمناصرة لـ « على » طبقا لأفضليات معيّنة قد أحرزها .

ولم يتم التعرض للمخالفين إلا لمحًا من طرف خفى لم يصل إلى حد التجريح والقدح فى شخص أىٍّ منهم .

اعتراف وإحقاق

الموقف السياسى : يبدو من الرسائل الجوابية التى تلقاها الخليفة « على » من الولاة فى عديد من الأصقاع أنهم رتضون بيعته .

ففيما يتعلق بشأن والى (همدان) « جرير بن عبد الله البجلى » الآنف الذكر نجد أنه فوْر فراغه من القراءة لرسالة الخليفة الإمام قام فى الناس خطيبا فقال[1] :

---

(١) وقعة صفين ص ١٦

« أيها الناس — هذا كتاب أمير المؤمنين « على بن أبى طالب »
وهو المأمون على الدين والدنيا ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما نحمد
الله عليه وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين
بإحسان — ولو جُعِل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها .
ألا — وإن البقاء فى الجماعة ، والفناء فى الفرقة ، و « علىٌّ » حاملكم
على الحق ما استقمتم — فإن مِلتُمْ أقام مَيْلكم »

فقال الناس : سمعاً وطاعة — رَضينا رضينا .

التعليق :

ويمكن أن نتبين من خلال المبادرة الخطابية التى سارع إليها
الوالى « جرير » فى أهل ولايته فوْر ورود رسالة الخليفة « على » إليه
أنها قد ارتكزت على فكرة أساسية مَفَادها أن « عليا » هو الأحق
بالخلافة ، والأولى بالمتابعة اعتمادا على الأمور التالية :

١ — «على بن أبى طالب» رجل مُؤتَمن على أمور الدين والدنيا —
وهذان الاعتباران هما مَناط التفكير والاهتمام من المسلم فى الدولة
الإسلامية لدورانهما حول الاهتمام الذى ينشده فَوْزاً فى حياته وبعد
مماته .

٢ — أمير المؤمنين «على» رجل جَسور ، وله من الشجاعة ما يكفل
له إحراز النصر على كل مَن يحاول الوقوف ضده — كما أنه لا يتورع
عن الإيقاع بمن يعاديه كما حدث منه فى موقفه الأخير ضد من عاداه[1] .

(١) يشير الوالى إلى ما كان من انتصاره على أصحاب الجمل .

٣ — «علي» هو الأحق بالبيعة والأولى بها اعتمادا على الأصول الدينية المرعية فيما يتعلق بصاحب الحق الأولى بأن تُسند الخلافة إليه في دولة الإسلام .

فضلا عن تقدمه لكونه المأمون على الدين والدنيا — فهو أيضاً الذي قد انعقدت له البيعة صحيحة من أصحاب الحلّ والعقد وأصحاب الرأى الذين يُعتَدّ برأيهم في المجتمع الإسلامي من ذوى السَّبْق من : المهاجرين والأنصار وعلى الأخص منهم (البدريّون من أهل الشورى).

وليس بعد رأى هؤلاء أىّ صواب آخر يمكن أن يؤخذ به ، أو أن يكون له أى وزن أو قيمة في مجتمع الدولة الإسلامى .

٤ — يطرح الوالى « جرير » في خطبته فرضاً جديداً يظهر في فكر الولاة المسلمين — ومؤداه — أن الخلافة لو حُكّم في أمرها الشورى بين المسلمين ، وصُرِف النظر عن البيعة الثابتة الآكدة القائمة للإمام «على» لانْجاتْ عن أحقيته فيها من جديد مرّةً أخرى .

وافتراض الشورى الذى طرحه « جرير » الوالى قد زاد من وَثاقة حق الخليفة « على » في الخلافة طبقاً لأى وضع يمكن أن تسير عليه الأمور ، ويتم الاختيار طبقا له بين جماعة المسلمين .

هذا — ولم يهمل الوالى في خطبته الكشف عن رد الفعل عنده وأهل (همدان) إزاء ما أحرزه الخليفة « على » من نصر ، وما أصاب الخارجين على بيعته من أصحاب (الجمل) من إيقاع وهزيمة وذلك بحمده الله في خطبته على ما كان من أمر الخليفة وأمر عدوه .

وبهذا يكون الوالى قد أبدى تأييداً معنوياً للإمام الخليفة — كما أنه قد أظهر فى الوقت عينه أنه قد خرج عن دائرة المعاداة له ، بل مال إلى جانبه هو ومن يلى عليهم — اعترافاً منه ببيعته .

٥ — إنفاذ البيعة للخليفة « على » يحوى أهدافا سياسية سامية عُليا تتحقق للأمة الإسلامية ؛ إذ فيه الإبقاء على وجودها حية قوية بالإبقاء على الوَحدة بين رعاياها من جماعة المسلمين ؛ لأن داء هذه الأمة الذى يتهدد وجودها كامن دائما فى تفرقها واختلافها .

ونظراً لأهمية هذين العنصرين فى كيان الأمة الإسلامية إحياءً وإهلاكا — نرى الوالى قد صدَّر تعبيره المتعلق بهذين الأمرين بالأداة : (ألاَ) للشعرة بأهمية ما يليها شَدّاً لنفوس السامعين لتتبين خطورتهما — حيث يتعلقان بحياتهم وهلاكهم لكونهم هم رعايا هـذه الأمة التى تتأرجح بين عنصرىْ الإحياء والإفناء بالتجمع والتفرق .

كما أن الوالى الخطيب قد أتبع (ألاَ) أداة (إنّ) المؤكّدة لمدى الخطورة المؤثرة فى حياة الأمة الإسلامية نتيجة لاختيار السير فى أحد الطريقين الآنفين .

ولما كان الطريق الأفضل والذى ينبغى أن يَنْصَبّ عليه الاختيار هو طريق الإحياء والحياة بالتجمع — لذا يمكننا أن نعتبر الوالى الخطيب قد كان بارعا فى الطريقة التى عرض بها الموقفين ضماناً منه لتكتيل السامعين بجذبهم عن طريق الإقناع الفكرى لهم بجدوى الانحياز إلى جانب الجماعة المهتدية المتمثلة فى جماعة الموالاة للخليفة «على».

فتكون حياتهم فى حياة أمتهم ، والتنفير لهم من المباعدة عن تلك الجماعة فيكون فى تفرقهم هلاكهم بهلاك أمتهم ، ولن يرتضى عاقل لنفسه ولا لأمته إلا الحياة والازدهار .

٦ — ويختم الخطيب الوالى خطبته باعتبارٍ يؤكد به سلامةَ ما ذهب إليه ومؤداه أن الخليفة « عليا » أولى بالخلافة عليكم لتميزه بشخصية قوية كفيلة بأن تحملكم على ما يصلحكم بحفزكم على التزام الحق ، وسلوك جادة الصواب ـ كما أنه موفور الحزم والعزم اللذان يكفلان له تقويمكم إذا ما رأى منكم ميلا أو انحرافا . وماذا تريد الرعية المسوسة من إمامها سوى الضمان لخيره وعدله باستقامته عليهما ؟

ثم التعديل لانحرافه للتناسب ومدى حيدته . إذا ما حاد أو انحرف ؟

هذا — ولم يكتف الوالى « جرير » بخطبته القوية فى معانيها الرائعة فى أسلوبها ، والتى أحدثت فعلها فى نفوس سامعيها اقتناعاً بصواب المتابعة للخليفة « على » فلم يملكوا إلا الاعتراف بالسمع والطاعة له ، والرضى والاقتناع به خليفة لهم .

ولم يكتف الوالى بهذا — وإنما رأيناه قد اهتزت مشاعره بجلال الموقف من بعد أن جمع القلوب فاجتمعت عليه رضىً بـ « على » فأنشأ قصيدة ساق فيها مشاعره لتواكب روعة منطقه الخطابىّ ، ولتكون احتفاءً

واحتفالاً بتلك النتيجة الباهرة التى توصّل إليها مع أهل ولايته ما أنشأ يقول[1] :

أتانا كتاب « علىٍّ » فلم	نَرُدَّ الكتابَ بأرض العَجَمْ
ولم نعصِ ما فيه لمَّا أتى	ولما نذم ، ولما نُلِم
ونحن وُلاةٌ على ثغرها	نُضِيم العزيزَ ، ونحمى الذِّمم
نُساقيهم الموتَ عند اللقاء	بكأس المنايا ، ونَشْفى القَرَم
طِعانُهمُ طعنةً بالقنا	وضَرْبِ سيوف تَطِير اللِّمم
مضَيْنا يقيناً على ديننا	ودينِ النبىِّ مُجلِّى الظُّلَم
أمينَ الإله وبرهانهُ	وعَدْلُ البَرِيَّةِ والمعتَصِم
رسولُ المليك ، ومَنْ بعده	خليفتُنا القائمُ المدعم
« عليا » عَنَيْتُ وَصِىَّ النبى	نُجالِدُ عنه غُوَاةَ الأُمَم
له الفضلُ والسَّبْقُ والمكرماتُ	وبيْتُ النبوَّة لا يُهتَضَم

البيان الادبى :

تتوجه القصيدة فى غرضها الأساسى إلى المناصرة للخليفة « على » فى خلافته ، والفخر بتلك المبايعة ، وبالنصر مع « على » فى معركة (الجمل) ويتخذ الشاعر من قصيدته مَعْرِضا لأحاسيسه فيذكر أنه :

(أ) قد سارع بالمبايعة للإمام فوْر ورود كتابه إليه وهو على البعد فى أرض العجم ، ولم يكن منه عصيان بالمخالفة وهو الوالى على ثغر (همدان) القصى يقوم بواجبه من الحماية والعدل .

(ب) يعرض الشاعر لصور من بطولته فى لقاء الأعداء ، وما كان

(١) صفين ص ١٨

له فيها من انتصارات طعن فيها أعداءه بالقنا وأطار رءوسهم بالسيوف.

(ج) ينتقل الشاعر إلى (الدين) والثبات عليه ، وإلى (النبي) الأمين على وحي الإله ، والرسول المختار هداية وعدلاً للبرية .

(د) وقد اتخذ الشاعر من هذه الانتقالة تمهيدا وطأ به لإظهار مضيه على التأييد للخليفة القائم بالأمر « عليا » وصي النبي عليه السلام، وصاحب الفضل والسبق والمكرمات من بين عامة المسلمين ومن بين خاصة آل بيت النبوة أصحاب الحقوق المرعية .

وفي تصرف الشاعر على هذا الوجه بتعديده للمناقب والأفضليات التي حازها الخليفة « على » يكون قد وضح الدواعي التي من أجلها عقد العزم على المناصرة للإمام الخليفة ومجالدة سائر المخالفين له

(هـ) جعل الشاعر من المضي في الدين ثباتاً عليه (مضينا يقينا على ديننا) فضلا ينبغي أن ينسحب فيشمل (المضي) في الموالاة للإمام القائم بالأمر « على » .

(و) وقد اعتمد الشاعر على القياس على الدين ، واتخذه دليلا يُثبت به صحة سلامة الخلافة لـ « على » :

فكما لا يصح التغيير في الدين كذلك لا يصح التغيير للخليفة « على » القائم بأمر الخلافة فعلا .

هذا ـ ما كان من موقف والي (همدان) « جرير البجلي »

ويبدو أن الاستحسان لموقف الوالي « جرير » قد استبد بالحضور فحرك مشاعرهم فلم يتمالكوا أنفسهم فتسابقوا إلى التصيد في تلك المناسبة ، وفي صنيع واليهم الذي أحسن التصرف في هذا الموقف .

فقد أنشد « ابن الأزور القسْرى » يمدح الوالى « جريرا » فقال :(١)

لَعَمْرُ أبيك والأنباءُ تَنْمى ... لقد جَلَّى بخطبتهِ « جَرِيرُ »

وقال مقالةً جدَعَتْ رِجالا ... من الحيين خَطْبهمُ كبير

بَدا بِك قبل أُمتـه « على » ... ومخك إنْ رددتَ الحقَّ رِير(٢)

أتاكَ بأمرِه « زَحر بنُ قَيْس » ... و « زحر » بالتى حَدَّثتْ خَبِيرُ

فكنتَ بما أتاكَ به سهيماً ... وكدتَ إليه من فَرَحٍ تَطير

فأنتَ بما سَعِدْتَ به وَلىٌّ ... وأنتَ لما تُعَدُّ له نَصير

ونعم المـرءُ أنتَ له وزيرٌ ... ونعم المـرء أنتَ له أمير

فأحرزتَ الثواب — وربَّ حادٍ ... حَدَا بالركب ليس له بَصير

ليهنِكَ ماسَبَقْتَ به رِجالاً ... من العَلْياء ، والفضل الكبير

البيان الأدبى :

ثناء ممتدٌ عريض ، ومديح رائع لكل ما أتاه الوالى « جرير » فى تلك المناسبة :

(١) فقد كانت خطبته عين الجلاء لأمورٍ سرتْ بذكرها الأنباء وتعاظمتْ ، وكانت خطبته مَضاء الحزم فى إيقاف المتقوِّلين بغير عِلْم عند حدودهم ، فقد قطعتْ الخطبة ألسنة المتقوِّل منهم .

ومما لاشك فيه أن مقدرة الوالى على التوضيح لما انْبَهَمَ من أمور فى أذهان مَنْ يَلِى عليهم — فى حيِّه — والمسارعة إليه ماأمكن أمران كفيلان بإزالة أى لَبْسٍ يخالط أفكارهم — ومَنْ للرعية سوى واليهم.

---

(١) وقعة صفين ص١٧ (٢) فاسد

يزيل عنهم ماخالطهم من إبهام أو شك ؟

وإذا انتهت التجلية للأمور حزماً ، كان ذلك آية النجاح من الوالى فى سياسته ورعيته مما يكسبه الثقة فيه كوالٍ ، ويعود عليه هدوءاً واستقراراً وتقدماً فى ولايته ، وهذا مما كشف عنه الشاعر فى بيتيه الأولين .

(ب) ما كان فى استطاعة الوالى « جرير » أن يتخذ له موقفاً غير ما اتخذ — فهو صاحب فكر ناضج لايقود إلا إلى الصواب — كما أن خلافة « على » هى عين الحق الذى لا يرده إلا كل من فسد عقله واختل و « جرير » ليس كذلك ؛ كما أن مبادأة « على » إياه بالدعوة إلى المبايعة تكريم لـ « جرير » تظهر ماله من خاص منزلة عند الإمام — وما أراها ألا تميزه بعقل سليم يتقبل الحق ولا يرفضه ، وقد كان عين الحق فيما وافى به رسول الإمام « زحر بن قيس » حيث هو الأدرى بحقيقة ماحدث .

(جـ) الامتداح للوالى « جرير » لمسارعته إلى الاستجابة للمبايعة التى كشفت عن أنه الجدير بأن يندب إلى مثل هذه المهام ، وهو الذى يُعَدّ للموالاة والمناصرة إذا ما تطلب الأمر ذلك .

وتكرار لفظ (أنتَ) فى صدر شطرىْ البيت يشعر بهذه الجدارة فى الإسعاد والمناصرة[1] ، وقد رتّب الشاعر على هذا الامتداح لـ « جرير » أنه خير وزير وأمير أحرز كل الخير فى سبقه مَنْ سواه مِن الرجال إلى هذا العمل العظيم .

---

(١) راجع البيت السادس من القصيدة

والقصيدة قد حوتْ لمحًا خفيفًا إلى ما يمكن أن يحدث مستقبلا من نزاع نتيجة لما يحدث فى المجتمع من تقوّلات تسرى بها الأنباء .

وقد حدد الشاعر موقف الوالى منها — بأنه يتم الإعداد لمناصرةُ الإمام حيث يقول :

وأنت لما تعد له نصير

باعتبار أن « جريرا » الوالى هو الأولى بالمناصرة والتأييد لما هو حق .

والقصيدة تأييد للإمام فى خلافته — فهو فيها صاحب الحق الذى لا ينكَر ومن أجل ذلك ساغ للشاعر المديح للوالى « جرير » الذى سارع إلى السمع والموالاة للحق وصاحبه .

وكان الشاعر رائعاً فى التقاطه المعنى الفريد الذى أورده من أن من استبد به الشعور بالغناء حُداءً وقيادة للقافلة فليس من الضرورى أن يكون صاحب بعير فيها وهكذا كان الشاعر — لم يكن على درجة من المسئولية تلزمه سلوك تصرف معين إزاء الأحداث القائمة ، ولكنه مع ذلك قد أسهم فيها بالتعبير عن رأيه كفرد فى المجتمع — وإن لم يكن ذا مسئولية تامة فيه وتولى الصدارة فى القيادة والتوجيه للرأى العام فى الأمة وأصبح كما قال : ورُبَّ حادٍ حدا بالركب ليس له بعير .

* * *

ويتوالى الشعراء يعبرون عن مواقفهم إزاء ما أصاب المجتمع الإسلامى من اغتيال للخليفة « عثمان » والمبايعة للخليفة « على » .

فنرى « النّهدى » ينشد قائلا :[١]

أتانا بالنّبــا « زحر بن قيس » بعظيم الخطب من (جعف بن سعد)[٢]
تخيّره أبو حسن (علىّ) ولم يكُ زنْدُه فيها بصَــلْد
رمى أعراض حاجتــه بقولٍ أخوذٍ للقلوب بلا تعــدّ
فسُرّ الحىّ من يمَنٍ وأرضى ذوى العلياء من سلفى معدّ[٣]
ولم يكُ قبْــلَه فينــا خطيبٌ مضى قبلى ، ولا أرجوه بعدى
متى يشْهَــد فنحنُ به كثيرٌ وإن غاب ابنُ قيس غاب جَدّى[٤]
وليس بموحِشى أمرٌ إذا ما دنا منّى - وإنْ أفردتُ وحْدى
له دنيا يُعَــــاشُ بها ودينٌ وفى الهيجا كذى شِبلين وَرد

البيان الأدبى :

القصيدة مُساقة لمديح « زحر بن قيس » رسول الخليفة « على » وينصب المديح للرسول على حسن تأتّيه فى مقالته التى عرض فيها لطبيعة مهمته التى أتى من أجلها فقد كان (أخوذا للقلوب) دون أن يتعدى القصد .

وقد ترتب على هذا المديح الضمنى للإمام على وذلك لحسن تخيره لرسوله الذى جلّى أموراً عَظُمَ خَطْبُها .

ويبدو أن الرسول « زحر » كان بارعاً فى عرضه للأحداث التى أدّتْ إلى مقتل « عثمان » حيث أظهر أن « عليّا » لم تكن منه مشاركة

(١) وقعة صفين ص ١٨

(٢) الجعفيون هم بنو سعد العشيرة بن مذحج (حى من اليمن)

(٣) يريد أرضى أسلاف معد بن ربيعة ومضر بنى نزار بن عدنان

(٤) الجد بفتح الجيم : الحظ

فيها مما أدخل السرور والرضى على العدنانيين من ربيعة ومضر :

(ا) فقد سُرُّوا لثبوت براءته مما يتقوّله عليه المتقوّلون .

(ب) وقد رضُوا بتوليه الخلافة من بعد (عثمان) باعتباره الأصلح لها والأولى بها ممن سواه من الأحياء الذين يمكن أن تسند إليهم الخلافة .

ويبدو أن الرسول كان بارعاً فى خطابته — حيث يثبت الشاعر أنه لم ينهض فيهم خطيب يماثله من قبل ، كما لا يرتجى أن ينهض خطيب آخر يماثله فيما بعد من بين سائر الحضور غيره .

ولا يهمل الشاعر الترحيب الشخصى بالرسول حيث ربط ازدهار حظه والإحساس بالأئتناس بحضور الرسول — وعلل إحساسه هذا بما أورده فى البيت الأخير من أن الرسول صاحب دنيا ودين ، وشجاع فى الحرب — مما دعا الشاعر إلى القول : متى يشهد فنحن به كثير .

ومما لاشك فيه أن سائر ألوان التمجيد التى أغرق بها الرسول مدحا تنسحب آثارها على مرسله الخليفة الإمام تأييداً له فى توليه الخلافة وإحقاق الحق إلى جانبه .

وهذا هو الغرض المتضمَّن الذى تدور معانى القصائد السالفة حوله — فهى من شعر التأييد للخليفة الإمام «على» .

الخطوط العريضة للسياسة الجديدة

الموقف السياسى :

الترشيد للولاة : لم يضيع الخليفة الإمام وقتاً ، وإنما نراه يسارع برسم السياسة العليا للدولة ويُعلِم بها وُلاته بغية التنفيذ الفعلى بين الرعية فكتب إلى « الأشعث بن قيس » والى (أذربيجان) فقال :[1]

« أما بعد ــ فلولا هَنَاتٌ كُنَّ فيك كنتَ المقدَّم فى هذا الأمر قَبْل الناس ، ولعل أمركَ يحمل بعضُه بعضا ـ إن اتقَيْتَ الله، ثم إنه كان من بيعة الناس إياى ما قد بلغك ، وكان « طلحة » و« الزبير » ممن بايعانى ثم نقضَا بيْعَتى فى غير حَدَث ، وأخرجا (أم المؤمنين) وسارا إلى (البصرة) فسرتُ اليهما فالتقيْنا ، فدعوتُهم أنْ يرجعوا فيما خرجوا منه ـ فأبَوْا ، فأبلغتُ فى الدُّعاء ، وأحسنتُ فى البقِيةِّ .

وإن عملاكَ ليس لك بِطُعمة ، ولكنه أمانة ، وفى يدَيْك مالٌ مِن مال الله ، وأنت مِن خُزَّان الله عليه حتى تسلمه إلىّ ، ولعلى ألاَّ أكون شَرَّ وُلاتِكَ لكَ إنْ استَقمتَ ـ ولا قوةَ إلا بالله »

التعليق :

الرسالة تؤرجح الوالى « الأشعث » بين اليأس والرجاء ـ لما ورد فيها من حديث الإمام عن (هنات) الوالى ، ثم حَمْل بعض أمره على بعضه

---

(١) وقعة صفين ص ٢٠ — ٢١

الآخر مما دعا الوالى إلى أن يعلِّق على الرسالة بأنها : قد أوحشته .

هذا — إلى تصميم الخليفة الإمام على التسلُّم لمال (أذربيجان) منه — غير أن الخليفة « عليا » قد شدَّ الوالى أكثر إلى الأمل بإعلامه إياه فى نهاية الرسالة بأن « عليا » لن يكون شرّ من تولى أمره من الولاة غيره — مما يشعره بالاطمئنان إليه نوعاً مّا !!

والفطرة العامة لطريقة صوغ الرسالة تُشعر بأنها كانت مُرْبِكة للوالى « الأشعث »(١) وهى بجانب ذلك توضح ما يلى :

(أ) عِلْمُ الإمام بالمطاعن ومواطن الضعف عند الولاة — مما ذكَّر به « الأشعث » فى قوله : فلولا هنات كن فيك .

(ب) يُفسح الإمام المجال أمام الوالى ، ولا يغلق دونه السبل لمراجعة نفسه فيما يتعلق بتلك (الهنات) فأبان أنها عُرْضة للصفح إن تمت من الوالى التقوى لله واعتدلت سيرته .

وما أظن هذا التعبير إلا دفعاً من الخليفة الإمام للوالى ليقرَّ بالحق لصاحب الحق إرضاءً لله — والحق يتمثل فى المبايعة للخليفة « على »

(ج) يؤكد الإمام أنه قد بُويع بيعة عامة صحيحة — اجتمع عليه فيها الناس ، وترامى خبرها إلى القاصى والدانى ، ومن ذلك ما بلغ الوالى فى (أذربيجان)

(د) يقرر الإمام أن « طلحة » و « الزبير » قد بايعا ثم نقضا بيعتهما

---

(١) جعلته يفكر فى اللحاق بمعاوية لولا تحذير قومه له بأن الموت خير له من أن يكون ذنبا لأهل الشام مما يكشف عنه شعرهم فيما بعد .

دون أن تكون قد صدرت من الخليفة مخالفة لعقد البيعة توجب مخالفتهما له .

(هـ) يثبت الإمام تمادى « طلحة » و « الزبير » فى الكيد له بعد النقض لبيعته بعمدهما إلى التحريض ضده ، والمضادة لحقه ، وتجميع الجموع لهذا الغرض وزيادة فى الإمعان دفعا بـ (أم المؤمنين) إلى الخروج على رأس تلك الجموع المنتقضة ، وتحشد الجميع فى مسيرة إلى (البصرة) فى جبهة معارضة للإمام .

(و) سارع الإمام — ولم يجبن عن الخروج إليهم والتحاق بهم — ثقة منه بأنه صاحب الحق الواضح فى الخلافة ، ولا بد له من الالتقاء بالمخالفين له من ناقضى بيعته ليحسم الخلاف معهم سلما أو حربا

(ز) سلك الإمام مع جبهة المعارضة لحكمه منهجا إسلاميا بإعذاره إلى المخالفين له بدعوتهم أولا إلى العود لطاعته ، ثم رفقا فى ذلك فبالغ فى دعوتهم إلى العود إلى ما كانوا عليه من طاعة وموالاة أثرة وعرفا أمام النبوة وصدر الخلافة .

ويبدو أن الإمام قد أسهب فى دعوتهم — آخذا نفسه بأنه يجب أن يحسن إليهم بالإبقاء عليهم مادام هناك أمل يرجى — يتبدى له فيهم — علة يقنعهم بعودهم إلى الطاعة .

(ح) يسوس الإمام واليه بالتلويح له ببوارق الأمل من الرفق واللين اللذان يتوقع أن يحظى بهما الوالى من خليفته إذا ما سلك طريق الاستقامة فى تدبير كل أمر أنيط به كوالٍ .

والاستقامة ـ المعروضة فى قالب الشرط ـ تمثل الدفع للوالى إلى الاعتراف بخلافة الإمام المبايَع له ـ فهى استقامة منه فى عمله ـ باعتبار أن النقض للبيعة نقض وإخلال بصحة تلك الاستقامة ـ كما أنها دافع إلى وجوب الالتزام بالأمانة حفظا وصَوْنا لما تُدِرُّه الولاية من دخل يرصد لحساب الرعية فى الولاية خاصة والرعية عامة فى سائر أرض الخلافة كسياسة اقتصادية يجرى النهج الإسلامى عليها، وأسلوب الإمام المعروض فى صورة الترجِّى والشرط لإيراد ذكى لمراده فيما يقصده أساسا من الإنفاذ لبيعته ، وتمسك منه إلى أبعد مدى بالتقوى والاستقامة يُطلبان من الوالى دفعاً له دائما إلى إحقاق الحق ، والالتزام به فى كل ما يَنُوبه من أمر الولاية .

إنه أسلوب السياسة والكياسة العربية فى الترشيد للولاة .

رأى فى الولاية والوالى

والرسالة فيها التوصيف لمهمة الوالى فيما يباشره من أعمال فى ولايته بتحديد وضعه فيها (بأنه خازن) وفى هذا التقييم القانونى لمفهوم الولاية بأنها (أمانة) استُودِعتْ عند الوالى لحساب رعيته .

١ — فالولاية ليست مقاما شخصيا أُعطيه الوالى ليمتع به نفسه كيفما شاء اهتبالاً لفرصة سنحت له بالتولى لشئون قطاع من الرعية ، فهى ليست لقمة سائغة يسهل إزدرادها ، وإنما هى خدمة مرصودة لحسابهم يتم فيها التدبير لشئونهم طبقا لما تمليه التقوى عليه .

٢ — والشأن فى الولاية أنها أمانة ينبغى أن تحفظ وتصان، وترعى بما يصلحها انتظارا ليوم أدائها إلى صاحب الشأن فى حق ائتمانه عليها وهم الرعية .

٣ — والشأن فى الوالى أنه خازن يتولى الصون لما جمع منها بحق من مال الله ، ومهمة الوالى تنحصر فى الحفظ لتلك الأموال المملوكة ملكية عامة للجميع — حتى تؤدى إنفاقا فيما يصلح أهل تلك الولاية ، أو تؤدى تسليما إلى رأس الدولة المتولى للأمر ليتفقها فى حاجة رعية الخلافة على المستوى الأوسع والأشمل لمفهوم الرعاية التى أنيطت بالحاكم كمسئولية يُدان بشأنها على التقصير فى حق من وُكلت إليه رعايتهم .

وترتيبا على الأحداث السالفة ينهض « الأشعث بن قيس » خطيبا فى أهل ولايته إثر تلقيه رسالة الخليفة الامام فيقول[1] :

« أيها الناس إن أمير المؤمنين عثمان ولانى (أذربيجان) فهلك وهى فى يدى ، وقد بايع الناس « عليا » وطاعتنا له كطاعة من كان قبله ، وقد كان من أمره وأمر « طلحة » و « الزبير » ماقد بلغكم ، وعلى المأمون على ماغاب عنا وعنكم من ذلك الأمر .

التعليق :

وبهذا يكون (الأشعث) الوالى قد اعترف بخلافة (على) حيث أثبت أن طاعته له ثابتة ثباتها للخليفة « عثمان » كما أنه قد قضى على الأحاديث المغرضة للناس فيما يتعلق بمقتل الخليفة « عثمان » ووقعة الجمل

(١) صفين ص ٢١

وبأن قول الخليفة « على » فى ذلك هو عين الصدق ـ لأنه المؤتمن فى هذا الأمر الذى لم تكن من شهوده حتى تقطع فيه برأى ـ وبهذا ـ يكون قد طرح جانبا مُفتريات المتقوِّل على الإمام ، وأثبت له صواب السلوك إزاء الأحداث طبقا لأمانته العامة فى كل تصرف يزاوله كخليفة .

ويبدو أن « الأشعث » قد خشى على نفسه أن يأخذه الخليفة الإمام بمال (أذربيجان) [1] فما يكاد يخلو بخاصته حتى يلوّح لهم بأنه سيلحق « بمعاوية » فإذا بهم يردّون عليه فكره قائلين :

« أتدع مصرك وجماعة قومك ، وتكون ذنبا لأهل الشام ؟ !! »

وينهض الشعر ليفعل فعله فى محاولة ثنْىْ الوالى « الأشعث » عن التنفيذ للفكرة التى عرضتْ له باللجوء إلى «معاوية» وبيان أنها فكرة ينبغى أن تُطرح من ذهنه جانبا لأنها لا تليق بمقام سليل (كندة) المتوَّج منذ صغره ، ومن الخير له أن يُنفِّذ البيعة للخليفة « على » ويدفع إليه بأموال الولاية كاملة حلّها وأصوبه ـ فيقول [2] :

إنى أعيذُكَ بالذى هو مالكٌ بمعاذة الآباءِ والأجدادِ
مما يظُنُّ بِكَ الرجال ، وإنما ساموكَ خطة مَعْشرٍ أوْغاد
إنّ (أذربيجان) التى مزّقتها ليستْ لجدِّك،فاشْنَها [3] ببلاد
كانتْ بلادَ خليفةٍ ولّاكها وقضاءُ ربِّك رائح أوغاد

(١) روايه الإمامة والسياسة

(٢) وقعة (صفين) ص ٢١ - ٢٢ ـ الشاعر « السكونى »

(٣) فما عليك ألا تحبها لأنها ليست مِلكاً لكم تستمسك به

فدع البلادَ فليس فيها مطمعٌ ضربت عليكَ الأرضُ بالأسداد[1]
فادفعْ بمالِكَ دون نفسِك إننا فادوك بالأموال والأولاد
أنتَ الذى تُثنى الخناصرُ دونه وبكبش (كندة) يُسْتَهلُّ الوادى
ومعصَّب بالتاج مَفْرِقُ رأسه مُلْكٌ لعمْرُكَ راسخ الأوتاد
وأطعْ « زياداً » إنه لكَ ناصحٌ لاشكَّ فى قولِ النصيح « زياد »
وانظر « عليا » إنه لك جُنَّةٌ تَرْشُدْ ، ويَهْدِكَ للسَّعادةِ هادِ

* * *

البيان الأدبى .

القصيدة تنحو إلى استثارة الشهامة فى نفس « الأشعث » وإحمائها عن طريق تذكيره بأنه صاحب السيادة والصدارة والملك والتاج فى (كندة) ومن له هذا التاريخ الحافل من الأمجاد لايليق به إلا أن يتابع الخليفة « عليا » .

وفى سبيل محاولة بلوغ الشاعر هذا الغرض نراه يركز فى قصيدته على نقاط أربع — رتبها وأحسن الانتقال فيما بينها وهى كما يلى :

١ — (أذربيجان) ليست أرضاً موروثة لكَ عن أجدادك فتستمسك بحكمك لها ، وإنما هى ولاية يجوز أن تُعزَلَ عنها .

٢ — ادفع بأموال الولاية إلى الخليفة الإمام ، واستخلصْ بها نفسك من أن تبيعها إلى الآخرين إبقاءً على الأموال .

---

(١) جمع سد أى حيل بينك وبينها بموانع ليس من الميسور تخطيها

٣ — استثارة النخوة فى الوالى دفعا له إلى الشهامه أخـذا بالحال السالف حيث لا يليق بشريف (كندة) صاحب الملك والتاج إلا أن يسلك إلا هذا الطريق الشريف ، ويباعد بينه وبين الذلة بالتبعية لأهل الشام[١] .

٤ — الدعوة إلى الأخذ بنصح الشاعر فيما يشير به من المتابعة للخليفة « على » .

ولما كانت بطانة الوالى هى سرُّ بلائه إنْ فسدتْ — لذا — نرى الشاعر يعيذ الوالى بمالِكِ المُلْك وبما كان لآبائه وأجداده من أمجاد وملك أن يعنى نفسه من مخططات يرسمها له الأوغاد من مستشارى الشر والفساد الذين يبدو أنهم كانوا يزينون له الاحتفاظ بالأموال واللحاق بمعاوية مما يخل بكرامته كسليل بيت مُلْكٍ تالدٍ راسخ .

وعملية النقض والنقض لأفكار مستشارى السوء اتخذ منها الشاعر مدخلا ينفذ منه إلى الواقع الغرضى الذى ينشده — حيث نراه قد اتخذ من ذلك توطئة ليُعلِم الوالى بحقيقة الأمر — وهى أن (أذربيجان) ليست من مملوكات أجداده ، ويرتب على ذلك أمره الناصح (فدع البلاد) حيث لا موجب لأى مَطمعٍ له فيها ، وأتبعه أمره التناصحى التالى بدفع الأموال دون النفس ، ثم يخلُص الشاعر إلى الوالى فيواجهه

---

(١) العبارة « وتكون ذنبا لأهل الشام » تشعر أن الإقليمية قد تدخلت فى النزاع ولم تقف عند حد الأشخاص وسياساتهم فقط !

بتذكيره بأمجاده الموروثة التى تدفعه إلى سلوك طريق الشرف الذى يحتم عليه أن يستجيب إلى الرشاد بالمتابعة للخليفة الإمام « على »

ولا يبرىء الشاعر الوالى من اللوم بخصوص الولاية حيث أثبت عليه أنه الممزق لها ، وربما كان تمزيقها يعود إلى الأموال التى جمعت بطريقة أدت إلى ذلك التمزيق المشار إليه .

ظاهرة وتعليل

ويُلحظ فى القصيدة أن الشاعر وهو بصدد استثارة مشاعر «الأشعث» بأنه قد أعاذه من أن يكون مجرد والٍ بولاية حتى يُحميه ويدفع بالأموال إلى الخليفة « على » ويأنف من اللحاق بـ « معاوية » لذا نلحظ أنه قد ذكَّره بما كان له فى القديم من (مُلك) أصيل معقد راسخ ثابت ، ومن (تاج) انعقد فوق رأسه منذ صغره ، وحتى مشيبه مما أصّل فيه وقومه الملك منذ أمد بعيد .

وعندما يناشده مُعيذاً إياه من الاستماع إلى ما يدبره الأوغاد الذين لم يلق منهم غير الشر — نراه يُعيذه بآبائه وأجداده (وإن كان قد قدّم على ذلك إعاذته بمالِكِ المُلك)

وهذه ظاهرة جديدة تحدث فى المجتمع الإسلامى تمّ فيها البعث للأمجاد الشرفية التى كانت للبعض قبل الإسلام ، والتذكير بها إظهارا للتفوق والأصالة و(الأرستقراطية)الأمور التى قضى عليها الإســلام باشتراعه (السواسية) كأسنان المشط محوا لأى تمييز لأحد على أحد فى ظلال الدين

الجديد مما كان سابقاً شائعاً وسائداً في الجاهلية .

وظاهرة أخرى تمت فيها الإعادة بما كان للآباء والأجداد من عفة وترفع عن الإصاخة لتدبير الأوغاد .

وغاية ما يمكن قوله في هاتين الظاهرتين أنه قد تم فيهما التخطي والتجاوز لما كان مطبقاً في صدر الإسلام من عدم التفاخر أو التحدث بما سلف من أمجاد أو أجداد كانوا في الجاهلية وفيهما العود إلى الماضي الذي يمثل ردة نفسية بدأت تطل بقرونها على حياء ، ثم استحكمت فيما بعد حيث عظمت سخائمها في نقائض العصر الأموي حيث مازج الفخر الهجاء .

وغاية ما يمكن التعليل به أنه ربما تكون الانشطارات والانقسامات التي حدثت على المجتمع الإسلامي نتيجة للنزاع السياسي على الخلافة والحكم وتسنم السلطة في الدولة الإسلامية هي الأمور التي فتحت المجال للعصبيات القبلية لتظهر ، ولأمجاد الماضي وعظمة الآباء والأجداد لتتكشف ويتم التفاخر بها والتحدث عنها والإعادة منها .

وما كان البعث الحديث للعصبيات والفخر بماضي الأمجاد أن يظهر لولا النزعات السياسية التي استحكمت .

وهي إذا ما كانت باب شر قد انفتح فقد كان فيها النهوض لفن القول في الأدب — حتى وإن كان فيه الأهاجي المقذعة ، واستثارة العصبيات القبلية المرذولة .

ولا يكتفي الشاعر « السكوني » بقصيدته الآنفة ، وإنما نرى خوفه

الذى تسلط عليه كراهة أن يلحق « الأشعث » بـ « معاوية » فيضيع عظمة الأمجاد التى عرف بها (آل كندة) و« الأشعث » سليلهم المنعقد عليه تاج الملك، والناشىء فى ظلاله .

فن منطلق التخوف هذا كشعور وإحساس داخلى سيطر عليه نرى « السكونى » يلاحق « الأشعث » بشعره الذى يدور حول هذا المعنى فيكتب إليه قصيدة أخرى قصد التأكيد على الغرض الذي يهدف إليه فيقول :[1]

أَبْلغ « الأشعثَ » المعصَّب بالتا ... ج غلاماً حتى علاه القتير[2]

يا ابن آل المُرارِ من قِبَلِ الأ ... مّ، و «قيسٌ» أبوه غيثٌ مطير

قد يصيب الضعيف ما أمر الا ... ءُ، ويخطى المدرَّب النحرير

قد أتى قبلك الرسول « جرير » ... فتلقاه بالسرور « جرير »

وله الفضل فى الجهاد، وفى الهجـ ... ـرة والدين كل ذاك كثير

إن يكن حظك الذى أنتَ منه ... غَيْرٌ مِنَ الحظوظِ صغير

يا ابن ذي التاج، والمبجَّل من (كِنْـ ... ـدَة) ترضى بأنْ يقالَ أمير

(أذربيجان) حَسْرةٌ فذرنها ... وابْغِينَّ الذى إليه تصير

واقبلِ اليومَ ما يقولُ « عليٌّ » ... ليس فيما يقـ ... ـوله تخيير

واقبلِ البيعةَ التى ليس للنـ ... ـاس سواها من أمرهم قطمير

عمرك اليوم قد تركتَ « عليّاً » ... هل له فى الذى كرهتَ نظير؟!

---

(١) صفين ٢٢ (٢) الشيب

البيان الأدبي :

ما زال الشاعر « السكوني » يركّز على التذكير « للأشعث » بأنه سليل بيت الملك ليبعث في نفسه حبّ الأصالة في بيت الملك من (آل كندة) ودافعه في ذلك أن ينطلق به إلى الشريف من التصرفات ، فسليل بيت الملك لن يقبل بالإمارة ، ولن يرضى بولاية وهو سليل ملك تليد ، وتاج الملك كان يحلّي جبينه منذ صغره وحتى مشيبه ، والمعرّق في الأصالة لا يليق به أن يتعلق قلبه بولاية مهتزة مُنتقِضة (كأذربيجان)

ولما كان الشاعر قد اعتبر أنه قد بلغ الغاية في الإعلاء والسمو بـ « الأشعث » والتحقير لولاية (أذربيجان) لذا — ساغ له أن ينتقل إلى الهدف الأسمى من قصيدته ، وفحواه الدعوة إلى الرضى بما يُشير به الخليفة « علي » حيث لا مُنصرف للناس عنها — كما أن « عليا » لا يوجد من يشركه في الصلاحية لتولّي الخلافة .

وورود قصيدتين متلاحقتين لشاعر واحد ، وفي غرض واحد يشعر بأهمية الشعر في نفوس القوم في تلك الفترة ، وبمدى استثارته لحماسهم تجاه غرض معين ، فقد استخدم الشعر أداة للتأثير عن طريق التحميس المستثير ليصرف (الأشعث) عن اللجوء إلى « معاوية» تـكريما لنفسه ولتاريخ أمجاد قومه، ويأتي نصح الشاعر له بأن يتابع (عليا) المـكتمل الصلاحيات التي تؤهله للخلافة ، حيث ينعدم من يناظره في مؤهلاته تلك ومن الشرف للأشعث سليل الملك أن يـكون واليا من قبل (علي) هذا .

ويبدو أن شعر (السكونى) قد أحدث أثره فى نفس الوالى الأشعث، حيث وجدنا له شعراً يعلن فيه وجهة نظره فى الخليفة , على , يشعر عيله إليه لسبقه وفضله فى قصيدتين متواليتين أيضا – قال فى أولاهما [١]

أتانا الرسولُ رسولُ « على » فسُرَّ بمقـــدمه المسلمونا
رسول الوصىِّ — وصىِّ النبىِّ له الفضلُ والسَّبْقُ فى المؤمنينا
بمـــــا نصَحَ الله ، والمصطفى رســولَ الإله النبىِّ الأمينا
يجاهـــــــدُ فى الله لا ينثنى جميعَ الطغاة مع الجاحدينا
وزيرُ النبىِّ ، وذو صِهْرِه وسَيْفُ المَنِيَّةِ فى الظالمينا
وكَمْ بطلٍ ماجـدٍ قَـدْ أذاقَ مَنِيَّةَ حَتْفٍ مِنَ الـكافرينا
وكم فارسٍ كان سال [٢] النزالَ فآبَ إلى النار فى الآيبينا
فذاكَ (علىٌّ) إمامُ الهُـــدَى وغَيْثُ البريّةِ والمُقحَمينا [٣]
وكانَ إذا دعا للـــنزال كَلَيْثِ عَرِينٍ — يَزِينُ العَرِينا
أجاب السـؤال بنُصْحٍ ونَصْرٍ وخالِصِ وُدٍّ على العالمينا
فـــا زال ذلك من شــــــأنه ففازَ وَرَبِّى مـع الفائزينا

ومما ورد على لسانه أيضا قوله [٤]

أتانا الرسول – رسول الوصىِّ « على » المهذب مِنْ هاشمِ
رسولُ الوصىِّ – وصىِّ النبىِّ وخيرُ البريةِ من قائمِ
وزير النبى ، وذو صهره وخير البرية فى العــالم

---

(١) وقعة (صفين) ص ٢٣ — ٢٤
(٢) مخففه من سأل — بمعنى طلب القتال فأورده نار جهنم إثر قتله.
(٣) الذين أصابهم الجدب (٤) وقعة (صفين) ص ٢٤

له الفضل والسَّبقُ بالصالحات لهدى النبي به يأتمي [1]
محمدٌ أعني رسول الإله وغيثُ البرية والخاتم
أجبنا « علياً » بفضلٍ له وطاعةِ نُصْحٍ له دائم
فقيهٌ حليمٌ له صَولةٌ كليثٍ عرينٍ بهـا سائم
حليمٌ عفيفٌ وذو نجدةٍ بعيدٍ عن الغَدْرِ والمائم

وعلى الرغم من أن القصيدتين لا تمثلان قوة تعبيرية تلفت النظر إليهما كشعر متميز — غير أن أهميتهما تنحصر في أن فيهما الإبانة عن وجهة نظر والى (أذربيجان) في الخليفة « على »

ومما لا شك فيه أن رأى الحاكم الإقليمى في رأس الدولة يختلف عن رأى العامة من الناس فيه ـ فضلاً عن رأى الهلى والسُّوقة منهم .

فهو يمثل الرأى الحكومى والرسمى للوالى باعتباره حاكماً من لدن الخليفة ، وبلغة العصر نقول إنه رأى أحد المسئولين التنفيذيين فى الخليفة المتولى للأمر حديثاً وهو مازال بصدد التلقى لموافقات الولاة ـ مما يضفى على الرأى أهمية خاصة فى تلك الآونة !!

وينضم إلى تلك الأهمية ـ ما أُثِر عن « الأشعث » من أنه سليل الملك ، وصاحب التاج من آل (كندة) .

وأهمية الرأى ووجهة النظر الصادرة عن « الأشعث » تنحصر فيما يلى :

(أ) لما لقائلهما من أهمية على المستوى الرسمى ـ باعتباره حاكما لأحد أقاليم الدولة الإسلامية — فى وقت يتلقى فيه الخليفة الجديد

(١) أى يؤتم به بقلب الميم الثانية ياء

المبايعات من الولاة فى سائر الأصقاع ، ولم يستقب له الأمر تماما بعد !!

(ب) ولما لرأى « الأشعث » من وزن من بين الولاة باعتباره سليل ملوك (كندة) فهو بين العرب ما هو . وتلك الاعتبارات تجعل من رأى الوالى « الأشعث » فى الخليفة « على » حكماً غير قابل للطعن فى خلافته ، وتضع وجهة نظره فى موقف يجعلها خالصة من أى تزلف أو أو مداهنة أو تدليس — مما يؤدى إلى التدعيم لموقف الخليفة«على» .

(علىّ) فى نظر (الأشعث)

وطبقا لما صدر عن « الأشعث » فى خطبته والشعر المنسوب إليه من آراء فإننا نستطيع أن نستشف من خلالها رأى الوالى « الأشعث » فى خليفته « على » وببساطة ويسر يمكننا أن نجمله فيما يلى :

(أ) « على » وَصِى النبى ، وصاحب الفضل والسبق إلى الهدى من بين سائر المؤمنين — إذن — فهو إمام الهدى والمهتدين .

(ب) « على » المجاهد فى الله بعزم لا يلين ، والسيف المُصْلت على رقاب الظالمين ، والفارس ذو النجدة الحامى لحماه .

(ج) « على » صهر النبى ، ورَجُله فى المهمات ، وهو الفقيه الحليم العفيف الذى لا يغدر ، ولا يؤثم نفسه .

ومما يلحظ : أن الوالى « الأشعث » قد أضفى على الإمام « على » كل الصفات التى يحرص العربى المسلم المتدين على الاتصاف بها .

فالحلم والعفة والشجاعة والمسارعة إلى إنجاد الملهوف المستصرخ —

جميعها أخلاق يحرص على الاتصاف بها كل عربى نابه نشأ وترَبَّى فى بيئة الصحراء العربية ؛ وهى إذا كانت تُعَدّ من المحامد التى يفخر العرب بالتحلِّى بها فقد جعلها الإسلام خلقا دينيا يشرِّف كل من يلتزمها اتصافاً، ويطبقها أسلوب حياة يَنْهجه ويتعامل به مع الآخرين، ويلقَى عليه الجزاء الطيب فى آخرته .

هذا ـ وقد صَدَّر الشعر فى كلتا قصيدتيه بالصفات ذوات الأثر الثابت فى « على » من أنه : ابن عم النبى ومن آل بيته ، والحِرْز للشرف بمصاهرته ونديبه الممثل لشخصه فى أخص مهماته .

وهكذا ـ كان للكلمة التى صيغت بها رسالة الإمام أثرها القوى فى الإقناع لوالى « الأشعث » فى أن يسلك طريق الصواب الذى حدد مضمونه الإمام الخليفة . فقد كانت الرسالة محكمة دقيقة قوية فى معانيها، وكانت واضحة الجهة مباشرة إلى الغرض الذى صيغت من أجله ، وأثمرت خير ثمار عُلِّقت عليها ، وكانت فيها الكفاية لإحلال التفاهم وقبول النصح والانصياع له ـ بدلاً من المخالفة والعصيان وما يترتب عليهما من اشتجار السيوف .

فما زال الفكر العربى والأحاسيس المنبعثة فى النفس العربية تهزها قوة الكلمة المقنعة الصادرة عن صدق وفى أوفق مناسبة تُقال فيها مما انجلى عنها أطوع إجابة كانت عين الطاعة والقبول للنصح ، والاستجابة لما أشار به الخليفة الإمام « على »

وفود التأييد

الموقف السياسي :

قدم على الخليفة « على » بالكوفة أشراف بنى تميم [1] وفيهم « الأحنف بن قيس » و « جارية بن قدامة » و « حارثة بن بدر » فقام « الأحنف » رجل تميم الأول فتكلم قائلا[2] :

« يا أمير المؤمنين ـ إنه إن تكُ (سعد) لم تنصُرك يومَ (الجمل) فإنها لم تنصُر عليكَ ، وقد عجبوا أمس ممَنْ نصَرَك ، وعجبوا اليوم ممَنْ خذَلك ـ لأنهم شكوا فى « طلحة » و « الزبير » ولم يشكوا فى « معاوية » وعشيرتنا بالبصرة ـ فلو بعثْنا إليهم فقدِموا إلينا فقاتلنا بهم العدو ، وانتصفْنا بهم وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس» ؟!!

التعليق

ويبدو من هذا أن موقف « تميم » كان حياديا فى موقعة (الجمل) بسبب عدم اتضاح المواقف فى ذهنهم إزاء بعض الأشخاص من أمثال طلحة والزبير ومعاوية ، وأبانوا أن حيادهم لم يكن مخالفة ومعارضة للإمام فى مواقفه ـ بدليل هذا العرض الذى قدموه للخليفة « على » أن يستقدموا قومهم ، ويقفوا إلى جانبه، ويبدو أن الخليفة الإمام يريد الاستيثاق أكثر من صحة ما عرضه عليه « الأحنف » فى كلمته — فنراه ينقل الحديث إلى الرجل الثانى فى (تميم) قائلا :

---

(١) وكانت (سعد) من تميم لم تشترك «عابا» فى قتاله أهل (الجمل) ويبدو أن الإمام يشعر بموجدة إزاء تصرفهم هذا

(٢) صفين ص٢٤

الإمام : ما تقول يا « جارية » ؟

جارية : « أقول هذا جمع حشره الله لك بالتقوى ، ولم تستكره فيه شاخصاً ، ولم تُشخِص فيه مقيما .

والله لولا ما حضرك فيه من الله لَفَهْهَكَ سياسته ، وليس كل من كان معك نافعك !

وربَّ مقيم خيرٌ من شاخص ، ومِصْراك خيرٌ لك ـ وأنت أعلم »

* * *

إذن ... فقد جاءه « بنو تميم » مدفوعين بغرض سام شريف أساسه التقوى لله يقيناً منهم أن الحق إلى جانب الإمام .

لذا ـ ترام وقد وفد بهم الحب دون استكراه .

وكان « جارية » حكيما فيما عرضه من رأى من أنه : ليس كل من كان معك نافعك !!

كما أنه زاد الإمام إيضاحا فى أمر يُفترض أن الإمام يعلمه ؛ ذلك الذى أنهاه بقوله : وأنت أعلم ـ حيث حدد له بدقة (من معه ـ ومن عليه) بقوله : مصراك خير لك [1] .

هذا ـ مع عدم الإهمال للحكمة الذهبية فى تعامله مع (من معه) بأن ليس كل من وقف إلى جواره كان نافعا له .

وهذه دعوة إلى الاستيثاق ممن تابعه ، وفيها النصح ألا يَرُدّ من جاء به الحب نتيجة لتحكيم عامل الدين (التقوى) التى جمعته بأشراف (تميم) .

---

(١) الكوفة والبصرة

ومازال الإمام يحاول استزادة الأمر وضوحا، والوضع وثوقا من سائر الأفراد الرؤوس الذين يحضرونه فنراه ينقل الحديث إلى « حارثة ابن بدر » فيقول :

علي : ماتقول يا « حارثة »[1] ؟

حارثة . ياأمير المؤمنين — إنا نشوب الرجاء بالمخافة .

والله لوددت أن أمواتنا رجعوا إلينا فاستعنّا بهم على عدونا ولسنا نلقى القوم بأكثر من عددهم، وليس لك إلا مَنْ كان معك ، وإن لنا في قومنا عدد لا نلقى بهم عدوا أعدى من « معاوية» ولا نسدّ بهم ثغرا أشد من (الشام) وليس بـ (البصرة) بطانة نُرصِدهم لها ، ولاعدو نُعِدُّهم له » .

* * *

والحوار هنا فيه الإقناع الكافي للخليفة الإمام بأن (تميم) تقف إلى جانبه ، وتمادى « معاوية » في موقفه المضاد للإمام يستوى في ذلك العداء الأحياء والأموات من (تميم) وقد أبان « حارثة » أن تأييد أهل (الشام) لـ « معاوية » في نزاعه للخليفة قد اعتُبر بمثابة الجبهة القتالية المادية الخطرة التي تنبغي المسارعة إلى سدّها بالقضاء عليها ، وتكثير الجموع المقاتلة لهم إلى حد استدعاء الأموات على سبيل التمنّي !!

وقد كان في الآراء الحوارية التي أدارها الإمام مع السادة من (تميم) مااطمأن الإمام إلى سلامة موقفهم ، وصحة الاطمئنان إليهم من بعد

(١) شاعر (تميم) وفارسها، وكان موثوقا به في سداد الرأى .

أنْ عبَّر كل منهم بصراحة وحرية ووضوح عن رأيه فى مجريات الأمور والأحداث ، وأنهم طبقا لما تمليه عليهم تقواهم ان يقفوا إلا إلى جانب صاحب الحق الخليفة « على » وان يعادوا إلا « معاوية » ولن يحاربوا إلا جبهة أهل (الشام) .

وما أن بلغ الحوار مبلغه اطمئنانا من نفس الإمام حتى نراه يشير إلى « الأحنف بن قيس » زعيم (تميم) بأن يكتب إلى قومه (بنى سعد) يستقدمهم إلى (الكوفة) فكتب :[1]

« أما بعد — فإنه لم يبق أحدٌ من (بنى تميم) إلا قد شَقُوا برأى سيدهم غيركم — شَقِيتْ (سعد بن خرشة) برأى « ابن يثربى » وشقيت (حنظلة) برأى « رحيان » وشقيت (عدى) برأى « زفر » و « مطر » وشقيت (بنو عمرو بن تميم) برأى « عاصم بن الدلف » .

وعصمكم الله برأيى لكم حتى نِلْتم مارجوتم ، وأَمِنتم ماخِفتُم ، وأصبحتم منقطعين[2] من أهل البلاء — لاحقين بأهل العافية .

وإنى أخبركم أنا قدمنا على (تميم) الكوفة فأخذوا علينا بفضلهم مرتين :

بمسيرهم إلينا مع (على) وميلهم إلى المسير إلى (الشام) ثم أَخْروا[3] حتى صرنا كأنا لا نُعرَف إلا بهم — فأقبِلوا إلينا ، ولاتتكلوا عليهم ،

(١) صفين ص ٢٥ .
(٢) أصبحتم بعيدين عنهم
(٣) غلبتنا أفضالهم التى غطت علينا

فإن لهم أعدادنا من رؤسائهم ... فلا تبطئوا ، فإن من العطاء حرمانا ومن النصر خذلانا .

فحرمان العطاء القلة ، وخذلان النصر الإبطاء ، ولاتنقضى الحقوق إلا بالرضى ، وقد يرضى المضطر بدون[1] الأمل » .

التعليق :

الرسالة ترشد من (الأحنف) إلى بنى قومه تدور حول مايلى :

(أ) أنه قد رأى لهم الرأى المنجى لهم من المهلكة فى الوقت الذى شقى فيه غيرهم برأى سادتهم .

(ب) الإيعاز إليهم أن بنى عمومتهم من (تميم) السكونة قد انضموا إلى الامام ، ومالوا إلى السير معه إلى الشام ، وهم فى الانتظار لقدومهم دون إبطاء .

(ج) التحذير من الانضمام الى الفريق المناوىء حتى لايقعوا فى محاذير الحرمان من العطاء والنصر ، والاضطرار إلى الرضى بالدون .

وعلى الرغم من أن الرسالة صادرة من عظيم القوم وخطيبهم وصاحب الرأى فيهم ، وهى وافية من حيث الغرض الذى صيغت له ، وعنصر الاقناع فيها واضح بما أحرزوا من أمن وعافية وخلوص من البلاء بإقبالهم على الإمام بـ (السكونة) وفيها التحذير من المخالفة لما يترتب عليها من عقوبات خطيرة تلحقهم ـ ولكنا نلحظ مع ذلك مواكبة الشعر غالبا للرسالة باستثاراته الوجدانية للمضمون الفكرى الذى تحويه الرسالة .

---

(١) أى أقله .

فما من رسالة أُرسِلتْ إلا وشفعت بقصيدة شعرية تدعم معانيها وتستثير الحماس النفسي لإنفاذ ماتضمنت — حتى طغى الشعر فى هذا المجال. وغدا التراسل به أمرا مألوفا فى تلك الحقبة من النزاع .

فمع رسالة (الأحنف) هذه — نرى (معاوية بن صعصعة)[1] ينشئ قصيدة ويبعث بها مع الرسالة دَعْماً لما ورد فيها حيث يقول،[2]

«تميم بن مُرٍّ» إن «أحنف» نعمةٌ ... من الله لم يخصص بها دونكم سَعْدا
وعمَّ بها من بعدكم أهل مِصرِكم ... ليالىَ ذمَّ الناسُ كلُّهم الوَفْدا .
سواه لقطع الحبل عن أهل مِصْره ... فأمسَوْا جميعاً آكلين به رَغْدا؟
وإعظامه الصاعَ الصغير، وحذفه ... من الدرهم الوافى يجوز له النقدا
وكان لسعدٍ رأيُه أمسِ عصمةً ... فلم يُخْطِ لاالإصدارَ فيهم ولاالوِرْدا
وفى هذه الأخرى له مَحْضُ زُبْدَةٍ ... سيخرجها عَفْواً؛ فلا تعجلوا الزُّبْدا
ولاتبطئوا عنهُ ، وعيشوا برأيه ... ولاتجهلوا مما يقولُ لكم بُدّا
أليسَ خطيبَ القومِ فى كلِّ وَفْدةٍ ... وأقربُهم قُرْباً ، وأبعدُهم بُعْدا ؟
وإنَّ (علياً) خيرُ حافٍ وناعلٍ ... فلا تمنعُوه اليومَ جَهْداً ، ولاجِدا
يحاربُ من لايحرُجون بحزبه ... ومن لايساوى دينُه كله ردّا[3]
ومَنْ نزلت فيه ثلاثون آية ... تُسمّيه فيها مؤمنا مخلِصاً فَرْدا
سوى موجباتٍ جئْنَ فيه وغيرها ... بها أوجب الله الولاية والوُدّا

---

(١) ابن أخ للاحنف .

(٢) صفين ص ٢٦ — ٢٧ .

(٣) الرد — الزائف من النقود — أى من لايساوى فى تدينه شيئا .

البيان الأدبي :

القصيدة موجهة إلى فكرة أساسية مجملها :

الدعوة لـ (بني سعد) من (تميم) أن يستجيبوا لزعيمهم «الأحنف» فيما دعاهم إليه من المتابعة للخليفة «علي» .

والفكرة بوضعها هذا نراها دعوة ذات شقين :

(أ) الدعوة إلى الامتثال لرأي زعيم القوم (الأحنف) فيما ارتآه لهم من صواب وخير .

(ب) الدعوة إلى المناصرة للخليفة الإمام «علي» .

وقد أتبع الشاعر كل دعوى طرحها بالمبررات التي تظهر صواب ما يدعو إليه :

ففيما يتعلق بـ «الأحنف» نراه ينعته بأنه :

١ — نعمة من الله حبا بها (تميما) بأسرها ، وامتدت حتى شملت جميع ساكني المنطقة ، ولم يقصر خيره على (بني سعد) وحدهم ، فالرجل كريم دون ماحدّ ، وصواب رأيه فيه الصّون والحفظ لبني قومه دائما ، وعلى الأخص فيما اعتمده من رأي بالأمس بالمناصرة لـ «علي» .

٢ — الرأي في المتابعة لـ «علي» خير كله — وإن لم تتضح خيريته بعد وقد بنى على هذا الحث على المسارعة الى اعتناق مايراه لهم «الأحنف» .

٣ — «الأحنف» خطيب القوم الذي يملك ناصية القول في كل مناسبة والذي يجيد فن المشافهة لسامعيه ، والأقدر على التعبير عن رأي القوم ، وخاصة عندما تفجأهم الوفود ، ولم يصل الى مركز خطيب القوم

إلا بعد تجربة أثبتت جدارته ، وصواب رأيه ، وهو القريب مُلتمساً ،
والأسمى أداء.

وفيما يتعلق بالإمام «علي» نراه قد نعته بما يلي :

١ — أفضل من وُجِد في زمنه على سبيل القطع .

وذلك — بما صدَّر به البيت من توكيد، وبالاستغراق للخيرية وتركيزها
فيه دون غيره من سائر الحفاة والمنتعلين من أهل زمانه . وقد بنى على
هذا — المطالبة لـ (تميم) بالمناصرة له إلى أقصى الجهد والجِد في ذلك
غاية الجد .

٢ — «علي» أولى بأن يُنصَف ويُعتَرف بخلافته لا أن يُنازَع
ويُحارَب .

فقد نزل فيه وحي يفرده بالايمان الخالص بلغتْ آياته الثلاثين .

٣ — «علي» تجب الموالاة له ، وبذل الحب والود له إيجابا من الله .
لما له من سبق وفضل وجهاد ووضع متميز في بيت النبوة .

وقد كان للرسالة المنثورة «للأحنف» والرسالة الشعرية المقصَّدة
لـ «معاوية بن صعصعة» بالغ الأثر لدى بني سعد حيث استجابوا لما
دُعُوا اليه ، وساروا بجماعتهم الى (الكوفة) حيث الإمام ومن معه .

حوار وعَرْض

حول بعث رسول الى « معاوية »

للموقف السياسي: أراد الخليفة «علي» أن يبعث برسول إلى (معاوية) علّه يقنعه بطرح النزاع، والدخول فيما دخل فيه الناس من إيكال الأمر له والتسليم فتحدث في ذلك مع من كان يحضره.

وهنا ينبرى من بين الحضور « جرير بن عبد الله » قائلا:

جرير: ابعثني إلى «معاوية» فإنه لم يزل لي مستنصحاً ووداً، [1] فآتيه فأدعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق ـ على أن يكون أميرا من أمرائك، وعاملا من عمالك ـ ما عمل بطاعة الله، واتبع ما في كتاب الله، وأدعو أهل (الشام) إلى طاعتك وولايتك، وجلُّهم قومي وأهل بلادي، وقد رجوتُ ألا يعصوني.

الأشتر: (موجهاً الكلام إلى الإمام) لا تبعثْه ودعْه ولا تصدقْه، فوالله إني لأظنّ هواه هواهم، ونيّته نيّتهم.

الخليفة: دعْه حتى ننظر ما يرجع به إلينا.

---

(١) الصديق الطالب لنصحي.

وهنا يتهيأ الرسول « جرير » ليقوم بمهمة سياسية أساسها (الوساطة) لمحاولة الإقناع لوالى (الشام) المنازع « معاوية » أن يبايع الخليفة « عليا » ولا ينازعه — صارفاً النظر عن الاعتراضات التى أبداها « الأشتر » وهنا يزوّد الإمام رسوله « جرير » بتعليماته ، والأسس التى يمكنه أن يجرى فى حدودها مفاوضاته ولا يهمل أن يعرض للأسباب التى من أجلها صح عنده الاختيار لرسوله فقال :

الخليفة : إن حولى من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الدين والرأى مَنْ قد رأيتَ ، وقد اخترتُك عليهم لقول رسول الله ﷺ فيك : « إنك من خير ذى يمن »[1] إيتِ « معاوية » بكتابى — فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذْ إليه ، وأعلمه أنى لا أرضى به أميراً وأن العامة لا ترضى به خليفة .

رحلة الوساطة

وينطلق (جرير) إلى (الشام) مُوفَداً من الإمام يحمل رسالته مفوضا ومزودا بصلاحيات محددة ، ويصل إلى (معاوية). وينزل عنده ويدخل عليه فيقول :[2]

(أما بعد يا معاوية فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرَمَيْن[3] وأهل المِصْرَيْن[4] ، وأهل الحجاز وأهل اليمن ، وأهل مصر وأهل العروض

---

(١) من خير أهل اليمن
(٢) وقعة صفين ص٢٨
(٣) مكة والمدينة
(٤) الكوفة والبصرة

وعمان وأهل البحرين واليمامة فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التى أنتَ فيها — لو سال عليها سيل من أوديته غرّقها .

وقد أتيتُك أدعوكَ إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل.

التعليق

الجانب التهديدى فى كلمه الرسول واضح ـ فالإجماع ذو الأهمية فى تقرير مصير الأمة الإسلامية قد وقف ضد « معاوية » منحازاً إلى الخليفة (على)

وما بقى فى يد الوالى فكمٌّ لا يُعْبأ به ، فليست (الشام) فى نظر الرسول الوسيط غير مجرد حصون محدودة الأثر — تعترض طوفان التأييد العارم للخليفة الشرعى المبايَع له ، وسوف لا تبقى ولا تقوى على الصمود أمام دَفْق سيل التأييد الذى لن يعوقه عائق .

وفى ختام الكلمة يوضح الرسول مهمته بأنه : الداعية إلى الرشاد والهداية ، ويركز هدايته وترشيده على الاستجابة بالمبايعة .

ولم يهمل الرسول الناصح فى صدر كلمته أن يحاول مس قلب (معاوية) حيث يذكره بأن الخليفة الإمام — هو ابن عمه ـ لعل رابطة الدم تنزعه فتمطّنه تجاهه فينصاع للمبايعة له — صارفا النظر عن النزاع معه .

إنه التركيز فى أسلوب المواجهة بالكلمة ، واندفاع إلى الغرض مباشرة دون تفريعات ، وترتيب فى العَرْض ، وسلامة فى استخلاص النتائج — فقد قدم عملية الهزّ لمشاعر الوالى بتهديده بالحق ، ثم أتبعه

الدعوة الهادئة إلى المبايعة حيث لا تُجدِى المكابرة — إنها المراوحة الأسلوبية بين الوعد والوعيد .

ثم يدفع إلى (معاوية) برسالة (على) ويُلْحَظ أن البادىء بالمراسلة الخليفة (على) بناء على فكر عَنّ له .

ولربما كان القصد أن يتمكن الإمام عن طريق الرسالة والرسول من الإقناع لـ (معاوية) أن يطرح جانب النزاع والمخالفة ، ويعود إلى الحَوْزة معترفاً بخلافة الإمام .

وبهذا يكون الخليفة (على) قد أحل الإقناع بالكلمة الهادئة التى يحملها مبعوث ومثل شخصىّ يتوسط ويفاوض محل إعمال السيف .

حيث لا يوجد ماهو أقسى من تحكيم السيف بين المتنازِعَيْن ، وعلى الأخص بين رءوس فى الدولة الإسلامية .

ومما لاشك فيه أن فى تقاتلهما تفريقاً لصفوف جماعة المسلمين ، وإضعافاً لدولتهم التى تنازعتْها الأهواء والفتن فى تلك الآونة وتتهددها الحرب الأهلية ، ولربما — كان الخليفة الإمام راغباً فى الإعذار إلى « معاوية » بأن يحاول رده بالحسنى إلى صواب الرأى إقناعا بالدخول فى طاعته قبل أن يُحَكِّم السيف فى أمر نزاعهما — شأن الإمام دائما فى إعذاره إلى مخالفيه (١) — فقد كان هذا مبدأً عاما عنده — يحاول به تغليب جانب السلم والمصالحة فيه على القتل والحرب .

---

(١) راجع صنع الامام مع « طلحة » و « الزبير » قبل الدخول معهما فى معركة (الجمل) وفى لقائه برءوس الكفر مبارزة قبل التحام الصفوف قتالا فى غزوة بدر .

ويدفع « جرير » برسالة الخليفة « علي » إلى « معاوية » فإذا فيها[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد – فإنَّ بيعتى بالمدينة لزمتك وأنتَ بالشام – لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا « أبا بكر » و « عمر » و « عثمان » على ما بُويعوا عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد – وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ؛ فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك رضاً – فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منه ؛ فإنْ أبَى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولى ، ويُصليه جهنم وساءتْ مصيرا وإن « طلحة » و « الزبير » بايعانى ، ثم نقضا بيعتى ، وكان نقضهما كردّهما ، فجاهدتُهما على ذلك حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون – فادخل فيما دخل فيه المسلمون – فإن أحب الأمور إلىّ فيك العافية – إلا أن تتعرض للبلاء . فإن تعرضْتَ له قاتلْتك ؛ واستعنْتُ الله عليك .

وقد أكثرتَ فى قتلة « عثمان » فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملْك وإياهم على كتاب الله .

فأما تلك التى تريدها فخُدْعة الصبي عن اللبن ، ولعمرى – لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ (قريش) من دم « عثمان » .

واعلم أنك من الطلقاء[2] الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا تُعرض فيهم الشورى .

---

(١) وقعة (صفين) ص ٢٩ .
(٢) الذين أطلق سراحهم النبى عليه السلام بعد فتحه لمكة عنوة .

وقد أرسلت إليك وإلى من قِبلك « جرير بن عبد الله » وهو من أهل الإيمان والهجرة ـ فبايع ولاقوة إلا بالله » .

* * *

التعليق :

السمة والمضمون :الرسالة هادئة فى طابعها العام وودية فيما نص عليه من حب العافية لـ «معاوية»، وتحوى مضمونا مؤداه المطالبة لـ «معاوية» بالدخول فى طاعة الإمام الذى أكده بتكراره له فى موضعين مختلفين من الرسالة قائلا : فادخل فيما دخل فيه المسلمون .

وقـــد رتّب الإمام مضمون الرسالة فى تناسق اعتبارى مسرود كما يلى :

(أ) التصدير للرسالة بما يؤكد لزوم « معاوية » وأهل الشام المبايعة للخليفة « على » مهما كان قصِيّاً فى أطراف الدولة .

(ب) يورد تعليلا لصحة هذه المبايعة بأن مبايعيه هم مبايعو « أبو بكر » و « عمر » و « عثمان » الخلفاء الراشدون الأول :

(جـ) يتحدث عن الشورى ويقصرها على المهاجرين والأنصار .

(د) عرض سريع لمـــا حدث من « طلحة » و « الزبير » وصنيعهما الذى أوْدى بهما فى موقعة (الجمل) .

(هـ) مطالبة « معاوية » بإنفاذ البيعة للإمام ـ من بعد أن وضّح وبيّن ولم يدع مجـــالاً للشك فى صحة بيعته فى ترتيب تسلسلى موجز مقنع .

(و) المعارضة والمنازعة بعد ذلك فى أمر البيعة تعرُّضٌ للبلاء بالحرب وإن كان من الآكد حبه السلامة له ، وتقديمها على البلاء وموجباته .

(ز) التفنيد لدعوى « معاوية » المطالبة بدم « عثمان »

وقد أورد الإمام لذلك حلاً فقهيا سليما مؤداه : أن الموقف السياسى الحالى بين الخليفة والوالى يتضمن أمراً جوهريا وآخر ثانويا فالجوهرى هو المطالبة بإنفاذ الوالى لبيعة الخليفة أولا ثم بعد ذلك يُنْظَر فى حقيقة الأمر الثانوى المتعلق بدعوى المطالبة بدم « عثمان » إذا ما صح لـ « معاويه » أن يكون صاحب حق فى المطالبة بهذا الدم .

وهنا يسوغ له أن يحاكم القتلة إلى الخليفة فينفذ حكم الله فيهم . من بعد أن يكون قد استقر نظام الحكم فى الدولة .

(ح) الطعن على « معاوية » فى دعواه بأنها خدعة لاتنطلى على عاقل رشيد .

(ط) « معاوية » لو نظر بفكر مجردٍ عن الهوى لصحّتْ عنده براءة الإمام من دم « عثمان »

(ى) « معاوية » من طلقاء فتح مكة الذين لا تحل لهم الخلافة .

(ك) « معاوية » ليس من أهل الشورى التى حُصِرت فيمن هاجَر ونصَر .

وتلك اعتبارات أوردها الإمام ليصحح الفكر عند « معاوية » إذا ما كانت نفسه تحدثه بشىء فيما يتعلق بالخلافة حيث قد تمت المبايعة الصحيحة لـ « على » فلزمت لذلك « معاوية » بناء على هذا .

وقد أبان الإمام لـ (معاوية) أن لا حق له فى التقرير لنظام

الأمور من الخلافة أو الشورى من بعد أن قنّن كلّاً منهما، وحدّه بشرطه وأسقط حقه فى كليهما .

ولم يهمل الإمام إبراء نفسه ، وتصحيح موقفه فى تصرفاته إزاء ما حدث منه فى موقعة (الجمل) وإزاء مقتل الخليفة عثمان تلك الأحداث التي هزت كيان المجتمع الإسلامى ، ولم تترك الرسالة فى وفائها مجالا لتفلّت الوالى معاوية من المبايعة إذا صحت منه النية متجهة إلى الصواب من بعد أن قضت على كل ما يبعث على الشك أو التنازع بما قررته من قضايا أساسية تتعلق بالخلافة والشورى .

إنها النهج لشريعة الدولة فى نظام الحكم ، والتبصير للوالى فى مقام الإقناع بالكلمة الهادئة ، والدعوة إلى التصفية والصفاء بعد زوال الشكوك ، والقصد نحو إقامة نظام الحكم المستقر أولاً شغل الأمة الشاغل (الخلافة) تُنفذ وتُبرم ، ثم يتم بعد ذلك الإنهاء لسائر المشاكل الفرعية .

ويقرأ « معاوية » رسالة الخليفة « على » وإثر فراغه منها ينهض الرسول « جرير » فيخطب قائلا : [٢]

« الحمد لله المحمود بالعوائد [٢] ، والمأمول منه الزوائد — المرتجى منه الثواب — المستعان على النوائب .

أحمده وأستعينه فى الأمور التى تحيّرُ دونها الألباب ، وتضمحل عندها الأسباب .

---

(١) وقعة (صفين) ص ٣٠ (٢) العطايا والنعم

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، كل شىء هالك إلا وجهه ـ له الحكم وإليه ترجعون .

وأشهد أن (محمداً) عبده ورسوله ـ أرسله بعد الفترة، وبعد الرسل الماضية ، والقرون الخالية ، والأبدان البالية ، والجبلة الطاغية ـ فبلّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وأدى الحق الذى استودعه الله ، وأمره بأدائه إلى أمته ﷺ من مُبتعث ومُنتجب[1] .

أيها الناس ـ إن أمر « عثمان » قد أعيا من شهده ، فما ظنكم بمن غاب عنه ؟.

وإن الناس قد بايعوا « عليا » غير واتر ولاموتور ، وكان « طلحة » و « الزبير » ممن بايعه ثم نكثا بيعته من غير حَدَث .

ألا وإن هذا الدين لايحتمل الفتن ـ ألا وإن العرب لاتحتمل السيف .

وقد كانت بـ (البصرة) أمس ملحمة وإن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس !

وقد بايعتْ العامة « عليا » ولو ملّكنا الله أمورنا لم نختر لها غيره ومن خالف هذا استعتب[2] ، فادخل يا « معاوية » فيما دخل فيه الناس .

فان قلتَ : استعملنى « عثمان » ثم لم يعزلنى فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرىء ما فى يديه ـ ولكن الله لم يجعل للآخر

---

(١) مختار .

(٢) طلب المعافاة مما فرط منه .

من الولاة حق الأول ، وجعل تلك أمورا موطأة ، وحقوقا ينسخ بعضها بعضـا .

التعليق:

: تنصب الخطبة في مضمونها على التوضيح والتقرير للأمور التالية :

(أ) العجز التام عن التحديد لحقيقة ماتم في اغتيال الخليفة « عثمان ».

(ب) البيعة العامة تمت لـ « على » وليس لها غيره في أى اختيار حر صريح يمكن أن يتم بعد — على سبيل فرض التحلل عما تم .

(حـ) دعوة (معاوية) إلى المبايعة له دخولا فيما دخل فيه العامة .

(د) تقرير حق الخليفة المبايع في العزل أو التثبيت للولاة .

(هـ) توضيح أن الولاية رهن موقوف بصلاح الوالى في إدارتها ، وليست ميراثاً في الحكم — وإنما الخليفة الجديد يرى رأيه في الولاة ، وتفنيد أى فرض ينافى ذلك .

(و) استطاع (جرير) أن يثبت أن استدامة الوالى في الحكم للولاية في عهد الخليفة الجديد رغما عن أنفه أمر ليس من الدين في مجتمع أساسه الدين .

(ز) بين أن الخليفة الجديد لا يلزمه الإبقاء على جميع تصرفات سابقة ، وإنما يملك حق النقض لها إذا ماتبين له فسادها .

(ح) أوضح حقيقة ماتم فيما يتعلق بـ (طلحة) و (الزبير) لينفى أى شك يتعلق بشأنهما ، وأنهما قد انتهت بملحمة لاطاقة للعرب بالدخول في مثيلة لها .

(ط) الخطبة تقنن الأسس العامة لتولى الخلفاء، وحقوقهم فى التصرفات العامة، وفى تغيير الولاة إذا رأوا ذلك لازما، وعدم إلزامهم بالإبقاء على تصرفات اتخذها سابقهم ورأى لاحقهم الخير فى تبديلها وإثبات حق الخليفة الجديد فى أن يرى رأيه فى الولاة تثبيتا أو عزلا وفق مايراه صالحا عاما.

المضمون والسمات :

(ا) الخطبة موضوعية فى حقيقة ماتضمنت، وقد عرضت فى أسلوب هادىء مقنع خال من التهديد اللهم إلا ماورد عن ملحمة (البصرة) تلميحاً، وقد افتتحت بالحمد الوفير لله وإفراده بالألوهية فى شهادة تعترف بأيلولة الملك والبقاء والرجوع إلى الله، وشهادة برسالة محمد الذى بلغ ونصح.

(ب) لم يعهد مثل هذا الطول الجامع لأصول الدين، والتحميدات الممتدة، فى صدر خطب تلك الفترة، وربما كان الموقف الخاص بتقرير أمر الخلافة والولاة وموقف الخليفة منهم طبقا لما ترتضيه الشريعة الإسلامية هو الذى دفعه إلى الإطالة فى هذه الناحية ـ تذكيرا بحقائق دينية أثبتت عليها تشريعات قررت أمر الحكم فى قمته (خلافة) ونزولا حتى مستوى (الولاة).

وينتهى المبعوث « جرير » من خطبته فيجلس، ويقول « معاوية »: انظر، وننظر، وأستطلع رأى أهل الشام، ويأمر فينادى المنادى: الصلاة

جامعة ، ويجتمع الناس ؛ فيصعد « معاوية » المنبر ، ويخطبهم قائلا[1] :

الحمد لله الذى جعل الدعائم للإسلام أركانا ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقّد قبسه فى الأرض المقدسة التى جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلّها أهل الشام ، ورضيهم لها ورضيها لهم لما سبق من مكنون علمه من طاعتهم ومُناصحتهم خلفاءه والقوّام بأمره ، والذّابين عن دينه وحُرُماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفى سبيل الخيرات أعلاما يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين .

والله َ نستعين على ماتشعّب من أمر المسلمين بعد الالتئام ، وتَباعد بعد القرب .

اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ويريدون هَراقة دمائنا ، وإخافة سبيلنا ـ وقد يعلم الله أنا لم نُرِدْهم عقابا ، ولانَهْتك لهم حِجابا ، ولا نوطئهم زَلقاً .

غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوبا لن ننزعه طوعا ماجاوب الصَّدَى ، وسقط الندى ، وعُرِف الهدى .

حملهم على خلافنا البغى والحسد ، فالله َ نستعين عليهم . أيها الناس قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين « عمر بن الخطـــاب » وأنى خليفة « عثمان بن عفان » عليكم ، وأنى لم أُقِم رَجُلا منكم على خَزاية قط ، وأنى ولى « عثمان » وقد قُتِل مظلوما والله يقول : « ومن قُتِل مظلوما

---

(١) صفين ٣١ .

فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرف فى القتل إنه كان منصورا » .

وأنا أحبُّ أن تُعْلِمونى ذات أنفسكم فى قتل « عثمان » .

التعليق :

المضمون والسمات : تنحو الخطبة فى جوهر فكرتها الأساسية نحو تقرير أن الولاية ثوب كرامة ألبسه لله إياه ، ولن ينزعه أبدا ـ اعتمادا على استخلاف « عمر » و « عثمان » له ، وقد سبق هذا المضمون بمقدمة طويلة افتُتِحتْ بحمد الله ، ثم انعطف سريعاً تجاه أهل (الشام) مقررا أنهم شَرَّفوا بحلولهم أرضاً مقدسة ، وأنهم الناصحون لولاتهم ، والحماة للدين .

وعلّق عليهم الأمل فى انتظام أمر الأمة الإسلامية ـ لأن بهم الردع وحولهم تدور الألفة .

والخطبة كفيلة بالأخذ بمجامع قلوب أهل (الشام) بنظامها هذا حيث أحلّهم مكانا رفيعا فى الأمة الإسلامية لم يكن لهم من قبل :

(أ) فبهم يعتدل نظام الأمة ـ لتوفر عاملى الردع والألفة بهم وفيهم .

(ب) وهم أهل أرض مقدسة أحلها الله إياهم ولعله أراد أن يعادل بهم أهل مكة والمدينة .

(جـ) أظهر أنه آمنٌ فى ولايته ، وهناك من يحاول تعكير صفو الأمن عليه ـ ويتجاهل أنه والٍ مطالب بمبايعة الخليفة الجديد .

وفى سبيل ذلك يستنجد بالله ناصراً له عليهم .

(د) يستميت الوالى فى الاستمساك بالولاية فيعلقها على أمور كونية

لاتنتهي إلا بانتهاء الحياة من : (مجاوبة الصدى) و (سقوط الندى) .

(هـ) يصوِّر (الوالي الخطيب) ليجسِّم المعنى عندما يتحدث عن الولاية بأنها (ثوب كرامة) .

(و) يؤكد أنه ولي المطالبة بدم « عثمان » ويختم بهذا الأمر خطبته ويبنى عليه مطالبته لأهل الشام بإعلامه رأيهم فيما يتعلق بتلك المطالبة.

ويلحظ : أنَّ ماأراده « معاوية » في خطبته قد قرره في صلب الخطبة من (استمساكه بحكم الولاية) - مستدلاً بتوليه ذلك خلال عَهْدَىْ خليفتين. ولم يعرض لحقيقة حق الوالي الجديد في إقرار أو عزْل الولاة .

ثم يخرج من كل هذا إلى استطراد جانبي شحنه عاطفيا ودينيا بحديثه عن (قتل عثمان) وأدار حوله فكر أهل (الشام) وفرض لهم اعتبارا أثبت لهم فيه أهمية وجودهم بأنهم معه ، وأنهم أصحاب حَلٍّ وعَقْد في كل مايتعلق به .

وقد نجح « معاوية » في صرف النظر عن حقيقة الجدل في صلب الموضوع المعروض عليه من قِبَل الرسول « جرير » وألهب عواطف العامة بالعرض لأمر الاغتيال لعثمان ، وأثبت لهم فيه حقًّا ليس لهم وإن كان قد أحمى به مشاعرهم ، واستجمع شتات حماسهم حوله بطريقة عرضه البارعة ، التي لاتخلو من ذكاء والتي كفلتْ تجميع الأفكار حول الغرض الذي ينشده هو لا ما ينشده غيره .

مبايعة المطالبة بالدم

الموقف السياسى : وما أن يفرغ « معاوية » من خطبته حتى يجتمع عليه أهل (الشام) مبايعين له على المطالبة بدم « عثمان » وعلى أن يبذلوا أموالهم وأرواحهم حتى يأخذوا بثأره أو يموتوا فى سبيل تلك الغاية .

ولكن ـ هل استراح « معاوية » بعدهذا التأييد ؟

يبدو أن « معاوية » كان يدرك خطورة الأمر الذى دخل فيه ، وأن التأييد والبايعة له ما هما إلا خطوة أولى قد وَلَجَتْ به باب المخاطر فى النزاع ، وأن الأحداث تسرع به إلى عظائم الأمور بما فيها الصدام القتالى مع الخليفة المبايَع له « على » فهل يمكن أن يطمئن إلى نصرة أهل (الشام) له وقد بايعوه ؟

وما أن يمسى الليل بـ « معاوية » إلا وقد دخل فى غمّ بمـــا هو فيه .

وكأنما قد أزكى الغمّ من مكبوت آلامه ، فتلظّتْ بها أحاسيسه فانطلق يُنْشِدُ مُعَبِّرًا عن هواجس الضيق الذى ألمّ به فقال[1] :

تَطاوَلَ لَيْلِى واعترَتْنى وَساوِسى ... لآتٍ أتَى بالتُّرَّهاتِ البَسَابِسِ[2]

أتانا «جَرِيرٌ» والحوادثُ جَمَّةٌ ... بتلك التى فيها اجتِداعُ المَعَاطِس

أكابِدُه والسيفُ بينى وبينَه ... ولستُ لأثوابِ الدَّنِىّ بِلابِس

---

(١) صفين ٣٣

(٢) الباطل

إنْ (الشامُ) أعطتْ طاعةً يمنيةً ... تَواصفُها أشياخُها فى المجالسِ
فإنْ يجمعوا أصدمْ «علياً» بجبهةٍ ... تَفُتُّ عليه كلَّ رطْبٍ ويابسِ
وإنّى لأرجو خيرَ ما نالَ نائلٌ ... وما أنا مِنْ مُلْكِ العراقِ بآيسِ
وإلّا يكونوا عندَ ظنِّى بنصرِهم ... وإنْ يخلفُوا ظنى كفَّتْ عابسِ

البيان الادبى :

فى القصيدة حديث عن : الوساوس والخاطر والطموح !!

فالوساوس ـ طاغية شاملة سهّدته وأطالتْ ليلَهَ .

والخاطر ـ جمّة تُسرع بها الحوادث .

والطموح ـ ممتد حتى ملك (العراق) .

ولن يقتصر على مافى يده إذا ما انفسح به الأمل تطلعاً إلى مُلْكٍ أوسع (ولست بأثواب الدنى بلابس)[1] والآن ـ بقيتْ القوة المعينة على تنفيذ تلك المطامح مطلباً مرموقاً منه .

فهل يمكن أن يعينه أهل الشام بوضعهم أنفسهم رَهْن إرادته طاعة معطاة له ؟

إن هذا هو غاية مايتمناه ، ويتحرّق إليه ـ . فأتى به مشروطاً بقوله :

إنْ الشام أعطت طاعة

وإنْ يجمعوا أصدم « عليا » .

إذن فقد تقرر عزم « معاوية » على الحرب فى سبيل مايريد ولم يبق غير الاستعداد لها .

---

(١) راجع نص خطبة معاوية السابقة لقصيدته هذه حيث يقول (إن الله الحميد كسانا ثوبا لن ننزعه طوعا ...)

ولكن ـ فهل يمكن أن توصلهُ الطاعة على المطالبة بدم « عثمان » إلى تثبيت ملكه على الشام مع إمكان امتداده إلى العراق ـ مُلْكاً وليس مجرد ولاية تقتصر على الشام فقط ؟

إن المبايعة على النصرة فى المطالبة بدم « عثمان » نراها وهى توشك أن تُتخذ وسيلةً لتثبيت مُلْك الشام أولا ، وهى أيضا محاولة لمدّه إلى أقصى مَدىً يمكن أن يمتد إليه ثانيا ! !

(وما أنا من ملك العراق بآيس) .

ويمارس المبعوث « جرير » ضغطه على « معاوية » حاثاً إياه أن يبايع للخليفة « على » ويُنهى النزاع فما يكون من « معاوية » وقد استحكم الأمر بينه وبينه إلا أن يقول مقاوماً الضغط :

يا « جرير » إنها ليست بخلسة ، وإنه أمر له ما بعده ؛ فأبْلِعْنى ريقى حتى أنظر .

خَلْوة ومشورة

الموقف السياسى : ويخلو « معاوية » بثقاته وقد دعاهم ليروا معه رأيهم فى الخلاص من هذا التأزم الذى لاتلمح خلاله بارقة انفراج .

فالضغط من أجل المبايعة قائم ، والرسول يُلح ، والموقف كما حدده « معاوية » :

* أكابده والسيف بينى وبينه *

وهنا ينهض بحق المشورة « عتبة بن أبى سفيان » فيقول :

« استعِن على هذا الأمر بـ « عمرو بن العاص »

وأئمن له بدينه فإنه مَنْ قد عَرَفْتَ ، وقد اعتزل أمر « عثمان » فى حياته ، وهو أشد اعتزالاً إلا أن يُثمن له دينه »[١]

وبهذا يكون «عتبة» قد أدخل فى النزاع شخصية جديدة حاول بها التقوية لموقف «معاوية» هى شخصية «عمرو بن العاص» ويبدو أن «عمروا» قد تأكد العلم به لديهم أنه الداهية واسع الحيلة ، والطويل الباع فى التماس الحلول خلاصاً من عَصِىِّ المآزق — وعلى الأخص إذا ما كان للمشورة عطاء يرجّحها وَزْناً فى عالم التقييم للأمور المتأزمة فى سياسة وكياسة تدله على المروق بِيُسْر من أضيق المزالق ، وأشدها استعصاء على المروق.

إنه الدهاء يدعم الدهاء فى مجال السياسة من بعد أن حزَب الأمر ، وأصبح دهاء « معاوية » وحده غير مُجْدٍ أو كفيل بتحقيق حلٍّ يتناسب وصالحه وقد ضاق عليه الخناق ، واتضحتْ حاجته إلى مساندةِ دهاءٍ آخر له بعينه وقت الضائقة

لذا — رأينا « معاوية » وقد نزلتْ به مشورة « عتبة » ممثِّلة فتحاً جديداً لباب أمل يُوثَق به فى إمكان تخليصه من هذا الموقف الخطير الذى حال بينه وبين الابتلاع لريقه .

---

(١) إعتماداً على النص الذى ورد فى نهج البلاغة لابن أبى الحديد ..

استقدام « عمرو »

الموقف السياسي : - ويكتب « معاوية » إلى « عمرو » بفلسطين طالباً منه القدوم — ملخصا له الموقف فيقول :

أما بعد - فإنه كان من أمر « علي » و « طلحة » و « الزبير » ما قد بَلَغَكَ ، وقد سقط إلينا « مروان بن الحكم » في رافضة أهل (البصرة) وقَدِم علينا « جرير بن عبد الله » في بيعة « علي » وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني أَقْبِلْ أذا كرك أَمْراً »

التعليق :

المضمون والسمات : والرسالة بالغة القوة في التأثير من أجل الحث لـ « عمرو » على ضرورة القدوم .

(أ) وذلك - لما أورده آكدا من أنه لن يُبْرِم أمراً فيما عرضه عليه من رؤوس موضوعات خطيرة تنتظر قدومه ، ومشاورته فيما ينبغي انتهاجه إزاءها (وقد حبستُ نفسي عليك حتى تأتيني)

(ب) وقد أكد ضرورة قدومه بصريح اللفظ بعد ذلك (أقبلْ) حتى لا يترك مجالاً له لأي تراخ يعرض له يدعوه إلى البطء في القدوم .

(جـ) وإمعانا في التشجيع على القدوم نراه يلمح له بأن هناك أمرا يستدعي تحادثهما فيه.

وقد أظهره في معرض الأهمية الخاصة أكثر مما طرحه سابقا من مشكلات تستدعي قدومه ومشاورته فيه لفرط خصوصيته بهما .

إنه أسلوب التعامل بين الدهاة يُحكِمون صياغته ، ويُجيدون الفهم لمدلوله لمحاً دون حاجة إلى مزيد تكشيف أو توضيح .

« عمرو » يستشير وَلَدَيْه

الموقف السياسي : و تُقرأ رسالة « معاوية » على « عمرو » فيعرض الأمر على ولديه « عبد الله » و « محمد » مستشيراً طالبا رأيهما ، فيبادر ابنه « عبد الله » قائلا :

عبد الله : أرى أنَّ نبي الله ﷺ قُبِض وهو عنْك راضٍ والخليفتان من بعده ، وقتل «عثمان» وأنتَ عنه غائب — فقرَّ فى منزلك فلَسْتَ مجعولاً خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لـ « معاوية » على دنيا قليلة أوشك أن تهلك فتشقى فيها .

محمد : أرى أنك شيخ قريش وصاحبُ أمرها — وإن تَصرَّم هذا الأمر وأنتَ فيه خامل تَصاغَرَ أمرُكَ ، فالحَق بجماعة أهل (الشام) فكن يداً من أياديها ، واطلبْ بدم «عثمان» فإنك قد استنمت فيه إلى بنى أمية . ويقيم الأب رأى الولدين فيقول :

عمرو : أما أنت يا «عبد الله» فأمرتَنى بما هو خير فى دينى ، وأما أنت يا « محمد » فأمرتَنى بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا ناظر فيه .

لقد ترك الولدان أباهما فى معترك من الأمر يتنازعه . خيران [1] طبقا لتقييمه : خير الدين ، وخير الدنيا . فيا ترى أىّ الخيرين سيغلبه ؟ وإلى أى اتجاه سوف يميل ؟

لقد ذكر الأب أنه بما له من ثاقب فكر سوف ينظر مليًّا ، وعلى

---

(١) توصيف « عمرو » للرأيين المتعارضين باعتبار أن فى كل منهما كسبا أخرويا أو دنيويا ، ولم يشأ إلا أن ينعت كسب الدنيا إلا بأنه خير

هدى النظر والتقييم سيختار الاتجاه الذى سيسلكه ، ويبدو أن التحيّر والشد والجذب بين اتجاهين متعارضين قد بلغا مبلغهما بـ « عمرو » ولم يكن فى إمكانه سرعة الحسم فى الاختيار لما يترتب عليه من خطير النتائج.

١ — إنه الدين بكلّ ما فيه من رِضىً — مع استحالة تسنّمه الخلافة ، أو الرضى به خليفة (رأى عبد الله)

٢ — وإنها الدنيا بكل ما فيها من مُغريات — أخصُّها فيما يتعلق بالعربى حرصه على أن يبقى فيها مسموع الكلمة مشاركا فى عظائم الأمور فتوة موروثة فى الدم العربى تحول بينه وبين خمول الذِّكر والحال أنه شيخ قريش ، ومشورة « عمرو » لابْنَيْهِ على الرغم مما عُرِف به من دهاء يمكنه من مجابهة الأحداث وحده يمثّل : الميراث الذى سيتركه لهم من بعده — فإما نباهة وعلو شأن ، وإما انهيار وضياع منزلة بين العرب .

والأب يريد أن يميل إلى ما يختاره الولدان ميراثا مجديا من تصرف والدهما وقد عُرِض عليه الإسهام فى تقرير مصير الأمة !!

ولما كان اختيار الولَدَيْن متوازناً فى تعارضه رأينا « عمروا » متحيِّراً — وما أن يوافيه الليل . حتى تلتهب مشاعره بفعل ما فاجأه من عروض مبذولة ومسئوليات مُنتظرة واختيارات يجب أن تُحسم بالفصل فيها ، فنراه وقد وقع تحت هذه الضغوط يرفع صوته منشدا يسمع من أهله فيقول : (1)

تطاولَ لَيلِي للهموم الطوارِقِ و « خَوْلُ » (2) التى تَجلُو وُجُوهَ العوائق.

---

(1) وقعة (صفين) ص ٣٥ (2) ترخيم (خولة) ورد فى غير النداء.

وإنّ «ابنَ هندٍ» سائلي أن أزورَه ... وتلكَ التي فيها بَنَاتُ البوائِق (١)
أتاه «جريرٌ» من «عليٍّ» بخطةٍ ... أمَرَّتْ عليه العيشَ ذاتَ مَضَائق
فإنْ نالَ منّي ما يُؤمِّلُ رَدَّه ... وإن لم ينلْه ذَلَّ ذُلَّ المطابِق (٢)
فواللهِ ما أدري وما كنتُ هكذا ... أكون، ومهما قادني فهو سابقي
أخادِعُه!! إنّ الخداعَ دَنِيَّةٌ ... أم أعطيه مِنْ نفسي نصيحةَ وامِق (٣)
أو أقعدُ في بيتي وفي ذاكَ راحةٌ ... لشيخٍ يخافُ الموتَ في كلِّ شارق
وقد قال «عبد الله» قولاً تعلقتْ ... به النفسُ إنْ لم تعتقلني عوائقي
وخالفَه فيه أخوه «محمد» ... وإني لَصُلْبُ العودِ عند الحقائق (٤)

البيان الأدبي

تسيطر روح الحيرة على «عمرو» وهو يجتر حقائق الموقف وما تم فيه من مشورة خاصته علّه يستبين له منه مخرجا آمناً بين عوامل الجذب.

لقد أحس ريح المشاركة في الأمر تهب عليه مواتية فهل يستجيب لتيار هبوبها أم يسير عكس ما تشتهى؟

إنه يعيد التقييم لحقيقة الموقف بالعرض لخطواته ويضع نتيجة كل خطوة إزاءها إذا ما كانت خيراً أم شراً.

وبالجمع للناتج النهائي يمكنه الحكم على المشروع قبل أن ينهجه بالربح أو الخسارة.

إنها العقلية الدقيقة الواعية التي تقدر للرِّجْلِ موقعها قبل الخَطْو،

---

(١) الشرور (٢) ذل الأسير المقيد (٣) محب
(٤) فيما يتعين على الإنسان أن يحميه، وينهض للدفاع عنه

وبُعْدُ النظر الذى يعلّق النتائج على الأسباب، ويربط الأسباب بالمسببات ربطا حكميا لا يتقنه إلا الدهاة .

إنها العملقة فى سياسة الأمور ، وحسن التدبير لها بفكر مدرك لحقائقها وما يمكن أن يقع فيها مما يمكن حسابه ، ويدخل فى الحسبان والتقدير . وقَدَّرَ « عمرو » أبعاد الموقف بما يلى :

١ — « معاوية » الآن فى موقف صعب لا يدرى له منه مخرجا.

٢ — « معاوية » الآن فى أشد الحاجـــة إلىّ لأخلصه من المرارة التى يعانيها.

٣ — « معاوية » إن لم أعاونه ضاع مستقبله السياسى الذى يطمح إليه ؟ وذل الأسرى .

٤ — الحيرة تعترى « عمرواً » لأول مرة فى حياته ، وتدعوه لأن يوازن بين تصرفاتٍ ثلاثة ، وأيا منها يختار :

(أ) المخادعة لـ « معاوية »

(ب) بذل النصح الخالص له

(ج) اعتزاله بعشا كله .

وقد أسقط الاعتبار الأول كعربى يرى فى المخادعة دناءة لا يسوغ له ارتكابها.

وقد رأى فى الاعتزال راحة وتلك كانت تحليلاته الشخصية للموقف غير أنه انعطف فى ختام نشيده إلى رأى ولديه وأبدى فى كل رأى وجهة نظره

فأثبت أن مشورة « عبدالله » [1] تميل إليها نفسه ، ولكن الطريق إلى ذلك ليس سهلا ممهدا بسبب نوازع النفس .

وفى مشورة « محمد » دعوة للنهوض بالواجب عندما تستثير الأزمات الملمة العربية ، وتستدعى النخوة عندما تُفْتَرَز جوانب الشخصية، وتوضع على المحك .

أمّا وقد صحّ عنده الآن أن أحداث الأمة قد دعته إلى أن يسهم بنصيبه — إذن — فإن ينثنى أو يبطىء عن الخوض فيها مهما تكن النتائج — حيث قد أكّد أنه (صلب العود) إذا ما دعا الداعى — وقد حدث — فما عليه إلا أن يتسنم ظهر الوجه ليكون فى الصدارة من الأحداث

لذا — ما يكاد ينطق الأب (عمرو) بالشطر الثانى من البيت الأخير حتى يقول ابنه « عبد الله » (ترحَّل الشيخ) وقد كان ! ! ؟

الرحيل إلى (معاوية)

الموقف السياسى : وفى سبيل الاستعداد للرحيل ينادى « عمروا » غلامه « وَرْدان » ومازالتْ ظلال الحيرة تظلله ، ولم يتخلص منها تماما على الرغم من عزمه على المشاركة فى الأمر — فيدخل فى نقاش حوارىّ مع غلامه يكشف حقيقة اضطراب نفسه نتيجة لما هو مقدم عليه فيقول :

عمرو : ارْحلْ يا « وَردان »

حُطَّ يا « وردان »

(١) راجع مشورة (عمرو) لابنيه السابقة

ارحل يا « وردان »

احطط يا « وردان »

وردان : خلطتَ أبا « عبد الله » أما إنك إنْ شئت أنبأتُك بما فى نفسك

عمرو : هات ويحك !!

وردان : اعتركتْ الدنيا والآخرة على قلبك فقلتَ : « على » معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عِوَض عن الدنيا ، و « معاوية » معه الدنيا بغير آخرة ، وليس فى الدنيا عوض من الآخرة ، فأنت واقف بينهما[1] .

عمرو : فإنك والله ما أخطأتَ — فما ترى يا وردان ؟

وردان: أرى أن تقيم فى بيتك — فإن ظهر أهـل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك .

عمرو : آلآن لما شهدت[2] العرب — مسيرى إلى « معاوية » .

ثم ارتحل « عمرو » وما زالتْ أصداء الأحداث تعتمل فى نفسه . حقا — إنه بارتحاله يبين أنه قد صح منه العزم على الدخول مُسْهِماً فى هذا النزاع — ولـكن آثار الصراع النفسى ، والشد والجذب نحو اتجاه معينّ وإن كانت قد هدأتْ غير أن ظلالها ما تزال تطفو ثم تخبو وهى فى دور المحوْ والزوال .

---

(١) دهاء من غلام «عمرو» يدل على إدراكه العميق ما يعتمل فى نفس سيده ، ولربما الداهية كان لا يرتضى لنفسه أن يقوم على خدمته إلا من كان على جانب من الدهاء — إنه الذكاء العربى الخارق .

(٢) لما ستشهد العرب فيما بعد — أى حان وقت اشتهارى بينهم .

وخضوعاً لهذا العامل النفسى نرى « عمروا » ينشد وهو مرتحل :

يا قاتَلَ اللهُ « وَرداناً » وقِدحَتَه

أبدَى لعمرك ما فى النَّفسِ « وَرْدانُ »

لما تعرَّضتْ الدنيا عَرَضْتُ لها

بحرصِ نفسى ، وفى الأطباع إدهان[1]

نفسٌ تَعِفُّ ، وأخرى الحرصُ يَغلبها

والمرءُ يأكُلُ تِبناً وَهْو غَرْثان[2]

أما « علىٌّ » فدينٌ ليس يَشركه دنيا ، وذاكَ له دنيا وسلطانُ

فاخترتُ مِنْ طَمَعى دنيا على بَصَر وما معى بالذى أختارُ برهان

إنى لأعرفُ ما فيها وأُبصرُه وفىَّ أيضاً لما أهواهُ ألوان

لكنَّ نفسى تحب العيش فى شَرَفٍ وليس يَرضى بذلِّ العيشِ إنسان

أمْرٌ لعمر أبيكم غيرُ مُشْتَبِهٍ والمرء يَعطس ، والوسْنانُ وَسْنان

* * *

البيان الأدبى .

(أ) القصيدة تعطينا صورة واضحة للموازنة التى أجراها « عمرو » لحقيقة الوضع لدى كل من « على » و « معاوية » والتى بناء على التقدير الدقيق لكلا الوضعين اختار لنفسه المكان الأليق والأنسب ، ثم أتبع ذلك السَّرد للمبررات التى أملتْ عليه الاختيار للموقف الذى ارتضاه .

---

(١) لين ومزولة . (٢) جائع .

(ب) ولما كان السرّ فى اختياره لم يَعُد خافياً حتى على غلامه «وردان» فإنا — رأيناه يفتتح قصيدته بالنعْيِ على غلامه لإدراكه حقيقة خبيئة نفسه ، والتى لم تَعُد تخفى على ذى بصر — ولربما كان الغلام على جانب من الدهاء استشف به ما انتواه سيّده ، وواجهه به .

(جـ) الفتوة العربية ، بما لها من نخوة وضحتْ عند الشاعر بنهوضه وفاءً بحق الماوسة للدنيا لما تعرضت له ولم يَفْلِتْها ، وكان فى ذلك مدفوعاً بدافع الحرص النفسى على اهتبال الفرصة السانحة ، وكان كِفاءها فى الموقف حيث قابلها بتعرضٍ لها لما تعرّضتْ له ، ولديه من الكفاءة والشخصية والمرونة ما يعينه على حسن التعامل مع الدنيا التى وافتْه معترضة طريق حياته .

إنها الفرصة الموائية ويجب أن يكون صاحبها — إنها الشهرة وذيوع الصيت وعدم خمول الذِّكر بين العرب وهذا طبع أصيل متوارَث يحرصون عليه ، وينضم إلى هذا ما يؤمّله من دنيا تقبل عليه هينة لينة رَخية ، وأن يكون على حرْف وجانب من السلطة ، و من الفاقة والعوَز وتلك كانت مبررات انحيازه إلى « معاوية » من بعد أن لم يرتض لنفسه غيرأن يكون بمسمع من الدنيا ، وفى رخى العيش وقد رأى المقلّى لا وزن لهم ، والجوْعَى يشركون الحيوان مَطْعمه دون تحرج لقسوة الفقر عليهم .

(د) لقد انشطرتْ نفس الشاعر شطرين — غلَب على أحدهما العفة وعلى الآخر الحِرص ، وقد غلب الحرص العفة نتيجة لاصطراعهما بمرأى من الإنسان الآكل قَرْضاً للتبنْ جوعا !!

(٥) اختار الشاعر أن يَخُب في الدنيا وهو مدرك تماما لحقيقة الخطر الكامن في هذا الاتجاه ويبدو أنه كفء لما ينطوي عليه بما توافر لديه من ضروب الإمكانات والمرونة ألواناً ، فاندفع في طريقه لا يلوي على شيء — محبا للعيش بحيث يكون موضع الأهمية والشرف في الحياة ، وما عاد في اختياره هذا خفاء أو لبث على أحد .

حوار الدهاء

الموقف السياسي : وهكذا — وفد « عمرو » على « معاوية » إثْر استدعاءٍ منه ، والحال أنه قد عرف عِظَم حاجة « معاوية » إليه في التدبير لأمر نزاعه مع « علي » .

وقد انتوي « عمرو » في نفس الوقت أن يكون صاحب النصيب معه فيما يصيبه من دنيا وفاء بحق للمشورة المرموقة من بعد أن استعصى الأمر تدبيراً على « معاوية » وحده وأشير عليه فعلا بإشراك « عمرو » في التدبير معه على أن يكون له وضعه .

وهكذا — قَدِم « عمرو » على « معاوية « وهو أعلم بمقدار أهميته في هذه اللحظة عنده وما أن اجتمعا حتى بدأ الحوار بينهما طبقاً لأسلوب الدهاء بين داهيتين لم يعرف العرب لهما مثيلا — حوار يدور حول الموضوع ولم يمس صلبه بعد !

فـ « معاوية » لا يريد أن يكشف لـ « عمرو » كل أوراقه ، ولا يطلعه على ما في دخيلته مما يهزه في أعماقه تحرُّزاً منه .

و « عمرو » أدرك حاجة « معاوية » القصوى إليه فأخذ يباعده من نفسه وأخذا يتحاوران بأسلوب يتداهى فيه كل منهما على الآخر ، ويكايد كل منهما لصاحبه — بادئا بالحوار « معاوية » .

معاوية : يا « أبا عبد الله » طرقتنا فى ليلتنا هذه ثلاثة أخبارٍ ليس منها وِرْدٌ ولا صَدَر .

عمرو : وما ذاك ؟

معاوية : ذاك أنّ « محمد بن حذيفة » قد كسَرَ سجن (مصر) فخرج هو وأصحابه ، وهُو من آفات هذا الدين .

ومنها : أن « قيصر » زحف بجماعة الروم إلىّ ليغلب على (الشام) .

ومنها : أن « عليا » نزل (الكوفة) متهيئا للمسير إلينا .

عمرو : ليس كل ماذكرتَ عظيماً .

أما « ابن حذيفة » فما يتعاظمك من رجلٍ خرج فى أشباهه أن تبعث إليه خيْلا تقتله أو تأتيكَ به وإن فاتك لا يضرُّك .

وأما « قيصر » فأهْدِ له من وصفاء الروم ووصائفها ، وآنية الذهب والفضة ، وسَلْه الموادَعة فإنه إليها سريع .

وأما « على » فلا والله يا « معاوية » ماتُسوِّى العرب بينكَ وبينه فى شىء من الأشياء ، وإن له فى الحرب لحظًّا ماهو لأحدٍ من قريش ، وإنه لصاحب ماهو فيه إلا أنْ تظلمه .

ويلحظ فى هذا المقطع من الحوار أن أسلوب الدهاء قد حكم المحاورة بين الداهيتين .

ويمكننا إدراك ذلك من طريقة العَرْض التى سلكها « معاوية » في طرحه للموضوعات التى من أجلها استقدم « عمروا » فقد بدأها بأمر « حذيفة » ثم بأمر « قيصر » وكلا الأمرين لايمثّل بيت القصيد، ولا صُلْب الموضوع .

وتقديمهما فى العرض محاولة قُصِد بها التمويه على « عمرو » لإخفاء الغرض الحقيقى الذى من أجله استُدعِىَ على عجل ، ثم أتَى بالأمر الثالث وهو الأخطر ملفوفاً بالعطف على الآخرين ، ودون تقديم له عليهما لعل « عمروا » لا يفطِن إلى أهميته ، فيبدى رأيه فيه دون أن يستغل حرج موقف « معاوية » وتخوفه منه . وهذا أسلوب لايجيده إلا الدهاة .

ولكن ـ هل غلَبَ هذا « عمروا » وغلب دهاءه ؟

والواقع أن الجواب الحوارى من « عمرو » على المشاكل الثلاثة التى طرحها عليه « معاوية » ينم عن طول باع لم يغلبه على دهائه ـ حيث تراه قد طرح عليه حلولا فى غاية السهولة واليسر فيما يتعلق بأمر « حذيفة » و « قيصر » يتخلص بها منهما .

وعندما يعرض لأمر « على » تراه يجيب « معاوية » بصراحة مؤداها أنه : لاحقّ له فى الخلافة إلا أن يَغلِب عليها « عليا » ظلما — وذلك للاعتبارات التالية :

(أ) العرب لاتسوِّى إطلاقا بين « على » و « معاوية » فى أى شىء وهذا اعتبار عام يُسقِط حق المفضول « معاوية » فى أن يلى أمر أمة العرب فى حال وجود من هو أفضل منه باتفاق عام ـ وهو « على » ـ

(ب) « على » موفق فى الحرب توفيقا لم يُتح لأحد من قريش . وهذا اعتبار عام يسقط حق المفضول « معاوية » فى أن يلى أمر أمة العرب فى حال وجود من هو أفضل منه باتفاق عام — وهو « على » .

(ب) « على » موفق فى الحرب توفيقا لم يتح لأحد من قريش وهذا اعتبار حربى يقطع كل أمل لـ « معاوية » فى التفكير فى أن يحاول الغلبة عن طريق الحرب .

(حـ) « على » هو صاحب الحق فى الخلافة المتولى لأمرها فعلاً — وقد طرح هذا فى أسلوب بالغ التأكيد (إنه لصاحب ما هو فيه) .

(د) لن يكون « معاوية » صاحب حق فى الخلافة إلا عن طريق الظلم لـ « على » .

والجواب هذا : فيه التجريد لـ « معاوية » من الصلاحيات التى تؤهله للخلافة ، على الأمة فى الوقت الذى يوجد فيه « على » باتفاق العرب وتسنمه للخلافة فعلا كحق ثبت له لا يسوغ أخذه منه إلا بطريق غير مشروع هو (الظلم) .

والجواب يكشف عن منتهى الدهاء من « عمرو » الأمر الذى دفعه إلى أن يلقى بكل ثقله على النزاع بين « على » و « معاوية » ويظهره فى صورة العقدة المستعصية التى لا يستطيع لها « معاوية » حلاً إلا عن طريق التفكير فى سبل التطبيق للاستثناء الأخير فى جواب « عمرو » :

(إلا أن تظلمه) .

وهو استثناء يقوم مقام الطمع لـ « معاوية » قد يدفعه إلى أن يحاول

أن يستبين من « عمرو » خفايا المستثنى إذا ما اختار ذلك الطريق ، ويكشف حقيقة مسالك « معاوية » أمام « عمرو » على الأقل إذا ما صح منه التعلق بالخلافة .

وهذا يفتح أمام « عمرو » باب المساومة لـ « معاوية » إذا ماطُلِب منه العون فى بلوغ الخلافة من بعد أن يكون قد وضح أنها لن تنال إلا ظلما ـ أما الحق فيقطع بسلامتها لـ « على » .

وبهذا يكون قد قضى على كل أمَلٍ لـ « معاوية » فيما يطمح إليه ، ولم يُبْقِ له إلا شعاعاً ضئيلا ينبثق من الاستثناء غير المشروع (الظلم) .

وهنا — لايجد « معاوية » مَفَراًّ من أن يفصح عما يخفى فى صورة تخاوف من « على » فيقول :

معاوية : يا (أبا عبد الله) إنى أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذى عصَى ربه ، وقتــل الخليفة ، وأظهر الفتنة ، وفرق الجماعة ، وقطع الرحم .

عمرو : إلى من ؟ .

معاوية : إلى جهاد « على » .

عمرو : والله يا « معاوية » ماأنتَ و « على » بِعِكْمَىْ بعير [1] مالكَ هجرته ولاسابقته ، ولاصحبته ولا جهاده ولافقهه وعِلمه .

---

(١) لستما متساويان .

والله إن له مع ذلك حَداً وجِداً[1] ، وحظاً وحُظْوة ، وبلاء من الله حسنا ، فما تجعل لى إن شايعتُك على حربه — وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟.

معاوية : حُـكمك .

عمرو : (مصر) طُعْمة !!!

معاوية : (بمدسكتة مقصودة) يا (أبا عبد الله) إنى أكره أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلتَ فى هذا الأمر لغرض الدنيا .

عمرو : دعنى عنك .

معاوية : إنى لوشئتُ أن أُمنّيكَ وأخدعكَ لفعلت .

عمرو : لا — لعمر الله — مامِثْلى يُخدَع — لأنا أَكْيَسُ من ذلك

معاوية : أدنُ منى برأسِكَ أُسارِكَ .

ويدنو منه « عمرو » ليساره فإذا بـ « معاوية » يعض أذنه ويقول هذه خدعة[2] .

التعليق :

فى هذا المقطع من حوار التداهى بين الداهيتين — نلاحظ «معاوية» يتحامل على الإمام ، ويَصِمه بتهم لم يقم عليها دليل بغية التأثير على « عمرو » علّه يستميله إلى جانبه ، ويجنده لقتال الخليفة القائم بالأمر « على » — فالعصيان لله، والقتل لـ « عثمان » وإشعال نار الفتنة، والتفريق

---

(١) مضاء ونشاطا .

(٢) مداعبة من « معاوية » لـ « عمرو » لإقناعه أن بإمكانه أن يخدعه .

لأمر الجماعة ، والتقطيع للأرحام ـ كلها تُهَمٌ يكيلها الوالى جُزافاً ، ويسددها إلى الخليفة الإمام لتكون سهاما تقدح فى صحه توليه للخلافة الأمر المطمح من (معاوية) !!!

وقد نوع التُهم مابين عِصيان إلى قتل إلى إشعال للنار إلى التفريق ثم إلى التقطيع لأواصر القرابات !!!

وأتى بها مرتبة طبقا للخطورة المتعلقة بها ـ ففى حق الله (عصيان) وفى حق الخليفة « عثمان » قَتْل ، وفى حق المجتمع ؛ إشعال لنار الفتنة فيه ، وتفريق لما تجمَّع من أمره ، وفى حق الأقارب تقطيع لما أمر الله به أن يوصـــل — وكلها تُهم دينية مباشِرة أو دينية إجتماعية فى آنٍ واحد .

والتنويع والترتيب للتهم بهذه الطريقة التى عُرِضَتْ بها على « عمرو » قُصِد بها الإحياء لنفسيته — علها تستثير غَيْرة على الدين وجماعة الأمة المهددة فيستميله ويكسبه إلى جانبه .

وهكذا ـ ترتفع حرارة الحوار والمساومة ، ويخالِط فيها (معاوية) الجِدَّ بالمداعبة تمييعا للموقف فى نظر « عمرو » وتليينا له ليصرفه عن جِدّه فى أن (مصر طعمة) وليتنتزع منه بمشورته الناجحة دون أن ينيله شيئا إن أمكن ، أو ينيله عرضاً دون أن يكون ولاية ، أو ولاية أخرى ليست هى مصر . كمساومات يمكن أن يلجأ إليها « معاويه » .

الصفقة السياسية

الموقف السياسي: وإلى هنا تكون الأمور قد اتضحت تماما فى فكر (عمرو) فيلقى بجده كله قائلا :

عمرو : هل ترى فى بيتك أحد غيرى وغيرك ؟

أى نحن على خلوة ، والأمر بيننا فى غاية السرية ـ بحيث لايدرى أحد عنه شيئا ، والحوار قد بلغ غايته بيننا ، وأنت مازلت فيه تعابث ، وأنا جادٌّ ، ولى اشتراطاتى الخاصة التى تمثل الحد الأدنى الذى أقبل به لأشركك تدبير الأمور فى الأزمة التى تحيق بك ، وينبغى أن نحسم الأمر بيننا ، وننتقل من أسلوب التداهى إلى الإيضاح

وإليك شروطى التى أرتضيها لإبرام الصفقة — وأنشد قائلا[1] :

(معاوى) لا أعطيكَ دينى ولم أنلْ	بذلك دنيا ، فانظرنْ كيف تَصْنعُ
فإن تعطنى (مصراً) فأربح بصفقةٍ	أخذْتَ بها شيخاً يضرُّ وينْفَع
وما الدين والدنيا سواء وإننى	لآخذُ ماتعطى ورأسى مقنع
ولكننى أُغضِى الجفونَ وإننى	لأخدعُ نفسى ، والمخادع يُخْدَعَ
وأعطيكَ أمراً فيه للملك قوة	وإنى به إن زلَّتْ النعل أضرع[2]
وتمنعنى (مصراً) وليست برغبة	وإنى بذا الممنوع قِدْماً لمولَع

البيان الأدبى

القصيدة فى فكرتها الأساسية تحدد الشروط النهائية التى يقبل بها

---

(١) وقعه صفين ص ٣٩ .

(٢) أذل غاية الإذلال وقد وردت (أصرع) فى رواية أخرى

« عمرو » للدخول والإسهام مع « معاوية » فى أمر نزاعه مع « على » :
لابد من عطاء — يقابله عطاء يَمُدُّه أن يُعطى الولاية على (مصر) وفى
المقابل يبذل لـ « معاوية » خدماته الجليلة الخطيرة — الكفيلة بتحقيق
النفع له ، وإيقاع الضرّ بمن يخاصمه أو يعاديه .

إنها قضية الأخذ والعطاء فى عالم إبرام الصفقات السياسية تتم بين
الدهاة فى مجال السياسة وبشروطها وصورتها النهائية — فإما أن تُقبل
جملة أو تُرفض جملة .

وبقية المقطوعة تدور معانيها حول بيان غلاء الثمن الذى قدمه
« عمرو » ثمنا للصفقة ، وقصور وتدنى الصفقة فى نظره عن أن تتعادل
مع هذا الثمن الغالى النفيس شأن المساومين الذين لا يُغلبون :

(أ) فالصفقة (مصر) فى مقابل خبرات وإمكانات الداهية .

(ب) قانون تبادل المنافع فى عرف السياسة يقطع بأن من يقدم شيئا
لابد وأن يتقاضى عوضا عنه — أيا كانت المنافع وأيا كان العوض [1]

(ج) فى مجال العوضية عند تبادل المنافع لا يمكن القبول بالدنيا
عوضاً عن الدين — وتلك حقيقة — ولكنها أخضعت للمساومة لإتمام
الاتفاق لبيان أن « عمرو » قد ضحى بثمن باهظ لا تعدله (مصر)
الصفقة لأن المقابل للمبذول ضخم ، فالدين لا يسهل التفريط فيه .

(د) (أُغضى الجفون) أعلم بمقدار غلاء الثمن الذى دفعته ، وأعلم مقدار
عدم معادلة العوض لما دفعتُ — لذلك — أرضى وأنا مغبون وأغمض عينى .

(١) انظر البيت الأول

وأعلم أنى مغلوب ـ مخدوع فى هذا الاتفاق وعلى الرغم من ذلك أرضى يا « معاوية » أن أكون معك المغلوب المخدوع .

وهذه معان وأساليب لا يُحسِن جَدْلها إلا سادة الدهاء وأساطين المساومة للإقناع بإتمام الاتفاقات السياسية التى يظهرون أنهم يقبلونها على مضض ـ باعتبار أنهم خُدِعوا فيها قيمة وفى ثمنها قدراً ! !

(ه) أعطيك أمرا فيه الملك قوة
وإنى به إن زلت النعل أصرع [(١)]

بيان لغلاء الثمن الباهظ المدفوع ثمنا لإبرام الاتفاق ، وتأكيد لمعنى إغضاء العين عن باهظ الثمن والقبول بالخداع فى عين الصفقة التى لا تساوى جُلّ هذا الثمن ظاهرا ، لأن الثمن الذى أدفعه فى غاية الخطورة ، وعلى قدر ما فيه من خطورة يمنحك قوة فى الملك الذى تطمح إليه إنه (أمر) والتنكير فيه يذهب بالنفس كل مذهب فى القوة الممنوحة للملك « معاوية » وأقصى درجات الخطورة لـ (عمرو) إذا ما فشل لأى سبب كان فى إحكام هذا الأمر وإبرامه ، وإشعار بمدى الجهد المبذول فى الجدل والتدبير .

ومثل هذا الأسلوب كفيل بإقناع « معاوية » بمقدار وفرة الربح الذى ناله من « عمرو » وبمقدار الغبن الذى لحق بـ « عمرو » فى هذه الصفقة التى يتساومان عليها .

---

(١) أقتل طبقا للرواية الأخرى فى الضبط . أصرع ، أضرع

(و) يظهر « عمرو » فى البيت الأخير أنه شديد الحرص على أن تكون (مصر) العِوَض له مهما كان الثمن الذى دفعه باهظا :

١ — فهو أدرى بها لفتحه إياها عام ١٩ هـ فى خلافة « عمر »

٢ — وهو الأدرى بمقدار عظمتها وجلالها فى نفسه .

٣ — وهو الأعلم والأدرى بما فيها من سعة تجعله يحرص على النيّل لها مهما كان الغبن فى ثمنها .

(ز) وقد جاء البيت الأخير مرتبطا بمعنى البيت الأول فالتأكيدات القاطعة بشدة تعلق « عمرو » بـ (مصر) :

* إنى بذا الممنوع قدما لمولع *

تدعو « معاوية » ليستفيق ويدرك ويتدبر معنى الجملة الأخيرة فى البيت الأول :

* فانظرن كيف تصنع ؟ *

وبالربط بين عجز القصيدة وصدرها يصبح المعنى كما يلى :

أنا مولع وحريص على تولى (مصر) فانظرن ماذا تصنع ؟

ويمكن بلورة المساومة على الصفقة فى المعانى السالفة وبطريقة أخرى بالآتى :

إما (مصر) وإلا فلا تنتظر منى أى عون

مزيد من المساومة

الموقف السياسى : وبهذا وضح لـ « معاوية » تصميم « عمرو » على تقاضى (مصر) عوضا عن المخاطرة التى سيدخل معه فيها فى هذا الأمر ! !

ويبدو أن حبل الصبر على المساومة لم ينقطع بـ « معاوية » فمازال يستكثر (مصر) على « عمرو » كعوض عن إسهامه معه فى أمر النزاع — فيقول :

معاوية : « أبا عبد الله » ألم تعلم أن (مصرا) مثل (العراق) ؟

عمرو : بلى — ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك ، وإنما تكون لك إذا غلبت « عليا » على العراق .

لقد حاول « معاوية » أن يجعل من العراق صفقة بدلا من مصر ، فاستدرك عليه « عمرو » بأن العراق مملوكة لغيرك ، وان يمكنك التعاقد عليها كصفقة إلا إذا كانت خالصة لك .

والدلائل المستقاة من العنت فى المساومة، والتداهى القائم بين الداهيتين يريد به « معاوية » محاولة الخداع لـ (عمرو) بتمليقه بأمل الولاية للعراق عندما تطيب له — حتى إذا ما كانت له دخل بخصوصها فى مفاوضات سياسية جديدة من بعد أن تكون الظروف قد تغيرت ، وتمت لـ (معاوية) السلطة والتحكم .

وهنا يكون فى موقف أقوى يمكنه من فرض أى مقابل يرضى به

« عمرو » والحالى أنه قد أصبح فى وضع لا يملك فيه حق الاعتراض .

لذا — كان « عمرو » ذكيا فطنا لما يُراد به .

ففى الوقت الذى قبل فيه بالمماثلة فى التقييم بين العراق ومصر — نراه يسرع بالاستدراك على « معاوية » بألا يجعل مما لا يملك عِوَضاً ، أو موضوعا للتفاوض ، أو صفقة يمكن أن يُبْرَم بخصوصها أى اتفاق ! ![1]

وهكذا — طالت المفاوضات ، ووضح العسر فى المساومة السياسية دون أن ينجلى الموقف عن اتفاق يُنهى ذلك الاجتماع الخطير بين الداهيتين — حيث لم يغلب دهاء أحدهما ، ما للآخر من دهاء .

وبهذا يظل « معاوية » فى موضع الخطر بين إلحاح « جرير »[2] وعدم رضوخ « عمرو » بقبوله لعروض « معاوية » وكأنما أحس « عتبة » عنت المساومة وعنف التداهى بين الرجلين ، وعدم إمكان تسليم أحدهما للآخر بسهولة ويسر فى المفاوضات القائمة بينهما .

وهنا يتدخل للمرة الثانية وفى اللحظة المناسبة وكأنه كان يتسمع إلى ما يجرى بين الرجلين فيتوجه بالحديث إلى « معاوية » قائلا :

عتبة : أما ترضى أن تشترى « عمرواً » بـ (مصر)

إن هى صفَّتْ لك ؟ فليتكَ لا تُغْلَب على (الشام) ! !

معاوية : (موجها الحديث إلى عتبة)

يا « عتيبة » بت عندنا الليلة

---

(١) فقد بعث أهل العراق بطاعتهم إلى « على » . (٢) رسول « على »

وكأنما قد أحس « معاوية » صواب رأى « عتبة » فى اللحظات الحاسمة فراجع نفسه سريعا من بعد أن تبين له أن ما بيده (الشام) عرضة للضياع — مما دعاه إلى عرض البقاء عليه ريثما تنتهى السويعات الحرجة القادمة فى مفاوضاته القاسية بينه وبين « عمرو » وليدعم رأيه برأى اتضحت سلامته قبلا عنده ، وكأنما « معاوية » فى حاجة إلى تأييد فكرى يقويه على مجابهة «عمرو » الطويل الباع. ويقبل «عتبة » عرض المبيت ، وكأنما أحس هو الآخر مساس حاجة « معاوية » إلى رأيه النير عندما تتأزم مجريات النقاش بين المتفاوضَيْن العنيدين .

ومن هذا المنطلق والإحساس نرى «عتبة» عندما جنّه الليل تضطرم أحاسيسه فينفّس عن نفسه بقصيد يضمنه خلاصة وجهة نظره فى تلك المفاوضات المتمرة فينشد بحيث يسمعه « معاوية » فيقول : [١]

أيها المانع سَيْفاً لم يُهزّ ... إنما مِلْتَ على خزٍّ وقزّ
أعط(عمرواً)إنَّ(عمروا)تاركٌ ... دينَه اليوم لدنيا لم تُحَز
يالك الخير فخذْ من درّه ... شَخْبَهَ الأولى ، وأبْعِدْ ماغرز
واسحبْ الذيلَ وبادرْ فوقها[٢] ... وانتهزها إن (عمروا) يَنْتَهِز
أعطه (مصراً) وزده مثلها ... إنما (مصر) لمن عَزَّ وبَز
واترك الحرص عليها ضَلَّةً ... واشببْ النارَ لمقرور يكز [٣]
إن (مصرا) لـ (على) أو لنا ... يُغلب اليومَ عليها مَن عجز

---

(١) وقعة صفين ص٣٩ (٢) الطريق الأول

(٣) داء يصيب الجسم برعدة نتيجة لشدة البرد

البيان الأدبى

الفكرة فى القصيدة تدور حول بيان مدى الكسب الذى سيحرزه «معاوية» بإبرامه للصفقة السياسية طبقا للشروط التى يشترطها «عمرو» ولما كانت القصيدة فى أصلها موجهة فى خطابها ومضمونها إلى «معاوية» إذن - هى إقناع له بإنفاذ الصفقة بناء على ما اتضح فيها من وفير الربح السياسى لـ«معاوية» الذى اتضح له أنه معرّض لضياع ما فى يده أيضا.

فلماذا لا يسرع بإعطاء «عمرو» ما يريده (مصر) ويضمن لنفسه التثبيت على (الشام) على أقل تقدير مع انفساح الأمل فى الطموح للمتد ليستغرق سائر بقاع الدولة العربية بالخلافة ؟ !

لذا - ترى الشاعر «عتبة» يلح على «معاوية» بالمسارعة فى إعطاء «عمرو» ما يريده دون أى تأخير للاعتبارات التالية :

(أ) إن «عمروا» بإبرامه الصفقة يكون قد زايل ما يعتقد أنه حق فى مقابل وعدك إياه بدنيا لم تحرزها بعد

(ب) إن «عمروا» مقروم بـ (مصر) فاهتبل الفرصة ولا تفلتها وأعطها له ، فلن يجديك شىء أن تكون لك (مصر) ثم يغلبك «على» فتخرج من (مصر) وغيرها .

(حـ) (أعطه) و (زِدْهُ) و (اترك الحرص) أفعال طلبية تقوّى معنى ضرورة إنالة «عمرو» ما يريده (مصر) والزيادة عليها بمثلها إن أمكن فـ (مصر) لا تقوم بما ترجيه ، فالصفقة وفيرة الربح والعطاء لك فأبرمها ولا تضنَّ بمصر .

وقد أظهرت الأيام صواب الرأى الاستشارى الذى أبداه «عتبة» فقد كان له من الحس الشعورى ما مكنه من البصر الممتد عبر توقعات أحداث المستقبل، وكان له من قوة الإقناع والحصافة ما جعل «معاوية» يستجيب لرأيه ويُبْرِم الأمر وفق ما اشترطه «عمرو».

(د) «عمرو» سيف لم يهز بعد — يمكن استدرار حلبه المؤاتى، والصبر على ما لديه من درٍّ يمكن الوصول إليه آجلا — فهيَّا انتهزْ ما واتاك وانتظر الباقى يأتيك فى حينه وهذه دعوى إلى اهتبال ما سنح مادام قد وافى .

(هـ)　　إنما (مصر) لِمَنْ عزَّ وبَزَ

يغلب اليوم عليها من عجز

قضية سياسية أثارها «عتبة» فى مناسبة تتعلق بتحديد المستقبل السياسى لـ «مصر» فى تلك الآونة المضطربة من تاريخ الأمة الإسلامية، وقد جعلها خاصة على سبيل القصر بمَنْ عزَّ وغلَب، بالتالى استشفافا من روح القصر فى (إنما) هى منزوعة ممن عجز عن الحفاظ عليها .

وإذا كان الشاعر قد أظهر (مصر) أنها مِلْكٌ لمن غلَب فى فترة استحكم فيها النزاع بين الخليفة والوالى فإنه لا يعنى بالطبع استنامة أهل (مصر) لحاكم غلَب غيره عليها .

إنه انفعال شعورى كشف عن وجهة نظر سياسية فيما يتعلق بحكم (مصر) فى فترة معينة .

والانفعال الفَوْرى لا يمثل حُكْماً عاماً يمكن أن ينسحب على تاريخ

أمة عبر امتداد وجودها المتطاول ، وخاصة أن نظام الحكم فى تلك الفترة قائم على البيعة العامة المباشرة فقط .

ويمكن أن يلحق هذا الانفعال بقولة المتنبى عن (مصر) أيضاً — يعبر فيها عن وجهة نظره فى ممارسات الحكم القائم وقته ، وقد حدّه بقوله:

لقد نامتْ نواطيرُ (مصر) عن ثعالبها
وقد بَشِمْنَ وما تَفْنَى العَنَاقِيدُ

وعلى الرغم من أن لكل زمن ثعالبه المنتهزة للفرص للاختلاس والاختناس ، ولكل زمن أيضاً حراسه الغافلون بَشَماً أو إهمالا — غير أن مثل هذا حكم وقتىّ ليس له من روح الاستدامة إلا قدر الفترة الزمنية التى يستغرقها فوران الشعور !!!

إبرام الاتفاق

وتفعل قصيدة « عتبة » فعلها فى نفس « معاوية » وتحدث تأثيرها المرجوّ ببلوغها قمة الإقناع — فما يكون من « معاوية » إلا أن يبعث إلى « عمرو » ويجيبه إلى ما يريد من ولاية (مصر) ويكتبان بذلك وثيقة اتفاق يثبتان فيها أسس ذلك الاتفاق الذى تم بينهما ، وقد أنهى « معاوية » الاتفاقية بجملة : « على أن لا ينقض شَرْطٌ طاعة » ، دهاء منه ، وبراعة سياسية فى إثبات تلك الجملة .

وذلك — ليتيح لنفسه طبقا لمفهومها أن يَحْرِم « عمروا » فى المستقبل من الولاية على (مصر) من بعد أن يكون قد ألزمه فى نَصّ

الاتفاق بأن يطيعه طاعة مطلقة غير مشروطة بأى شىء عند تفسير الاتفاقية وقت التنفيـذ لبنودها إذا ماتم الأمر له .

ويدرك « عمرو » مايراد به بسبب تلك الجملة ، من أنها تنطوى على تبييت ضده يحمل معنى الحرمان له من المقابل المتفق عليه (ولاية مصر) لإلزامه الطاعة غير المشروطة ، وموجب الإطلاق للطاعة يوجب الإلغاء لأى شرط يعترض طريقها !!

وما يكون من «عمرو» إلا أن يثبت هو الآخر جملة يوحى مضمونها بإقرار « معاوية » بأن طاعة « عمرو » له لا تنقض ما اشترطه عليه من ولايته على مصر [1] (على ألا تنقض طاعة شرطا) .

إنه التداهى فى التفاوض ، والبراعة الفكرية العربية فى فهم دقائق الأسلوب ، والقدرة الفائقة على صوغ الأساليب ذات الدلالات الخفية والدقيقة والرد عليها بصياغة أخرى تلغى أثرها ، والحنكة السياسية فى طريقة إبرام الاتفاقيات والمعاهدات بحيث يلعب الحرف فى الكلمة ، أو أداة التعريف بزيادة أو بنقص وكذا بتقديم أو تأخير للفظ دوراً خطيراً فى إقرار السلم أو إشعال نار الحرب نتيجة للتفسير الذى يمكن أن يتناوله صوغ الأسلوب بطريقة معينة [2] .

---

(١) انظر شرح ابن أبى الحديد جـ١ ص ١٣٨

(٢) مثال هذا قرار مجلس الأمن فى مشكلة الشرق الأوسط : الجلاء عن أرض بالتنكير وقد اعتبرت إسرائيل أن لفظ أرض المنكرة لا يلزمها الجلاء عن كل الأرض العربية المحتلة .

وفى جملة كل من « معاوية » و« عمرو » :

على ألا ينقض شرط طاعة « معاوية »

على ألا تنقض طاعة شرطا « عمرو »

استخدم أسلوب التقديم والتأخير للفظ واحد فى كل من الجملتين بذكاء وبراعة من المتفاوضين ليجعل كل منهما الأمر فى صالحه بناء على الدلالة المستفادة من أسلوب الصوغ .

فتقديم لفظ (شرط) على (طاعة) يخدم « معاوية »

وتقديم لفظ (طاعة) على (شرط) يخدم « عمروا »

وإذا كان قد أثبت « معاوية » جملته المصاغة على طريقته الخاصة ليكون التفسير فى صالحه مستقبلا ؛ فقد قابله « عمرو » برد مكافىء يقطع الطريق على ما انتواه « معاوية » بجماعه حيث يثبت له طاعة لاتقدح فى الإقرار بصحة شرطه المشروط (ولاية مصر) .

هذا — واللغة المطواعة فى تركيبها الأسلوبى أتاحت لكل منهما الفرصة ليتلاعب بالألفاظ ما بين تقديم وتأخير بطريقة تكفل لكل تحقيق مآربه .

اللوم لـ « عمرو »

الموقف السياسى : ويخرج « عمرو » من عند « معاوية » بعد إبرام الاتفاق مسروراً وهو يحمل صورة الاتفاق المبرم ، ويذهب إلى حيث ينزل ، وهناك يلتقى بابن عم له[1] كان ضمن الوفد المرافق له ويلحظ

---

(١) من (بنى سهم) وكان داهية أريبا هو الآخر .

البشر على وجه «عمرو» فيدرك أن الاتفاق قد تم طبقاً لما يبغيه، فيتوجه إليه بسؤال اللائم المتعجب قائلا : ابن العم : ألا تخبرني يا « عمرو » بأى رأى تعيش في قريش ؟

أعطيتَ دينكَ، ومُنّيتَ دنيا غيركَ !!

أترى أهل (مصر) وهم قتلة « عثمان » يدفعونها إلى « معاوية » و « علىٌّ » حى ؟

وتراها إنْ صارتْ إلى « معاوية » لا يأخذها بالحرف الذى قدمه فى الكتاب ؟

ويقصد بذلك التقديم لحرف الجر (على) المستخدم فى عبارة « معاوية » الشهيرة السالفة : على ألا ينقض شرط طاعة .

والواقع أن (ابن العم) هذا قد أحرج « عمروا » غاية الإحراج وأدخله فى دائرة اللوم والتقريع .

(أ) فقد لامه على خسرانه (دينه) فى سبيل التعلق بأمنية لم يعطها، وليست مملوكة لمن وعده بها حتى يضمن الوفاء بالعوض عند تحقق الوعد. ولهذا ــ لم تعد له مقدرة . على مواجهة قرشى بعد صنيعه المزرى الذى ارتكبه !! .

(ب) ويزيد (ابن العم) الضغط على « عمرو » ويفت فى عضده أكثر ــ إمعاناً منه فى اطلاعه على مدى الخسارة التى لحقتْ به ــ حيث أفهمه أن الأمور لو صدقتْ فى حدسها وتولى الأمر « معاوية » فقد استلب منه ما كان قد وعده به بسبب حرف الجر (علــى)

المتلاعَب به تقديماً فى التعبير فأضاع عليه (مصر) الطُعمة .

وبهذا يكون قد أظهره بأنه قد خسر كلاً من الدين والدنيا — وعلى هذا استحق الملامة ! !

إنه أسلوب التقريع واللوم الذي يدعو إلى مراجعة النفس لتتدارك إثر محاسبة دقيقة مسببات الملامة فتتلافاها قبل فوات الأوان ، وتُحِلّ محلها الإقناع بما يصَرف النظر عن موجبات اللوم .

ولم يملك « عمرو » أمام هذه المجابهة الصريحة باللوم سوى أن يجيب (ابن عمه) بقوله :

عمرو : إن الأمر لله دون « على » و « معاوية »

وهنا يدرك (ابن العم) أن أسلوب الملامة لم يحدث أثره فى الإقناع لـ « عمرو » بالتراجع عن الاتفاق الذى يعتقد أن « معاوية » قد خدعه فيه ، والذى لم يتقاض فيه عوضاً فى الوقت الذى نال فيه « معاوية » منه كل شيء .

وكأنما قد عزّ على (ابن العم) أن يرى « عمروا » هو المخدوع الخاسر فى هذا الموقف ؛ فاهتاجتْ أحاسيسه ، واندفع بكل ما فيه من غيرة وحماس ينشد ناعياً على « عمرو » خديعته وسوء تصرفه وهو المعروف بأنه الداهية الأريب — فقال :(١)

أَلَا يا هِنْــد أخت بنى زِياد دهى « عمرو » بداهيةِ البلادِ

---

(١) وقعة صفين ص ٤١ ، ٤٢

رمى «عمرو» بأمور عبشمى[1] بعيد القعر مخشى الكياد
له خدع يحار العقل فيها مزخرفة صوائد للفؤاد
فشرط فى الكتاب عليه حرفا يناديه بخدعته المنادى
وأثبت مثله «عمرو» عليه كلا المرأين حية بطن واد

ألا يا عمرو ما أحرزت مصرا وما ملت الغداة إلى الرشاد
وبعت الدين بالدنيا خسارا فأنت بذاك من شر العباد
فلو كنت الغداة أخذت (مصرا) ولكن دونها خرط القتاد
وفدت إلى «معاوية بن حرب» فكنت بها كوافد قوم عاد
وأعطيت الذى أعطيت منه بطرس فيه نضح من مداد

ألم تعرف أبا حسن «عليا» وما نالت يداه من الأعادى؟
عدلت به «معاوية بن حرب» فيا بعد البياض من السواد
ويا بعد الأصابع من سهيل ويا بعد الصلاح من الفساد
أتأمن أن تراه على خدب[2] يحث الخيل بالأسل الحداد
ينادى بالنزال وأنت منه بعيد، فانظرن من ذا تعادى؟!

البيان الأدبى

القصيدة : تقييم كامل لنتائج لقاء التداعى والمفاوضات التى تمت بين كل من «معاوية» و «عمرو» وتذكير لـ «عمرو» بمقدار الخطورة الحربية التى لـ «على» فى مقام المقارنة بينه وبين «معاوية» .

---

(١) يقصد معاوية (٢) جواد ضخم

ومشاعر الشاعر (ابن عم « عمرو ») قد عبَّرت بوضوح ظاهر عما يلي :

١ — وقوع « عمرو » فريسة لـ « معاوية » أدهى العرب (فآل عبد شمس) لهم خطرهم الذي لا يُنكر بين العرب ، و « معاوية » من بينهم قد تجمَّع فيه كل الخطر لأمور

(أ) مكره ودهاؤه اللذان لا يدرَك لهما بُعد ونهاية .

(ب) مكايده التي لا يُؤمن جانبها — لأنها عين الشر .

(ج) خدعه التي تحار العقول في إدراكها ، والتي هي في نفس الوقت شراك آسرة قاتلة على الرغم من بدوّها في ظاهرها مغرية بالظَّفَر للصَّيد.

٢ — إثبات التكافؤ بين الداهيتين — وإن كان قد مال إلى تقرير أن « معاوية » هو الأدهى بما نسبه إليه من أنه (داهية البلاد) [١] من بعد أن أعطى كلا منهما حقه في الدهاء بما أضفاه عليهما من أن كليهما (حية بطن واد) .

٣ — تبرير الشاعر لحكمه بغلبة « معاوية » لـ « عمر » دهاء بأن « عمروا » لم يستطع أن ينال رغيبته منه (مصر) بالحرف الذي شرطه عليه في الاتفاقية [١] .

٤ — يبين الشاعر أن « عمروا » كان الخاسر في تلك الاتفاقية لأنه قد باع الحق المعتقد دينا ، بدنيا لم ينل منها شيئا في المقابل — وقد أصبح

---

(١) راجع نص القصيدة

(٢) بنصه على ألا ينقض شرط طاعة

بهذا (من شر العباد) لتضييعه أهم ما يحرص الإنسان عليه وبهذا يكون قد أخرج نفسه من عداد خيار الناس ، ووضعها بين شرارهم .

٥ — عرض الشاعر لقضية أهمية (مصر) فى كيان الدولة العربية الإسلامية — فذكر أن الولاية عليها ليست أمرا هينًا أو ميسورا وإنما دون التولى عليها قَطْع الرقاب .

هذا — و « معاوية » ليس بالرجل الخامل الذى لا يدرك تلك الأهمية فيسلمها إليه بسهولة ويسر .

٦ — دلَّل الشاعر على أن « عمروا » قد خرج من الاتفاقية خاوى الوفاض — فهو :

(أ) (كوافد قوم عاد) الذى لم يخرج من قومه بطائل .

(ب) والعوض الوحيد الذى حصل عليه لا يعدو أن يكون ورقة محبرة لا وزن لها ولا قيمة فى عالم المبادلات والأخذ والعطاء عند إبرام الصفقات السياسية .

فقد خرج صِفْر اليدين من بعد أن أعطى كل شىء

٧ — يستنكر الشاعر على « عمرو » إهماله تقدير الخطورة الحربية التى يتميز بها « على » من بعد أن انزلق إلى هوَّة التدبير لهذا الاتفاق الذى ربما جرَّ إلى حرب وقتال — فلفتَ نظره بكياسة إلى تلك الخطورة التى يعرض نفسه لها بطرحه للتاريخ الحربى الذى يشهد لـ « على » بانتصاراته على من يعاديه .

٨ — وفى استفهام إنكارى يبين الشاعر لـ « عمرو » خطأه فى الموازنة والتقييم بين كل من « على » و « معاوية »

فمن بعد أن يظهر له الفرق الشاسع بينهما ، والتباعد المتخالف إلى حد التضاد تراه ينعى عليه انعدام توفيقه ، وســوء اختياره بميله إلى «معاوية» وإهماله صاحب الحق البيِّن والـكفاءة الحربية الممتازة « على »

٩ — يلفتُ الشاعر نظر « عمرو» إلى أن « عليا » ينبغى أن يُحسَب لعداوته كل حساب .

فالأمر الناصح المرشد فى قوله : فانظرنْ من ذا تمادى ؟

يحمل الدعوة إلى التدقيق وإعادة النظر لتصحيح الموقف حيث إن المخاطرة بالعداء لـ « على » أمر غير مأمون الجانب .

ويبدو أن الإحساس المرهف لدى الشاعر قد منحه رؤيا ممتدة جعلته يدرك أن الأحداث بين المتنازعين لن تُحسَم إلا بالقتال .

وما دام أمر القتال وارداً فمن الأوفق بمن يزج بنفسه فى هذا التدبير أن ينحاز إلى صاحب الحق الموفّق حربيا والذى تابعته الغالبية وهو « على » .

أما « معاوية » فليس له من أسباب القوة غير الدهاء ومساندة أهل الشام فقط — من أجل هذا كان الحـكم الصادر من الشاعر عــلى « عمرو » بسوء الاختيـار لركونه إلى الجانب الأضعف فى كل شيء يمـكن أن يؤخذ فى الاعتبار عند التقييم للأهميات عند التخطيط للنزاعات التى ربما تجر إلى الحروب .

والفـكر الخاص للشاعر بنـاء على التقييم الدقيق الواقعى لحقائق الأمور والأحداث قد مال به إلى الاعتقاد بأن الاحتيـــال والمـكر

والكيد والدهاء مهما بلغت قواها أمور لن يتأتى لها أن تغلب الحق الصراح والشجاعة الواضحة ، والفكر الحربى النيرِّ الذى أثبت كفاءة وعاها له التاريخ .

ولكن النتائج التى أعقبت الأحداث فيما بعد برهنت على أن الدهاء بمفرده كفيل بالتغلب على كل شجاعة وبراعة حربية — طبقا لاعتبارات خاصة ، ولظروف حربية معينة لا يَمُتّ ذلك النزاع وصاحبه !!

١٠ — يحدد الشاعر على وجه الدقة مقدار التفاوت فى المنزلة . بين الشخصيتين المعادَل بينهما « على » و « معاوية » فنراه بعد الطرح لاسميهما فى أسلوب يستنكر فيه إجراء عملية التعادل بينهما بناء على المعرفة الحقة من « عمرو » لـ « على » التى تقطع بتفوقه إلى الحد الذى لا ينبغى معه أن يعادَل بأحد .

فـ « على » هو القمة التى لا تنال — فهو (سهيل) الضارب علواً فى السماء — فتفرد بالسمو وحده .

وعند إمكان معادلته بغيره نرى « عليا » على الصورة التالية طبقاً لعرض الشاعر :

(أ) هو الضياء الخالص الذى لا تشوبه ظلمة تحد من نصوع بهره . ولم يبق لمعادله إلا كل حلوكة واسوداد .

(ب) وهو عين الصلاح الصالح الذى لم تخالطه شائبة تقدح فى خلوص صلاحه — ولمعادله كل الفساد الذى لم تتخلله بارقة صلاح !!

ويلحظ أن الشاعر عند عرضه الاستنكارى للتعادل فى التصرف الأخلاقى بين الشخصيتين نراه لم يقرن كلا بخلقه المعادل من علو وتدن ،

وصلاح وفساد، وصراحة ولولبية ـ التزاما منه بسلوك أسلوب العفة المهذب الأمر الخلقى المعهود عن العربى فى التعبير — حيث قد أتم الإعلاء والتسفيل المعادل بينهما دون تعريض بالمسفّل اعتمادا على ذكاء السامع فى يسر التوصل للإدراك لحقيقة الشخص المعنى بنصيبه من المعادلة — كما أن الشاعر المتصدى للنصح قد بلغ غرضه بأسلوب راقٍ لم يتم فيه التكشيف المفتضح أو التجريح المرذول للشخص المعدول، ولم يواجه فيه المخاطب ناعتا إياه بسوء التصرف والاختيار بتسوية خطأ بين طرفى المعادلة .

١١ — يكشف الشاعر لـ (عمرو) أن « عليا » ليس بالجبان الذى يتوانى عن شن الحرب إذا ما انكشفت له أسرار التدبير فى ذلك الاتفاق، ولا يمكنك أن تأمن جانب خطره إذا ما شُنَّتْ الحربَ . فأنت يا « عمرو » لستَ من رجالها المهيئين للقاء « علىّ » فكيف بكَ الحال إذا ما احتدمتْ، وناداكَ للنزّال ؟!

وإن أرتضى لك إحراجا لا تحتمله فى مثل هذا الموقف — فتدبر أمرك، وأعد النظر فى حساباتك من جديد لعلك تتبين موطن الخطأ فتتجافاه وتصحح موقفكَ (يا ابن العم)

إصرار « عمرو »

وما أن يفرغ الشاعر من إنشاده الذى أجرى فيه التقييم للموقف كما تراءى له — حتى نراه يدخل فى نقاش حوارى يبدأه «عمرو» قائلا :

عمرو: لو كنتُ مع «على» وسعنى بيتى[1]، ولكنى الآن مع «معاوية»[2].

الشاعر (ابن العم) : إنك لم تُرِدْ « معاوية » لم يُرِدْكَ ، ولكنكَ تريد دنياه ، وهو يريد دينك[3] !!!

وينتهى النقاش بين « عمرو » وابن عمه عند هذا الحد ، ولكن آثار هذا النقاش الخطير بين أبناء العمومة لم تتوقف ، فقد تسربت أنباؤه حتى بلغتْ مسامع « معاوية » ! .

ولم يطق « معاوية » صبرا على محاولة التخريب عليه للاتفاق المبرم بينه وبين « عمرو » والذى يحرص على إنفاذه فبادر إلى طلب الفتى السَّهمى (ابن عم عمرو) وأدرك الفتى عِظَم الخطر الذى يتهدده نتيجة لرأيه الذى أفصح عنه ، ولم يجد من وسيلة يلجأ إليها سوى الهروب من موطن الخطر !!

ولكن — إلى أين الفرار ؟!

أسرار الاتفاق عند « على »

الموقف السياسى : لم يكن من بد للفتى غير أن يلحق بـ « على » .

---

(١) أى لم يكن لى من مجال للظهور على رأس المجتمع العربى ولأهملنى على.

(٢) أى مع الذى يعطينى قدرى ويسمح لى بأن أحقق ما آمله وأتطلع إليه.

(٣) أى لقد فرضت نفسك عليه فشرى دينك بدنياه التى تؤملها

الذى يمثل الطرف الآخر الذى تم تدبير الاتفاق ضده — من بعد أن قام بواجب النصح لـ « عمرو » وكشف له عن ضخامة الخسارة التى لحقت به نتيجة لإبرامه تلك الصفقة ومن بعد أن ترتب على ذلك التهديد لحياته .

وقد كان أن فر الفتى ولحق بـ « على » وأطلعه على جلية الاتفاق المبيَّت ضده ، فسُرَّ نتيجة اضطلاعه على خفى تلك الأمـــور المبيَّتة التى كشفتها ملابسات الأمور دون طلب منه .

ويبدو أن موجة السرور قد زايلته بعد أن تأمل مخاطر ذلك الاتفاق فاستولى عليه العجب ، وانتابته الدهشة من أن يبيت مثل هـذا الخطر ضده ، ويتم فيه التجاوز للحق والقيم من والٍ تجاه خليفته المبايع له ، ويستعين على تنفيذ ذلك بـ « عمرو » الداهية — فما كان منه وقد اضطربت مشاعره إلا أن أنشد يقول [1] :

ياعجباً لقـــد سمعتُ مُنْكَراً	كَذِباً على الله يُشيب الشَّعَرا
يَسترِقُ السَّمع ، ويُغشى البَصَرا	ما كان يرضى أحمد لو خبرا
أنْ يَقرنوا وصيَّه والأبترا [2]	شانى الرسول واللَّعين الأخزرا [3]
كلاهما فى جنـدهِ قـد عَسْكرا	قد باع هـــذا دِينه فأَفْجِرا
من ذا بدُنيا بَيْعه قـد خَسِرا	بملْكِ (مصر) إن أصاب الظفرا !؟

---

(١) وقعة صفين ص ٤٣

(٢) هو العاص بن وائل والد عمرو وقد نزلت فيه الآية (إن شانئك هو الأبتر)

(٣) الأخزر - الذى ينظر بمؤخر عينه مكرا ويعنى به (عمروا)

إنى إذا الموتُ دَنَا وحضَرا شمَّرْتُ ثوبى، ودعوتُ «قَنْبَرا»(١)

قدّم لوائى — لاتؤخرْ حَـذَرا لن يدفع الحِـذارُ ماقد قُدِّرا

لما رأيتُ الموتَ موتاً أحمَرا عَبَّأْتُ (همدان) وعَبَّوْا (حِميرا)

حى يمانٍ يعظمون الخطرا قِرنٌ إذا ناطحَ قِرْناً كَسَرا

قل لـ «ابنِ حَرْبٍ» لاتدب الخمَرا (٢)

أرودِ (٣) قليلا أُبْدِ منـكَ الضَّجَرا

لاتحسبنّى يا «ابنَ حرب» غمِرا (٤)

وسلْ بنا (بدْراً) معـاً و(خَيْـبرا)

كانتْ قريشٌ يوم (بَدْرٍ) جـزرا (٥)

إذْ وَرَدوا الأمرَ فذمُّوا الصـدرا (٦)

لو أن عندى يا «ابن حرب» «جعفرا»

أو «حمزة» القِرم الهمام الأزهـرا !

رأتْ قريشٌ نجم ليْلٍ ظُهُرا

البيان الأدبى :

الفـكر فى القصيدة يدور حول محورين —

أحدهما : النعى على «عمرو» اتفاقه المبيت مع «معاوية» .

وثانيهما : الإنذار والوعيد لـ «معاوية» بالحرب .

---

(١) مولى «على»

(٢) لاتحاول أن تخاتل

(٣) تمهل

(٤) غير مجرب للأمور

(٥) قتلى

(٦) لم يحمدوا العاقبة

وفى نطاق المحور الأول نجد الإمام يلم بالمعانى التالية :

العجب والدهشة لحدوث مثل هذا الأمر المنكر المشيب للنواصى والغشى للبصر ، وهذا — ينطوى على التهويل للاتفاق المدبَّر ، وعدم إمكانية التصديق بأن مثل هذا التبييت يمكن أن يحدث — لو أن الخبر موضع ثقة .

ومواطن الطعن على الاتفاق المبيَّت تـكمن فيما يلى :

١ — عدم رضى «محمد» عليه السلام عن ذلك — على سبيل فرض علمه به .

٢ — لامجال للقرن بين وصى النبى المتربِّى فى أحضانه وبين الداعية ابن المبغض [٢] لنبى الهدى « معاوية » .

٣ — الاتفاق صفقة خاسرة تم فيها بيع الدين بدنيا موعودة ، والوفاء بها موضع شك والإنكار على (عمرو) تورطه إلى هذا الحد الذى تم استرذالاً لتصرف ما كان يُتوقع صدوره منه .

وفى نطاق المحور الثانى نجد معانى التهديد والوعيد تدور بعنف يتصاعد يبرق بنذر الحرب .

وفى غمرة التهديد نجد الإمام يلم بمعانى الخطورة التى تجعل لوعيده وقع الصواعق — خضوعاً لما يلى :

١ — فهو الشجاع الذى يجَبه الموت ولا يَرْهبه .

٢ — وهو الذى يصرُّ على الحرب ويقدم عليها دون خوف إذا ما أصبحت حتماً .

---

(١) يعنى بالمبغض (أبا سفيان)

٣ — وهو الذى يتحدى الأنداد ولا يُلاينهم .

٤ — وهو صاحب البطولات الإسلامية المرموقة التى سُجّلتْ فى (بدر) و (خيبر) وخلّفتْ قزوم قريش قتلى .

وصراحة الإمام النابعة من صدقه وشجاعته وثقته بنفسه دفعته إلى الكشف عن مخططه الذى سيسلكه مستقبلاً استعدادا للحرب المقبلة حيث عين (همدان) اليمانية بأنها ستكون عُدّته وعتاده — وهم ماهم فى الخطورة الحربية الكفيلة بالنصر على كل قِرْن ونِدّ .

وقد استغل منازعو الإمام تلك الصراحة التي تكشف عن خططه أولاً بأول لصالحهم إلى أبعد حد .

وينكشف الإمام أيضا عن نغمة أسىً تخالطه لفقده « جعفرا » و « حمزة » فى هذه الظروف القاسية التى يمر بها فى نزاعه مع واليه المنشق « معاوية » .

ونغمة الأسى هذه حارّة ملتهبة ـ ونحِسُّ عمق الأسى فى جعله أى واحد منهما كفيلا بإراحته من « معاوية » دون حاجة إلى تدخله هو، وأى واحد منهما مع « على » يجعله أقدر على مجابهة قريش بأسرها ـ ومن هنا كانت الحُرْقة فى نغمة الأسى قوية .

ويبدو هذا فى أسلوب التمنى بـ (لو)

لو أن عندى يا (ابن حرب) (جعفرا)

أو (حمـزة) القرم الهمام الأزهرا

رأت قريش نجم ليل ظهرا

المصوَّر لإجبار قريش على أن ترى ما لم تكن تقوى على رؤيته وهو «نجوم الليل ظهراً» أى فى الوقت الذى يستحيل فيه الرؤية لما مما يبعث على الفكر بأنه سوف يدفع قريشا إلى إدراك ما لم تكن تدرك على الرغم منها .

حان موعد التنفيذ

ويبيتُ «عمرو» عند معاوية وقد أبرما الصفقة — ويصبح الصباح فيستأنفان الحوار على وجه جديد !

إنه التنفيذ للخطة طبقا لبنود الاتفاق المبرَم فيما يتعلق بوسائل التنفيذ إزاء ما يُجَبِهُ «معاوية» من مصاعب [1] ، والحلول التى تُتخذ ضدها مما يكفل القضاء عليها ، وتصفيتها لصالح «معاوية» .

وهنا نرى «معاوية» يبدأ الحوار مع «عمرو» قاصداً الاستيثاق النهائى من صحة الرأى فى صواب الخطة لحظة البدء فى إنفاذها [2] فيقول :

معاوية : ما ترى ؟

عمرو : أمض الرأى الأول .

وعند ما يطمئن بهذه الإجابة إلى أنه ليست هناك مشورة مَشْغول بها عليه ، أو مَنكورة عنه — نراه يسارع بإرسال «مالك بن هبيرة»

(١) المصاعب الممثلة فى محمد بن حذيفة الخطر الطليق ، وقيصر العدو المتوثب و «على» الخليفة الآخذ بحقه فى فرض سلطان الخلافة .

(٢) وهذا أشبه بسلك العسكريين فى إجراء المراجعة النهائية لخططهم قبيل البدء بإنفاذ عملياتهم العسكرية .

« السكندى » فى طلب الخطر الطليق « محمد بن حذيفة » فيدركه فيقتله ، ويبعث إلى « قيصر » بالهدايا فيوادعه .

ويبدو وكأن « معاوية » قد فرغ من أقل الصعاب خطراً فيدخل على « عمرو » وهو مهتم بالخطر الأعظم وقد فرغ له فيقول :

معاوية : ماترى فى « علىّ » ؟

عمرو : أرى فيه خيراً — أتاك فى هذه البيعة خير أهل « العراق » ومن عند خير الناس فى أنفس الناس ، ودعواك أهل (الشام) إلى ردّ هذه البيعة خطر شديد .

ورأس أهل (الشام) «شرحبيل بن السمط السكندى » وهو عدو لـ « جرير » المرسل إليك فأرسل إليه ، ووطّن له ثقاتك فليفشو فى الناس أن « عليا » قتل « عثمان » وليكونوا أهل الرضا[1] عند « شرحبيل » فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب « شرحبيل » لم تخرج منه بشئ أبدا .

الدهاء السياسى

ويبدو واضحا من ردود « عمرو » على تساؤلات « معاوية » أنه تارة يصدرها مقتضبة حاسمة فى صورة الأمر القاطع الذى يتعين إنفاذه دون أى إبطاء حيث لا بديل سواه ، ونجاح التدبير يعتمد على التعجيل بالإنجاز — لأنه محض الرأى دون مواربة !

وفى مثل هذا يبدو « عمرو » فى صورة المستشار السياسى الداهية الذى أحكم الأمر بعد أن تم له الاضطلاع على الموقف السياسى فى هيأته

(١) الموثوق بكلامهم عنده .

الراهنة ، وأدرك أبعاده ، وردود الفعل المحتمل صدورها عنه أثناء المعالجة له نتراه يصدر أمره بإيقاع الضربات القاضية — كل واحدة في حينها ، وبالأسلوب الملائم لتحقيق الغرض المنوط بها ، فيقول وكله ثقة في صواب التدبير : أمض الرأي الأول[1] .

و « معاوية » في تسآله حريص على انتزاع أنجع التدابير التي ينطوي عليها عمق الفكر لدى مستشار الدهاء « عمرو » وخاصة من بعد أن تشارطا وتراضيا واتفقا ؛ فيردد تسآله عليه عله يستخرج المكنون مما يظن كتمانه عنه ويجيبه « عمرو » بما يوحي بالثقة التامة في نجح ذلك التصرف ، وانعدام البديل له ، وخلوصه من أي بادرة شك تخالط صدقه — مما يدفع « معاوية » إلى سرعة التنفيذ لمدلوله ضماناً لحسن سير الأمور في التطبيق العملي للخطة — ثقةً منه بأنها الوسيلة المثلى الكفيلة بإحراز الهدف المنشود من ورائها .

ويبدو « معاوية » في صورة الأداة المنفذة بالدقة التامة ، والسرعة المناسبة لكل ما يشير به « عمرو » دون أن يحاول أن يُدخِل على المشورة أي تحوير أو تعديل — ثقة منه بأنه لا مَحْض وراء تلك المشورة المدفوعة الثمن (مِصر الطُعمة) !

ولربما كان هناك احتمال للشك في صدق المشورة قبل التراضي أما الآن فلم يبق مجال لتوارد أي شك .

(١) فيما يتعلق بإرسال من يقتل « محمد بن حذيفة » الخطر الهارب من السجن ، وما يتعلق بموادعة « قيصر » بمهاداته — وقد تم الأمر طبقا لتدبير « عمرو » .

وقد اتضح أن « عمروا » كان صريحا فيما أبداه لـ « معاوية » من مشورة بادىء ذى بدء قبل التشارط والتراضى[١] .

لهذا — نراه هنا لا يحتاج إلى تكرير تفصيلات أوضحها سابقاً ، فاكتفى بقَوْلة الحَزْم : أمض الرأى الأول غير أن « معاوية » بعد الاتفاق كان فى حاجة إلى ما يؤكد له أنه لم يكن هناك تدبير مختزن عنه عند « عمرو » وربما جلاه الاتفاق ، فكان ترداده لقوله ما الرأى؟ للاستبانة — حذراً من أن يقع فى خطأ لم يُحسب حسابه .

وحرص « معاوية » على انتزاع مكنون التدبير عند « عمرو » نابع من خوفه على ضياع ما فى يده إن لم يكن التدبير مُحكَماً ماضيا — لإحساسه داخلياً فى نفسه بأنه الوالى المنشق الذى يتهدده الخليفة المبايَع له وقد جاءه بحشود العراق .

ويبقى «عمرو» من وراثمة شامخة فى إحكام الدهاء السياسى الذى يظهر فى نوعية الردّ جواباً على ما يجب أن يُتخذ من تصرف إزاء « على » على وجه الخصوص .

وهنا تتجلى العبقرية السياسية الفذة والمقطعة النظير فى جَدْل التدبير ، وإحكام الخطط ، وتَبْييت الأمور .

فقد اتضح أن « عمروا » هو الأخْبر بالتيارات السارية والميول التى تموج بها الأقاليم التى ضمتها الأمة الإسلامية ما بين (عراق وشام) فى تلك الآونة ، وأنه الأكثر إدراكاً لما يعتمل فى فكر أهلها وأنه

---

(١) راجع ما دار فى اللقاء الأول بين « عمرو » و « معاوية »

الأخير بأقدار الرجال وإمكاناتهم والأدوار التى تناسبهم ، ويمكن نجاحهم فيها ، والكيفية التى يمكن بها جذبهم للقيام بهذه الأدوار

وقد دفعته حنكته السياسية إلى أن يستغل خبراته هذه فى محاولة أن يملى على أهل تلك الأقاليم سلوكا سياسياً معيناً يضمن له توجيهها وقيادتها وفق اتجاه معين حدده لها عن طريق التأثير السياسى فى فكرها ؛ فتندفع من عند نفسها فى الاتجاه المرسوم بحيث تبدو وكأنها المختارة لمسيرتها دون دفع مدبَّر ، ويبدو اتجاهها وكأنه رغبتها المفضلة وهو فى حقيقة الأمر ليس غير هـدف لدافعيها — والجماهير ليسوا غير مخلب القط فى عملية التنفيذ — والمتنفع سواهم من أهل التدبير والتشوّق لهم .

وأمام أخطر أمر يتهدد « معاوية » نجد جواب « عمرو » يسرد إيضاحاً لجمل الخطة التى ارتآها مركّزة فى رءوس موضوعات حددها كما يلى :

(أ) فيما يتعلق بوفد العراق وما ينبغى أن يُسلَك إزاءه وهو الطالب لأهل الشام واليهم بالبيعة لـ « على » .

(ب) وفيما يتعلق بأهل الشام وكيف يمكن أن يُساسوا لصالح « معاوية » فى هذا الموقف ؛ فلربما كان فيهم من يؤيد البيعة لـ « على » وينبغى الأخذ بالحلول المقترحة الممثلة فيما يلى :

العمد إلى الدهاء السياسى بالكيد وإعمال الحيلة لتحقيق الغرض المنشود .

وقد بدأ « عمرو » جوابه الاستشارى باعتماد التكثير فى أمور ثلاثة :

١ — فى « على » وما ارتآه له من تدبير — وقد ساقه بحصافة أسلوبه تتقاصر دونها أعرق الأساليب الدبلوماسية المعاصرة (أرى فيه خيراً) فالخيرية المرادة يمكن أن تنصرف إلى شخص « على » بعينه ، وإن كان يبدو أنها منصرفة إلى قوة نوع التدبير المتخذ ضده — كما توحى بذلك قرينة الموقف الهادف إلى طمأنة قلب « معاوية » فيما يختص بكفاءة الإجراءات التى ستتخذ نحو « على » للتغلب عليه (شغلهما الشاغل فى تلك اللحظة).

وفى الوقت ذاته إجابة لا يؤخذ بها « عمرو » إذا ما تحولت الأمور إلى غير ما يهوى وانتصر « على » ! !

ويمكن أن ينسحب الخير فى العبارة فيشمل سائر جزئيات الخطة المدبّرة ضد « على » مما يقطع بصواب الرأى فيها ، اعتماداً على أن إثبات الخيرية لـ « على » قد ورد النص عليه فى قوله : ومن عند خير الناس فى الجزء التالى من النص .

٢ — وفى وفد العراق وعلى رأسه « جرير » فقد لفّ الجميع بالخير ، ثم خص (أهل العراق) بأنهم (أنفس الناس)

والنفاسة بعينها تفضل مجرد الخير العام إذا ما قورنت به ، وإضافتها مفضّلة إلى الناس تعطى العراقيين منزلة أرفع ، وإذا انضمت الخيرية إلى النفاسة المفضّلة لهم فإن ذلك يدعو إلى الرفع من قدرهم أكثر ، ولا غرابة فى اختصاص العراقيين بالخير والنفاسة فى نظر « عمرو » إلا لكونهم موضع الاهتمام عنده طبقا لبعد نظره السياسى ؛ فهم يمثلون ثقلا سياسياً يعطى مركز الخليفة الإمام « على » قوة سياسية وحربية فى آن واحد ،

والحصافة السياسية عنده تستدعيه أن يحاول تجريد الإمام « على » من سائر القوى المعينة له ، وأن يحاول جذبها تجاه « معاوية » لتصبح عوناً له يقويّه فى نزاعه .

ومن هنا — كان الإسباغ من « عمرو » لأرق صفات النفاسة على العراق ووفدها لأنهم المعنيّون بمحاولة الجذب فى طرف النزاع و« عمرو » هو الوحيد المدرك لمقدار نفاستهم ، وهو بدوره يحاول أن يُفهم « معاوية » مقدار الخطر العراقى الذى يتهدده ليحسب حسابه .

٣ — وَفىّ رئيس الوفد العراقى — بالتمجيـــد له المظهر لصدارته فى قومه الذين أضفى عليهم الخير والنفاسة وهو الرأس فيهم ، والمقـــدّم من بينهم .

وتلك آية الأدب فى أحاديث السياسة والديبلوماسية العربية عن الآخرين حتى ولو كانوا مناوئين وليسوا بموالين .

فالأسلوب المهذّب هو الأداة المعبرة ، وأقصى ما فيه من جفوة يمكن أن ندركه من كفّ « عمرو » عن التصريح باسم « على » واسم رسوله « جرير » وربما دعاه إلى ذلك اعتماده على أنهما قطبا الرّحى اللذان يدور حولهما الحديث الحالى الماثل والمتداول .

الحلول السياسية المقترحة

(أ) الخطر فى ضرب الإقليم بالإقليم :

وقد بدأ « عمرو » علاجه لأزمة « معاوية » السياسية بتحذيره إياه من خطرٍ شديد مخافة أن يتردّى فيه وصَرْفاً له عن سلوك هذا النهْج فى السياسة .

ألا وهو خطر ضرب الإقليم بالإقليم — بمحاولة ضرب العراق بالشام — فذلك نهج خطر غير مأمون فى مجال التعامل السياسى مع الأقاليم المنظور إلى إخضاعها بكسب رضاها ولم يترك «معاوية» عند حد التحذير ـ وإنما نراه يدله على مفتاح الكسب للموقف السياسى، فيشير عليه بالعمد إلى ضرب الرجل بالرجل — ضرب الرسول «جرير» الرأس من أهل العراق بأعدى أعدائه «شرحبيل بن السمط» الرأس من أهل الشام، فقد هدته حنكته السياسة إلى اعتقاد أن: ضرب الرجل بالرجل أيسر، وأضمن نجاحاً من ضرب القوم بالقوم، وأدعى إلى الأمل فى إحراز الغلبة على الخصم بأيسر وسيلة، وبأقل الخسائر، والادخار لسائر القوى الأخرى إلى أوانها، ريثما تحتم الظروف الدفع بها إلى ميدان النزاع.

و (عمرو) فى هذا يتسم ببُعد النظر السياسى حيث أيقن أنَّ إرسال الوفود هو البداية لارتفاع حرارة النزاع، وينبغى أن يعالج كل تصعيد بما يلائمه من المضادات بدلا من البدء بصراع إقليمى غير مضمون العواقب.

ويتسم أيضا بالدهاء القاضى بإعمال الحيلة ليفلَّ بها السيوف المشرعة فى أيدى الشجعان.

و «عمرو» بهذا يكون قد دل «معاوية» على خفى الدروب السياسية المأمونة الجانب بـ (ضرب الرجل بالرجل) من بعد أن حذره من المزالق السياسية الغير مأمونة العواقب فى (ضرب القوم بالقوم) أو الإقليم بالإقليم.

كما ألمح له فى إشارة ذكية إلى ضرورة أن يفتح « معاوية » قلبه لأهل العراق بغية استمالتهم نحوه رجاء أن يحرز لنفسه قبولاً عندهم .

وذلك بإعلامهم أنهم محل القبول عنده توطئة لزحزحتهم عن موقفهم الموالى لـ « على » ثم خروجهم عن هذا الولاء ، وانحيازهم كافة إلى صفه .

وبهذا يكون قد جرّد الإمام من عناصر قوته فى أخص صورها وهم أهل العراق الذين يتقوّى بهم .

وفى محاولة ضرب الرجل بالرجل — يعمد « عمرو » إلى التحديد لشخص (الرجل) الذى يمكن أن يقوم بالدور المرسوم له على أتم وجه لحساب « معاوية » ، فيبيّن خصائصه التى تؤهله للقيام بهذا الدور حاصراً لها فى أمرين :

(أ) أنه الرأس من أهل الشام — مما يجعله أهلا لقيادتهم والتأثير فيهم بنجاح .

(ب) أنه عدو لـ « جرير » رسول الإمام — مما يعطيه المضادة فى الموقف المرسول .

وزعامته لأهل الشام تشير إلى أنه سيكون الرجل الندّ المكافىء والمناوىء لـ « جرير » وصاحب المقدرة على التغلب عليه — أما كيفية اصطناع « شرحبيل » ليكون رجل « معاوية » المكافىء لـ « جرير » رسول الإمام فقد استطاع « عمرو » أن يدخل عليه عناصر أخرى تكفلت بالتصدير لـ « شرحبيل » لينهض بالدور الذى رُسم له .

وتلك العناصر ظاهرها السهولة واليسر فى الممارسة وباطنها الخطر العظيم فى رد الفعل الناتج عنها وكلها مضادة لـ « على » وفى صالح « معاوية » ألا وهى :

(ب) اتهام [illegible] « على » بقتل « عثمان »

لقد أشار « عمرو » على « معاوية » أن يرسل فى طلب « شرحبيل » الرجل الذى ارتآه كفيلاً بالتصدى لـ « جرير » لما بينهما من عداوة ، ودفعه للتصدى والوقوف فى وجه « جرير »

والدفع والتصدير لينهض « شرحبيل » بما رسم له استدعى أن يجدل ويرتب ويهيء له أمراً وحيلة تتكفل بدفعه إلى تزعم الموقف وتسنمه ظهر الموجة ، والقيادة لقومه فى التصدى والمعارضة لـ « جرير » ووفده .

وهكذا يبدو الأمر فى صورة نزاع بين أهل الشام وأهل العراق على أمر عام يهم الأمة الإسلامية جمعاء لمساسه بمشاعرهم الدينية التى يحق لكل مسلم أن يشارك فيها برأيه دفاعاً عن دينه الذى يبدو وكأن أصلا من أصوله قد انتهك .

وهكذا تم إحكام الأمر فى نفس « عمرو » المستشار الداهية فألقى به إلى « معاوية » فى صورة الأمر النافذ بقوله : أرسل إليه : (إلى شرحبيل) .

ولما كان الضمان لقيام (شرحبيل) بالدور الذى رُسم له يستدعى الإحماء لنفسه لتغضب ولتثور بفعل الحماس الدينى ضد اتهامات تعرض لها — إذن كان لابد من إعداد أشاعة تفشو فى الناس ، ويُوطَّن لها الأشخاص الموثوق بهم عند « معاوية » فى صحة نهوضهم بنشر الأشاعة

وغرس الإيمان بها فى نفوس أهل الشام ، وإدخالها بالتالى على نفس « شرحبيل » بحيث تستكن فى قلبه — ألا وهى أشاعة الاتهام بأن « علياً » قتل « عثمان » ولا أعظم ذنباً لدى المسلمين من أن يُغتال خليفتهم !! ولا أحق بالسخط من مرتكب الاغتيال !!!

وهكذا — أُعِدَّتْ التهمة المزيفة ، ونُشِرتْ أشاعتها بين أهل الشام، ووطّن لها أهل الثقة لدى (شرحبيل) فأرصِدوا له فى طريقه ليفجأوه بالتهمة الملفقة تُلقىَ على أسماعه ممن يُعهَد الصدق فيهم ، ومن أهل الرضى عنده ، فلا يجد مناصاً من أن يصدق ويوقن بصحة التهمة فينهض بحق الزعامة وإنجاز المهمة التى جُنِّدَ لها دون أن يدرى أنه مدفوع إليها مخدوع فيها — وهى القيادة لأهل الشام المضادة لأهل العراق وزعيمهم .

وبهذا تنزاح عن « معاوية » آثام تهمة الوالى المنشق الخارج عن طاعة خليفته المبايَع له بيعة عامة صحيحة أصبحت مُلزِمة له بالدخول فيها ، ويتحول الصراع بين الوالى والخليفة بحيث يبدو وكأنه صراع إقليمى بين أهل الشام وأهل العراق لامدخل له فيه !

ولما كان المستشار السياسى فى زمننا المعاصر غالباً ما يُعهَد إليه بوضع الخطة السياسية ، ورصد النتائج التى يمكن أن تحدث كردّ فعل لتلك الخطة عند التنفيذ — فإن مثل هذا قد حدث من « عمرو » فقد حدّد لـ «معاوية» النتائج المحققة الوقوع نتيجة للاتهام الملفّق للإمام بقتل الخليفة « عثمان » حيث قال : « فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحب ؛ وإن تعلقت بقلب (شرحبيل) لم تخرج منه بشىء أبداً » .

وبهذه المشورة يكون المستشار « عمرو » قد ضمن للوالى « معاوية »

أمرين يحتاجهما فى نزاعه ضد الإمام ، ويضمنان له التفوق والغلبة على منازعه الخليفة :

أولا : اجتماع أهل الشام عليه تأييداً وموالاة له من بعد الطلبة لوالى (حمص) « شرحبيل » — حيث يكون قد أظهر « معاوية » فى عيونهم فى صورة الناهض بأمر الدين حفظاً وصيانة وصحة — عندما يطالب أهل الشام بالقصاص للخليفة المقتال « عثمان » فيما بعد .

ثانياً : ضمان نهوض « شرحبيل » بالزعامة والقيادة لأهل الشام لحساب « معاوية » من طرف خفى حيث قد زُعِم له ما زُعِم ، فأُعِدَّتْ له السكائن لتواجهه حيث سار بما زُعِم ، وأكد الزعم فى قلبه فاستقر فيه على أنه حقيقة ثَبَتَتْ ، ولا يُرجَى لها أن تتزحزح من قلبه أو تتغير أو تتحول بأى وسيلة أخرى ؛ إذن ـ فلن ينفصل عنها وهو الرأس للبيانيين فى (حمص) والوالى عليهم ، فإذا مادانت له (الشام) ومن فيها ، ووقفتْ كلها فى مواجهة العراق ، ظهر « معاوية » فى صورة الملبيّ لرغبات أهل الإقليم فيما يطالبون به ـ من بعد أن قد تم التصميم على ضرب فكرة المطالبة لـ « معاوية » بالمبايعة لـ « على » بفكرة الاتهام لـ « على » بقتل « عثمان » وتم الإعداد لضرب الرجل بالرجل ، وأرجىء إلى حين ضرب القوم بالقوم .

إذن ـ لقد أُحكِمتْ الخُطة : باصطناع الفرية ، وأُلقِى بطُعْم حُسْنِ التقبل للعراقيين استعداداً لجذبهم ، وسَحْب بساط تأييدهم وولائهم من تحت أقدام الخليفة الإمام « على » وضُمِن الولاء من أهــل الشام لـ (معاوية) ورتبت الزعامة التى تقودهم إلى الهدف ، واختير الأفراد

المتواطئون لتلبيس الأمر على « شرحبيل » ووُزِّعت عليهم الأدوار ، وأُعِدَّ المسرح ليلعب كل دوره ، وهُيِّئت لهم الأماكن والإمكانات ، ولم يبق غير حَيْنونة وقت التنفيذ ، لينهض كل بمهمته التي أُنيطَتْ به في هذا التدبير الدهائي الغريب !!

والنظرة المتأنية تحكم بما يلي :

لقد استحال على أدهى الدهاة « معـــاوية » أن يعقِّب بشيء على ما أبرمه مستشاره ومشيره « عمرو » فأنفذه كما هو ، ولم يحاول أن يُدخِل على الخطة تعديلا أو تحويراً في أي جزء من أجزائها لتمامها ولكمالها ، ولما وقر عنده من استحالة إمكان بلوغ مدى في الدهاء أبلغ مما أشار به « عمرو » .

لقد كان « عمرو » صاحب التخطيط المُحْكَم للعمليات التي ينبغي اتخاذها ضد الإمام ، وكان « معاوية » الأداة ، وصاحب الحسم في التنفيذ طبقاً للخطة لأنه صاحب السلطة المباشرة في الولاية ، والمالك لحق إصدار الأمر وتنفيذه .

وبالتعاون بين ... الدهاء تخطيطا وتنفيذا أمكن للدهاء أن ينتصر ، وللكيد أن يفشّي ويغطِّي ، ويظهر ويعلو ، وللحق أن يخفت صوته ويتلاشى ولو إلى حين .

إنها السياسة للدول التي قال عنها المؤرخون : إنها لا تعرف الأخلاق وإنما هي المنافع والمصالح المتبادلة ، والمرونة والحصافة في التعامل السياسي التي تجعل من الإخفاء للحقيقة كياسة ، وتعترف بالكيد سلاحا ، وتعتبر الشجاعة تهورا ، والتمسك بالحق تشددا ، والمطالبة به

كاملا — قصر نظر سياسى — حتى إذا ما أشرعت واشتجرت فى سبيل ذلك السيوف — أصبحت الحرب خُدعة ، وتحذيراً للمصائر ، والحرب أوّلها كلام.

والانتصارات الكبرى فى الحروب التى حكمت مصائر الأمم لها بشائرها الموحية بصاحب الكفة الراجحة والتى تبتدئ مبكرة فى صورة كلمة لا يدرى إلا الله أبعادها ، أو مشورة كلها عين الدهاء ، أو حيلة ينصب أشراكها أريب يُحسن الجدل والتدبير والإيقاع طبقاً لنهج السياسة التى يحكمها الدهاء منذ القِدَم .

استقدام « شرحبيل »

وحيث انتهت المشورة بُودِر بالتنفيذ دون أناة فسارع « معاوية » بالكتابة إلى « شرحبيل بن السمط »[1] مستقدماً إياه على جناح السرعة قائلا :

إنّ « جرير بن عبد الله » قَدِم علينا من عند « على بن أبى طالب » بأمر فظيع — فأقدِم .

وباشر « معاوية » مهمة إعداد الرجال الذين قرّ عزمه على توطينهم من أجل « شرحبيل »[2] .

---

(١) والى (حمص) .

(٢) الرجال هم :-

يزيد بن أسد ، بسر بن أرطاة ، عمرو بن سفيان ، مخارق بن الحارث الزبيدى ، حمزة بن مالك ، حابس بن سعد الطائى

وقد راعى فى اختيارهم أنهم من خاصته وأهل الثقة عنده- كما أنهم من أبناء العمومة لـ « شرحبيل » وهم فى الوقت عينه الرؤوس من (قحطان واليمن)[١] .

وقد أمرَ الرجال الستة بأن يقعدوا لـ «شرحبيل » على طريق قدومه - حتى إذا مالاقوه أخبروه أن « علياً » قتل « عثمان » .

اليمانيون والتهمة للإمام

الموقف السياسى : وتصل رسالة الاستقدام إلى « شرحبيل » والى حمص فيستشير أهل اليمن فى ولايته . أيقدم عليه أم يعدل ؟ فيختلفون عليه ولا يخرج من خلافهم بطائل وقد بلغتهم إشاعة التهمة للإمام . وأخيراً ينهض إليه عبد الرحمن بن غنم الأزدى [٢]

فيقول : « يا شرحبيل بن السمط » إن الله لم يزل يزدك خيرا مذ هاجرت إلى اليوم وإنه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس ، ولا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

إنه قد أُلقِى إلينا قتل « عثمان » وأن « عليا » قتل « عثمان » فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار — وهم الحكام على الناس.

وإن لم يكن قتله فعلام تصدق « معاوية » عليه ؟

لا تهلك نفسك وقومك ! !

---

(١) وقعة صفين ص ٤٤

(١) كان أفقه أهل الشام

فإنْ كَرِهْتَ أن يذهب بحظها « جرير » فسِرْ إلى « على » فبايعْه على شامِك [١] وقومِك » [٢] .

التعليق:

ويبدو من مقالة « عبد الرحمن بن غنم » أنه قد خرج من النقاش والخـلاف بتقويم دقيق سليم للموقف، ومؤداه الثقة بالإمام وصحة البيعة له .

وقد بنى هذا على الاعتبارات التالية :

١ — إن التهمة ليست إلا مجرد أُشاعة لا يُوثق بها ، لاحِظْ عبارة (أتى إلينا) المفيدة للانبهام وعدم الوضوح .

٢ — لو كانت التهمة صحيحة لما بايعه أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار (وهم الحكام على الناس) ! !

٣ — إذا كان الأمر مجرد التشويش على الإمام باتهام مكذوب فلا يوجد ما يدعو إلى التصديق للمرجفين ، وتغليب « معاوية » على الإمام دون تثبت .

٤ — وإذا كان الأمر مجرد الهوى وراء الدنيا خشية أن يَغلبه عليها منافسه « جرير » فباب المشاركة فيها مفتوح أمامه بمبايعة الإمام .

والواقع أن « عبد الرحمن » لم يترك لـ « شرحبيل » باباً يحاول أن يتفلّت منه خروجا على الإمام ، وانحيازا إلى « معاوية » اقتناعاً منه

---

(١) ما يليك من الشام (حمص) .

(٢) وقعة صفين ص ٤٥ .

بصحة خلافة « على » والثقة فيه وخاصة من بعد أن فَتَّقَ بذكاء سائر الاعتبارات التى ربما تعرض لفكر الوالى وهو يحاول أن يزن الأمور؛ فقد حصره فى خيارين لا ثالث لهما ، وكلاهما يحتّم عليه أن يكون مع الإمام .

أولهما — نُشدان الصحة لبيعة الإمام — وهذا أبرمه الحكام على الناس من المهاجرين والأنصار ، ولا يسعه غير المتابعة لهم من بعد أن أصدروا فيه حكما مُلزِما .

ثانيهما — إن صح عنده الميل إلى الدنيا — فالطريق الشرعى إلى النيل منها حلالاً رهْن بالمبايعة لـ « على » .

هذا — ولم يهمل « عبد الرحمن » حق النصح للوالى بتذكيره أنه فى ذمة لا يسعه عليها غير الحمد ضماناً لاستدامتها ، والاستزادة منها .

وقد صدّر به كلمتَه مع لمحة تدعو إلى التزام الحق اتقاء لغضب الله بعدم التغيير لسليم المبادىء — كما أنه قد ختمها بنصح آخر قصد به محاولة التجنيب للوالى شر الإلقاء بنفسه وقومه من أهل اليمن فى المهالك المرتقَبة من وراء تلك التهمة ، وذلك النزاع .

التصميم

الموقف السياسى : ويأبى الوالى « شرحبيل » إلا أن يسير إلى الوالى « معاوية » ضارباً عُرض الحائط بما سمعه من نصح « عبد الرحمن بن غنم » ويتأهب المسير فما يمالك « عياض الثُّمالى » إلا أن يبعث إليه بالقصيدة التالية :

أيا «شرح» يا ابن السمط» إنك بالغ … بود «على» ما تريد من الأمر

ويا «شرح» إن الشام شامك ما بها … سواك؛ فدع قول المضلل من فهر

فإن «ابن حرب» ناصب لك خدعة … تكون علينا مثل راغية البكر[1]

فإن نال ما يرجو بها كان ملكنا … هنيئاً له، والحرب قاصمة الظهر

فلا تبغين حرب العراق، فإنها … تحرم أطهار النساء من الذعر

وإن «عليا» خير من وطئ الحصى … من الهاشميين المداريك للوتر[2]

له في رقاب الناس عهد وذمة … كعهد «أبي حفص» وعهد «أبي بكر»

فبايع ولا ترجع على العقب[3] كافراً … أعيذك بالله العزيز من الكفر

ولا تسمعن قول الطغام؛ فإنما … يريدون أن يلقوك في لجة البحر

وماذا عليهم أن تطاعن دونهم … «عليا» بأطراف المثقفة السمر

فإن غلبوا كانوا علينا أئمة … وكنا بحمد الله من ولد الظهر[4]

وإن غلبوا لم يصل بالحرب غيرنا … وكان «علي» حربنا آخر الدهر

يهون على عليا «لؤي بن غالب» … دماء بني قحطان في ملكهم تجري

فدع عنك «عثمان بن عفان» إنما … لك الخير لا تدري، وإنك لا تدري

على أي حال كان مصرع جنبه … فلا تسمعن قول الأعيور[5] أو «عمرو»

---

(١) راغية البكر — مثل يضرب في التشاؤم.

(٢) الذين يدركون ثأرهم دائما.

(٣) مأخوذ من قوله تعالى: «يردوكم على أعقابكم».

(٤) الذين لا يلتفت إليهم، ولا يعبأ بهم.

(٥) يقصد «معاوية».

البيان الأدبي

القصيدة فى فكرتها تنهض بما يلى :

١ — أداء حق النصح للوالى (شرحبيل) بأن من الخير له ولقومه ديناً ودُنْيا أن يكون موالياً مُوَادّاً للخليفة «على» صاحب الحق الشرعى فى الخلافة ، وأولى الناس بها .

وقد لزمتنا بيعته من بعد أن بويع من الناس بيعة عامة مثلما تم مع «أبى بكر» و«عمر» .

والمُوادّة لـ «على» بالمبايعة له تمثل الطريق المفتوح أمام الوالى (شرحبيل) لنيل ما يريد من أمر الدين والدنيا .

وافتتاح القصيدة (يا شرحُ) مناشدة صريحة لـ «شرحبيل» بأن من الأجدى له المبايعة للإمام «على» لكفالة هذا المسلك بإنالته ما يبغيه أيا كان ذلك المبتغَى — هذا — فضلا عن الإبقاء على ما بيده وقومه من الهيمنة والولاية على (حمص الشام) التى هو سيّدها وحده دون منازع : (الشام شامك ما بها سواك) .

والخروج عن هذا ليس غير اتباع للضلال والتضليل والخداع القامة أشراكه ، ولن تجنى من ورائه شيئا ، وإنما مغنمه عوده مقصور على الناصب للأشراك ، ولن يَسْمح لأحدٍ أن يشاركه فى أي مغنم يمكن أن ينجلى عنه النزاع ! !

وتلك — دعوى إلى التعقل فى التصرف وعدم الاندفاع اتقاءً لوخيم العواقب .

٢ — التحذير من المسير إلى « معاوية » وقد صارح الشاعر الوالى بذلك بناء على وضوح الرؤيا عنده للخطر الداهم المتوقع من جراء هذه المسيرة — حيث بين له أنه لن تلقاه عند « معاوية » غير أشراك الخداع المحكمة التى لن يتأتى له الإفلات منها ، والتى لن تعود عليه وقومه إلا بكل شؤم محقق ، ويمكننا أن نلحظ ذلك من قوله : (ناصب لك خدعة) ، (تسكون عليفا مثل راغية البسكر) .

ويمتد النفس بالشاعر ، وتعمق به الرؤيا ؛ فيذكر أن ناتج ذلك الخداع المعد الآكد أن « معاوية » سوف يتخذنا أداة لتحقيق مآربه ، فسيضرب بنا « عليا » حتى إذا ما انتصر عليه وتوسد الملك احتاز ما بأيدينا من ملك فصار (هنيئا له) ولن نخرج من ذلك النزاع الحزبى إلا بالظهر المقصوم — حيث لا طاقة لأهل الشام بحرب العراق ، والزج بنا فيها يحرمنا الأمن ، فسيناصبنا « على » العداء أبد الدهر ، والهاشميون لا ينامون على ثأر ، ولن نرتضى لأنفسنا أن نسكون الأداة لتنفيذ مآرب الآخرين ، فى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ؛ فالدماء اليمنية (دماء بنى قحطان) غالية ، ولا ينبغى أن تهدر فى الخداع والمؤامرات ، خاصة فى ساحات ملكهم المسيطرين عليه ! !

وكأنى به ينادى بأن مثل هذه الدماء الثمينة لا يسوغ لها أن تبذل إلا فى الفتح ، وتوسيع رقعة ملك اليمانين والدولة الإسلامية بفتح أرض أخرى ، وليس فى صراع الخليفة الإمام المبايع له مهما تسكن أهمية القصد من وراء ذلك .

هذا ـ والخير كل الخير فى المبايعة لـ « على » ورَفْض بيعته رِدّة إلى الـكفر أحدثتْها جماعة شريرة مُغْرِضة تطرح الحق والصواب جانبا ! !

٣ — الدعوة إلى عدم الخوض فى مقتل الخليفة « عثمان » لخديعة قتله مجهولة حيث لا يعلم أحد حقيقة ما حدث له ، وعلى أى وضع كان مصرعه فقد انتهى أمر « عثمان » ولا مجال إطلاقا للاستماع إلى ما يُردَّد من اتهامات لـ « على » تصدر عن « معاوية » أو « عمرو » يـكمن من خلفها الشر .

ويبدو من المعانى التى أوردها الشاعر « عياض » أنه كان مدركاً لدقائق الموقف ، وردود أفعاله المتوقَّعة ـ لما أُوتى من بصيرة نافذة قدَّمها فى قالَب نُصْح خالص للوالى .

غير أن حقيقة ما يدور فى نفوس الولاة لا يدرى به أحد سواهم ـ كما أن تـكييفهم للأمور يختلف عن تـكييف غيرهم من العامة لها ، فهم على حرف من السلطة باعتبارهم وُلاة ـ فمهما استمعوا إلى عديد من الآراء مهما تعدَّدَتْ وتباينتْ فلن يتبيَّنوا الصواب فى غير آرائهم الخاصة التى ربما تـكون قد انقدحتْ فى أذهانهم فور وقوع الحدث ، واتخذوا لأنفسهم موقفاً منها ، ويَعِزُّ عليهم الأخذ برأى غيرهم ـ ولـكن الولاة جرى دأبهم على الاستماع لما للآخرين من آراء لعل أن يكون من بينها الجديد الثاقب يستمعون إليها فقط دون أن يُعيروها التفاتاً قصد التنفيس لا التنفيذ ، وهيهات أن تتم استجابتهم لصائب رأى إذا كانوا قد أضمروا غيره ، فالحـكم ربما يعميهم عن البَصَر بالصواب ، ويُزيِّن لهم سلامة ما يصنعون إلا مَنْ عصَمَ الله .

وفيما يتعلق بالوالى « شرحبيل » فإنه كان لا يدرى أحد بحقيقة الموقف لو لم ينضم إلى الوالى « معاوية » ويناصره ضد الخليفة « على » من بعد أن خادعه ، فلربما كانت المواجهة الحربية قد استحالتْ على « معاوية » على الرغم من الدهاء والتدبير وأُشاعة الاتهام الباطل ضد الخليفة ، ولـكن انضمام جهد وجند الوالى إلى الوالى كان الدافع إلى المناجزة ، والتى لم تثبت جدواها دون إعمال الحيلة والدهاء فيما بعد بإلباس النزاع حُلّةً دينية فى الاتهام وحتى فى القتال ! !

أمّا ما استقر فى ذِهْن « شرحبيل » ودفعه إلى الإجابة بالمسير إلى « معاوية » فما أظنه غير الحرص من المسئولين على أن يكونوا دائما فى الصورة وموضع الاهتمام بهم ، ولربما دفعته الشهامة العربية إلى أن يُسارع الوالى إلى عون الوالى إذا ما كان هناك ما يدعوه إلى العَوْن ، فـكان أن سَقَط فى حبائل خداع الوالى الدّاعى المنازِع دون أن يَدْرِى .

وكانتْ الحصافة السياسية تقضى بغير ما صنع « شرحبيل » خاصة من بعد أن ألقَى له الشاعر «عياض الثمالى» الأضواء على جوانب الموقف. فلم يدع له عُذراً فى أن ينحاز إلى أحد غير الخليفة « على » وما كان يسعه غير الاستجابة لما نَصَح به الشاعر « عياض » حيث أظهرتْ الأحداث وصدّقت فيما بعد أنه كان قد بذل مَحْض النُّصح، وعيْن الصواب له فيما يبذل من رأى .

المصانعة السياسية

الموقف السياسي : يَقْدُم « شرحبيل » على « معاوية » فيقابَل بكل إعظام ويدخل على « معاوية » فيرحِّب به ثم يوجِّه إليه الحديث قائلا :

معاوية : يا « شرحبيل » إن « جرير بن عبد الله » يدعونا إلى بيعة « علىّ » وعلىٌّ خَيْرُ الناس ـ لولا أنه قتل « عثمان بن عفان » وقد حبَسْتُ نفسى عليك ، وإنما أنا رجلٌ مِنْ أهل الشام ـ أرضَى مارضُوا ، وأكره ماكَرِهوا .

ويأبى « شرحبيل » أن يأخذ الكلام على علاَّته ، فيصرّ على الاستيثاق بنفسه من حقيقة ماعُرِض عليه من اتهام شنيع لـ «على» بقتل الخليفة « عثمان » ـ وذلك باستطلاع رأى الناس ، والتدقيق فيه حتى يدرك جلية الأمر فى هذا الاتهام فيقول :

شرحبيل : أَخْرُجُ فأنظُر !!

التعليق :

أسلوب المصانعة يبدو فيما يلى :

(أ) المبادرة مِنْ« معاوية»إلى الاعتراف بتصدُّر «علىٍّ» وأولويته فى حق الخلافة لمايتمتع به من خَيْرِيَّة علىسائر الناس ـ حتى لا يظهر نفسه فى صورة المنكر لفضل وتقدم ثابت للإمام هو موضع الإجماع من الجميع ولا يُنكِر أحد أهليته له ـ ولما كان « معاوية » فى موقف الحريص على الاستمالة والكسب لـ «شرحبيل» لذا ـ نراه قد آثر التقديم للمعنى الذى ينفى عنه شائبة الإنكار والمعاداة لـ «على» كراهة أن ينَفِرمنه «شرحبيل»

بإذا ما اشتم منه رائحة إنكار الفضل والتقدم للإمام فى ذلك .

وطوى المعنى فى صورة أسلوبية تقطع بقصر الخير على « على » وتركزه فيه ـ ثقة منه أن هذا المسلك هو الذى يُرضى « شرحبيل » وهو بهذا يستميله إلى جانبه بإظهار توافقه مع ما يعتقده ـ تمهيداً لتصيده بإيقاعه فيما أُعِدَّ له من شِراك وأحابيل .

(ب) وعلى الإثر لايلبث « معاوية » أن يَطْعن « عليا » طعنة تذهب بكل ما قطع له به من فضل وتقدم وخير باتهامه بقتل « عثمان » الأمر الكفيل بمحو ما له من تصدُّر وتقدم وخير .

فالتهمة تجريم المتهم ، والجريمة قتل ، بكل ما فيها من شناعة ، والقتل للخليفة رأس الدولة الإسلامية ، والخليفة القتيل « عثمان بن عفان » بكل ما له من وَزْن : كخليفة فهو « عثمان » ذو النورين ، وهو صاحب جيش العسرة وهو صاحب التجارة المفرقة دون احتكار أو كسب تفضيلا المثوبة والأجر الموعود بهما عند الله ، والمتهم بقتل كل هذا الإمام « على » صاحب الوزن والفضل الذى لا يمارَى فيه ، ولا ينفسه عليه أحد دفاعاً عن الإسلام/إذن — فقد حقَّ لـ « شرحبيل » أن يقول: أَخْرجُ فأنظر

(ج) قد أظهر « معاوية » أنه يقف متلبثا فى انتظار الرأى الفَيْصل فى أمر تلك الأحداث الخطيرة يتلقاه من « شرحبيل » ويتصرف على هَدْيه ، وأنه لن يبرم أمراً قبل أن يستطلع جلية الأمر عنده لما لرأيه عنده من أهمية عظمى يُظهرها له ـ وآراء الآخرين ليستْ تعدله !!

لذا – ألزم نفسه عدم التصرف قبل أن يُبدى « شرحبيل » وجهة نظره الحاسمة ؛ فأكد مَنْعَ نفسه تماماً من أى تصرف حتى يوجهه « شرحبيل » (حبستُ نفسى عليك)

وأسلوب المصانعة فى هذا التعبير بيِّنٌ جَلِىٌّ، فقد سبق أن تم إحكام التدبير من أجل نهج سلوك معيَّن ضد الإمام، وتَمَّتْ فيه الاستعانة بدهاء « عمرو » ومشورته — كما تمت التوطئة والتوطين للرجال الموالين الذين أُعِدُّوا لـ « شرحبيل » يرددون التهمة على مسامعه أينما ذهب وحيثما حلّ. ولم يَدْرِ خلفيتَها « شرحبيل » وليس من حصافة « معاوية » أن يُطْلِعه عليها مُسَبقاً.

(د) والمصانعة سياسة لـ « شرحبيل » دَفَعَتْ « معاوية » إلى أن يظهر أنه لايعدو أن يكون فرداً عاديا من رجالات أهل الشام، وقصر نفسه على ذلك فحسب[1]، ولم يحاول أن يَظْهَر أمامه كوالٍ وحاكم يقف على قدم المساواة مع « شرحبيل ».

وإظهار الضعف مصانعة تفعل فعلها فى الاستمالة له أكثر حيث خلع وشاح أى تفوق عليه، وارتدى ثوب الفَرْد العادى فى الرِّضى والكُرْه. حيث جعل « شرحبيل » هو المحكَّم فى انتهاج أحد الطريقين – يميل به من الضد إلى الضد، و « معاوية » بهذا يكون قد جعل من الرأى الجماعى لأهل الشام وعلى الرأس منهم « شرحبيل » الفيصل فى الأحداث.

---

(١) لاحظ اسلوب القصر ما انا إلا رجل ...

تَقْدِمة للجميع ومصانعة لهم بإحلال رأيهم المحل الأول ، وارتضى لنفسه أيضا من هذا القبيل أن يكون إلى الخلف من « شرحبيل » انتظاراً لسيرته يتابعه فيها كتابع أمين ، وائتمارا بما يشير به يُنفذه بكل إخلاص وصدق .

وتدخل المصانعة والتمويه على « شرحبيل » الذى ربما اقتنع بأنه المقرر لمصير الشام بأهلها وولاتها ، وما يلتقى بجماعة إلا كانوا من الموطئين يفجأونه بالتهمة والاتهام فى عبارة مرسومة مرصودة تُلُقِّىَ إليه فى صورة خبر إعلامى متواتر يبعث على التصديق لنحواه لكثرة ترداد الألسن له صادراً عن عديد من الشخصيات فى مختلف الأماكن والمسالك (« علىٌّ » قتل « عثمان ») حتى بلغ حدّ الاقتناع بثبوت التهمة ، فما يملك إلا أن يرجع إلى « معاوية » قائلا له بعد طواف الاستبصار المموَّه عليه :

شرحبيل : يا « معاوية » أَبَى الناسُ إلا أن « عليا » قتل « عثمان » . والله لئنْ بايعتَ له لنخرجنَّكَ من الشام أو لنقتلنَّك .

معاوية : ما كنتُ لأخالف عليكم، وما أنا إلاَّ رجل من أهل الشام .

شرحبيل : فرُدَّ هذا الرجل[١] إلى صاحبه إذاً .

وما كان « معاوية » يطمع فى أكثر من أن يُفلِتَ من المبايعة لـ « على » التى آلى عليه « شرحبيل » ألاَّ يفعلها .

---

(١) رسول الإمام « على » المطالب بالبيعة له « جرير »

إذن ـ لقد نال « معاوية » عين ما يهدف إليه بالنفوذ إلى قلب « شرحبيل » تطويعاً له بالسير وفق ما يهوى وإن كان يخيل إليه أنه صاحب الإرادة في التسيير لنفسه ، وتم له التوحيد لأهل الشام جميعاً من خلفه تأييداً له فيما ينتويه ـ وإن كان يبدو أن الجميع من خلف « شرحبيل » ـ و « معاوية » الفرد العادي المؤتمر بأمره ، وتأكد له وقوف « شرحبيل » بزعامته اليمانية في الشام إلى جانبه في الحرب لأهل العراق وتصدره لها إذا ما استحكمت الظروف ودعت إلى الاحتراب .

لقد أحمى قلبه بالتمويه عليه بتهمة جنَّد لها من ثبتها في نفسه ، وأدخل عليه أنه صاحب الكلمة الأولى في تحديد مصير الشام وأهله ، فلم يعد من مجال لـ « شرحبيل » أمام دهاء السياسة وأسلوبها في المصانعة سوى أن يصحح نظره في حرب العراق بزعامة « على » !!

وبهذا الأسلوب السياسي لم يتمكن « معاوية » من مجرد التحييد للوالي « شرحبيل » واليمانية المؤتمرة بأمره وقسيمه في الولاية على الشام فقط وإنما تمكن من التجنيد له وضم تلك القوى إلى صفه ، وتطويعها من أجل تحقيق غرضه ، واستطاع أن يوقف الشام وأهله وولاته في وجه الخليفة « على » الناهض بمسئوليته في محاولة ممارسة سلطاته ، ومباشرة مهامه في سائر بقاع أرض الخلافة .

المواجهة بين « جرير » و « شرحبيل »

مساءلة وتنفيذ : ويعتزم « شرحبيل » مباشرة مهامَّه كرجل الشام الأول كما أُدخِل عليه ، فيبعث فى طلب « جرير » رسول الخلافة الإمام عن طريق « حصين بن نمير » .[1] ويلتقى به عنده ، فيبدأ « شرحبيل » الكلام قائلا :

شرحبيل : يا « جرير » أتيتَنا بأمرٍ مُلَفَّفٍ لتلقينا فى لهوات الأسد ، وأردتَ أن تخلط الشام بالعراق ، وأطريتَ « عليا » وهو قاتل « عثمان » والله سائلك عما قلتَ يوم القيامة !!

جرير : يا « شرحبيل » أما قولُكَ : إنى جئتُ بأمر ملفف ـ فكيف يكون أمراً ملففا وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار ؟ وقوتل على رَدِّهِ « طلحة » و « الزبير » .

وأما قولُكَ : إنى ألقيتك فى لهوات الأسد ففى لهواتها أَلقيتَ نفسَك .

وأما خلط العراق بالشام فخلطهما على حق خير من فرقتهما على باطل .

وأما قولك . إن « عليا » قتل « عثمان » فوالله مافى يديك من ذلك إلا القَذْف بالغيب من مكان بعيد ، ولكنك مِلْتَ إلى الدنيا ، وشىء كان فى نفسك على زَمَن « سعد بن أبى وقاص »

---

(١) أرسل اليه « حصين » أن زرنا فإن عندنا « شرحبيل بن السمط » .

المســاءلة

والمساءلة من « شرحبيل » طابعها التهجم ، وتدور حول إعلام « جرير » بأن ما يدعو إليه من طلب البيعة لـ « على » ليس غير أمر ملفق مردود ، ويتحامل عليه زاعما أن تلفيقاته هذه سينجم عنها الإيقاع بأهل الشام فى مجزرة حربية يشنها عليهم « على » يكون فيها الضياع لهم ، ثم ينكر عليه السعى إلى ضم الشام إلى العراق[1] ، ويتبع هذا النعى على « جرير » أن يطرى فى حديثه « عليا » وهو القاتل لـ « عثمان » (طبقا لما زعم له) ويختم قمة التهجم فى تساؤلاته بإدخال (الله) جلت قدرته حكما عليه فى تلك الأمور التى سيسائله عنها يوم القيامة .

وهذا إمعان فى التخويف لـ « جرير » عله يراجع نفسه بصدد ما أتى به من أمر طلب المبايعة .

التفنيــد

وكان لابد لـ « جرير » من أن يفند تلك التساؤلات ليصحح موقفه، فإذا به يتناولها واحدة واحدة يفندها بطريقة تذهب أثر المطاعن التى أوردت عليها .

فتراه وقد استشهد على صحة الأمر الذى أتى به (طلب البيعة) بأنه

---

(١) ويبدو أن ولاة الشام كانوا من ذوى الميول الاستقلالية الذين يميلون إلى الانفصال عن جسد الدولة الأم .

قد أجمع على صحته كل من المهاجرين والأنصار ـ أصحاب الحلّ والعَقْد الذين لا يُنْتقَض لهم رأى أجمعوا عليه فى المجتمع الإسلامى .

وبهذا ـ أسقط زعم (التلفيق) وفند ادعاءه الجرّ لهم إلى مقتله بأن « جريرا » لم يصنع بهم ذلك ولا يريده ، وإنما هم صنعوا ذلك بأنفسهم بردهم البيعة لخلافة صحيحة ، وفند ادعاء الخلط للشام بالعراق ـ بإثبات انفساح نظره وامتداده عبر الأقاليم الإسلامية بالتجمع والضم لما على الحق والصواب الكفيلان بتحقيق الخير لسائر الأصقاع الإسلامية ـ وقد جرى الأمر على الاجتماع لا التفرقة والتجزئة لأطراف الأمة ، ثم أسقط دعواه فى الاتهام لـ « على » بالقاتل لـ « عثمان » ـ بأن هذه التهمة لا تعدو غير أن تكون قَذْفاً دون تثبت ولا دليل يشهد على صحة الرمى بها ـ وما دام لم يشهد الواقعة فلا يجوز له أن يعترف بما لا يعرف !!

و « جرير » بهذا يكون قد فنَّدَ وأسقط سائر التهجمات بأجوبة فيها الإقناع لمن يريد أن يقتنع حيث لم يبق لديه أى شك يدعوه إلى المعارضة .

وعندما رأى « جرير » أنه قد كسب الجولة فى نفى التلفيق والاتهام والخلط السيء تابع ذلك الهجوم على « شرحبيل » ناعياً عليه السبب الذى دعاه إلى المعارضة لبيعة الإمام مُرْجِعاً ذلك إلى عوامل نفسية تدفع به إلى الحب للدنيا الذى لن يعجزه عن التلمس للأعذار التى تميل به إليها هذا ـ إلى العُقَد النفسية التى استقرتْ فى نفسه نتيجة لأشياء داخلتها

منذ زمن بعيد كان على أيام « سعد بن أبى وقاص » تستثير نفسه الآن وتحول بينه وبين متابعة ما هو حق وصواب .

وينقضُّ الموقف عند هذا الحدِّ بين الرجلين — غير أن التصميم من « جرير » على التصحيح لموقف الوالى « شرحبيل » ليعدل عما يساوره من شكوك أدخلتْ عليه قلقاً يتعلق بسلامة موقف الإمام وصحة خلافته دفعه إلى أن يُلاحق « شرحبيل » وللوقف فى سخونته أدعى إلى اللين والتعديل ، فما كان من « جرير » إلى أن بعث إلى « شرحبيل » برسالة شعرية غِبَّ انصرافه عنه وفيها يقول :[٢]

«شرحبيلُ» يا ابنَ السِّمْط لا تتبع الهوَى
فما لَكَ فى الدُّنيا مِنَ الدِّين مِنْ بَدَل

« شرحبيلُ » إنَّ الحق قد جَدَّ جِدُّه
وإنكَ مأمونُ الأديم مِنَ النَّغَل

فأَرْوِدْ ولا تفــرط بشىءٍ نخَافه
عليكَ ، ولا تَعْجَل فلا خَيْرَ فى العجَل

ولا تَكُ كالمجْـرَى إلى شَرِّ غاية
فقد خُرِقَ السِّرْبال ، واستنوقَ الجمل

وقال (ابنُ هِنْد) : فى « علىٍّ » عَضِيهَةً
ولله فى صدر (ابنِ أبى طالبٍ) أجَل

---

(١) وقعة صفين ص ٤٨

وما لـ « علىّ » فى « ابنِ عفان » سَقْطة
بأمْرٍ ، ولا جَلْبٍ عليه ، ولا قَتْل
وما كان إلاّ لازِماً قَعْرَ بيتِه
إلى أنْ أتَى « عثمان » فى بيتِهِ الأجَل
فمَنْ قال قولاً غيرَ هذا فحسبُه
مِنَ الزُّورِ والبهْتانِ قول الذى احْتَمَل
وَصِىُّ رسولِ الله مِنْ دون أهْله
وفارِسُه الأَوْلَى به يُضْرَبُ المثَل

البيان الأدبى :

القصيدة فى النصْح ، وتتركز فيها المعانى التالية :

(ا) النهى لـ « شرحبيل » عن الموالاة لـ « معاوية » لأن فيها بَيْعاً لدينه بالدُّنيا ، واتبّاعاً معيباً للهوى .

(ب) المطالبة لـ « شرحبيل » بأن يصحح لـ « معاوية » موازينه الفكرية فقد بات من الجلى أنّ تَعلُّقه بمحاولاتِ الهدم لخلافة « على » وإمالتها نحوه أمل يجب أن ينقطع تعلقه به ، ووقوف « معاوية » هذا الموقف يلغى كلّ حرمة له ، ومسئولية « شرحبيل » عن التصحيح لفكر « معاوية أمانة قد عُلِّقَتْ فى عنقه .

وكأنى به يعنى أن يتحمل والى الشام « شرحبيل » مسئوليته فى جزء منها بالتصحيح لفكر زميله « معاوية » الوالى الآخر بدلا من أن يتعاضدا على مقاومة الخليفة الشرعى فى محاولة مباشرة

سلطانه وبسطها على سائر أرجاء أرض الخلافة ، ومقاومة أفكار التجزئة والتقطيع لأوصال الدولة الأم بمحاولات الانفصام والانفصال المضعفة المميتة .

(ح) التحذير لـ « شرحبيل » من تدافع الحوادث غير المحتكمة القياد خشية أن تجرّ إلى أوخم العواقب — خاصة أنه قد آن للحق أن ينتصر ، ومثل « شرحبيل » لا يُرجَى منه أن ينتصر إلا للحق ابراءته من دخائل النفس وسخائمها .

(د) التهديد لـ « شرحبيل » من سوء عواقب التعجّل والإفراط في المالأة لـ (معاوية) حيث لاخير في التعجل في ذلك — لما فيه من معارضة للحق، وتوهين للأمة — وقدسيق التهديد في معرض النصح علّه يستجيب لداعي التريث وعدم الاندفاع في تيار الانحراف الخطر ـ خشية أن ينساق دون أن يدري في تيار الاندفاع فتجرُّه الأحداث في تداعيها إلى شرّ غاية قبل أن يتمكن من كبح جماحها فتُلقِي به إلى الهاوية .

(ه) الحكم على الادعاء بأن (علياً) قتل (عثمان) ماهو إلا محض كذب ، (وابن أبي طالب) أعظم من أن يرتكب تلك الحماقة لأنه يرعى الله، وهو بريء من ذلك براءة تامة ـ حيث لم يباشر قتله، ولم يحرّض عليه ، ولم تكن له يد فيه — وقد راعى الشاعر في نفي اتصال « على » بتهمة القتل لـ « عثمان » سلوك أسلوب التدرج في النفي من الأدنى إلى الأعلى فبدأ بنفي مجرد ارتكاب

السَّقْطة فى أمر يتعلق بـ « عثمان » ثم ينفى الجَلْب التآمرى للمالىء عليه ، ثم دَقَّ فى النفى إلى نفى القتل عينه .

وبهذه الدقة فى نفى تفاصيل المشاركة من الإمام فى قتل الخليفة « عثمان » على أى وجه من الوجوه كان يمكن حدوثه — يكون الشاعر قد أبرأ « عليا » من تهمة القتل براءة تامة بقوله :

وما لـ « على » فى « ابن عفان » سقطة

بأمر ، ولا جلب عليه ، ولا قتل

وقد بنى الشاعر أمر البراءة لـ « على » على الحيثيات التى ضَمَّنَها أبياته التالية حيث بيَّنَ :

أن « عليا » كان ملازماً لِمَقَرّ داره لايبرحه حِفاظاً على نفسه أن يُرْمَىَ برشاش الفتنة ، وظل على ذلك إلى أن وافى « عثمانَ » أجله .

وبناء على هذا أصبح التحدث فى حق « على » بغير البراءة لايعدو إلا أن يكون بهتاناً وزوراً لا يَحْتَمِل وزره غير القائل به — فـ « على » هو الوصىُّ الوحيد للنبى عليه السلام من بين أهل بيته ، وهو الفارس الذى تُضْرَب الأمثال بشجاعته دفاعاً عن الإسلام .

ويستحيل على صاحب تلك المنزلة المثلى أن يتورط بأى صورة من الصور فى أمر تلك الفتنة .

توالى النصح لـ « شرحبيل »

الموقف السياسى : ويتلقى « شرحبيل » قصيدة « جرير بن عبد الله » رسول الإمام التى ينصح له فيها بعدم تعجل الأمور كراهة أن تكتسحه أحداثها دون أن يتبين حقيقة ماتنطوى عليه ، فذعر وأخذ يُعمل فكره فيما سمعه من « جرير » .

فـ « على » برىء من دم عثمان و « على » الحق إلى جانبه و « على » وصى النبى عليه السلام ، وفارس أمة الإسلام ، ومقولة « معاوية » محض اختلاق لم يقم عليه دليل ، و « شرحبيل » يحسب أنه فى موقف التغرير به من قِبَل « معاوية » وهو المسئول عن التصحيح لفكر الوالى « معاوية » وإن لم يقتنع بالصحة فلا أقلَّ من أن تَسْلَمَ لـ « شرحبيل » شخصيته من أن تُخْدَع أو يُغَرر بها فى سوق السياسة .

ويستفيق « شرحبيل » لنفسه إثْر يقظة مشاعره التى تأثَّرتْ بالنصح الذى سيق إليها فى قالب وجدانى اهتزت له أوتار قلبه كعربى تهتز نفسه للشعر — فما كان منه إلا أن قال :

« هذه نصيحة لى فى دينى ودنياى — ولا والله لا أُعَجِّلُ فى هذا الأمر بشىء وفى نفسى منه حاجة » (١) .

يقظة نفسية دفع إليها الأسلوب الشاعرى يحاول فيها « شرحبيل » أن يطلب البراءة لنفسه مما يتهددها دينا ودُنيا — ولكن هل كانت هذه

---

(١) وقعة صفين ص ٤٩

اليقظة كفيلة بدفع « شرحبيل » إلى سلوك نهج السلامة بالاستجابة لما نصحه به «جرير» ؟

إن الأحداث التالية قد أثبتت أن التآمر المحْكَمَ المعدّ لجذب « شرحبيل » إلى جانب « معاوية » ليقف الشام كله فى وجه العراق إن قُضِى للحرب أن تنشب بينهما كان أقوى من أى يقظة وأى نصح !

لقد نشطت جماعة التلفيق والتلفيق للتهمة للعمل من بعد أن أدرك « معاوية» أن الأمر يوشك أن يُفْلِت من يده،ويستجيب «شرحبيل» لنصح « جرير » فأخذوا يتقاطرون عليه دخولا وخروجاً وهم يعظمون من أمر القتل اغتيالاً للخليفة « عثمان » ويرمُون « علياً » بارتكاب هذا الجُرْم ، ويقيمون عليه الشهادة بذلك باطلا[1] ، ويبرزون له كُتُباً تقطع بذلك .

ويتعاظم الزَّيف على « شرحبيل » فيضعف عن مقاومة الأكاذيب التى أُجيد إِدخالها عليه نخالها صِدْقاً ، فانقلب رأيه إلى حميَّة عارمة لمقتل الخليفة « عثمان » وشُحِذَتْ عزيمتُه تعصباً ضد الخليفة الإمام المفترى عليه .

ويبلغ ذلك قومه حيث ولايته (حمص) فى شمال الشام فيعزُّ عليهم أن يتركوه دون عنف فى النصح وقد غُشِّيَتْ عليه الأمور بفضل الدهاء السياسى لـ « معاوية » فينهض من بينهم « البارق»[2] وقد هاله أن يرى

---

(١) راجع النص آنفا

(٢) ابن أخت « شرحبيل » وكان ناسكا متعبدا وكان ممن بايع « علياً » ولحق به من أهل الشام .

[خاله] وقد أشرف على الوقوع ضحية الخداع والتزييف الذى يموّه به عليه فأنشد ناصحاً (خاله) ناعياً عليه سوء تصرفه فقال : (١)

لعمر « أبى الأشقى » — ابن هند » لقد رمَى

« شرحبيل » بالسّهم الذى هو قاتلهُ

ولفّفَ قوما يَسحبون ذيولهم جميعاً ، وأوْلى الناسِ بالذّنْبِ فاعلهُ

فألفَى يمانياً ضعيفاً نُخاعُــه إلى كل مايهوَون تَحدَى رواحِلهُ

فَطَاطَا لها لمّا رَمَوْه بثقلها ولا يُرْزَق التقوى مِنَ الله خَاذِلهُ

ليأكل دُنيا لـ« ابن هند» بدينه ألا و« ابن هند» قبلَ ذلك آكِلهُ

وقالوا « علىٌّ » فى « ابن عفان » خُدْعَةً ودَبَّتْ إليه بالشّنان (٢) غوائلهُ

ولا والذى أرْسَى ثَبيراً مكانه لقد كفَّ عنه كفّــه ووسائلهُ

وما كان إلاَّ مِنْ صِحاب « محمد» وكلهم تَغْــلى عليـــه مَراجلهُ

البيان الأدبى :

العنف فى النصح نراه قد انصب على ما يلى :

(أ) التأكيد على أن والى الشام قد أوقع والى حمص فى أحابيله التى لن ينجو منها ، وبهذا يكون قد قضَى على المستقبل السياسى والدينى له ، وأسقط دُرّة اليمنيين الممثلة فى شخص حاكم فى (حمص).

(ب) استخدم فى التلفيف والتلفيق عليه القوم من ساحبى الذيول ومن ذوى الثقة عند « شرحبيل » (٣) مما جعل نفسه تضعف وتميل إلى التأثر بما يقولون .

---

(١) وقعة صفين ص ٤٩

(٢) لشنان بفتح الشين البغض — وهو لغة فى الشنآن .

(٣) راجع اللقاء الأول بين « معاوية » و « شرحبيل »

= ثبير = اسم جبل

(جـ) التعريض بضعف «شرحبيل» حفز لحميته ليثور من أجل كرامته ، ويقف فى وجه صنيع «معاوية» وما يدبره من سياسة ، ولا يضعف أمام حيله وتدبيره ، ويزيده تقريعاً بنعته أنه ماضعف واستجاب لهم إلا حباً فى الدنيا (ليأكل دنيا) ينال منها على قدر التفريط فى دينه ، ولكن الدهاء السياسى لـ «معاوية» سيحرمه مما يؤمل — فسيُقضَى عليه قبل أن يهنأ بما نال .

(د) التقوّل على «على» ليس غير خُدعة دفعتْ إليها البغضاء ، فما كان «علىّ» غير مصاحب لـ «محمد» على الوفاء والحب والإخلاص والفداء مما أثار مراجل الحقد عليه .

ويتصل أمر هذه القصيدة بـ «شرحبيل» فتنفعل بها نفسه وتثور ، وبدلا من أن تستفيق من الغشاوة التى حَوَمتْها الاهتداء إلى حقيقة الأمر ترى التلفيق والتلفيق وقد تمكّن من نفسه فحرمه بصيص نور الحق فاندفع بكليته سائراً فى الطريق الذى رُسم له دون أن يدرى وهو يعتقد أنه عين الصواب .

ولربما كان التعبير له بأنه اليمانى الضعيف المسُوق إلى حيث يراد له خضوعا منه لضغوط تعرَّض لها ، وبأنه الطامع فى الدنيا جاء ينشدها عند «معاوية» قد دفعاه إلى أن يسد أذنيه دون النصح الوافد عليه من قِبل قومه[1] وذوى رَحِمِهِ .

---

(١) راجع نصح قوم «شرحبيل» له قبل وفوده على «معاوية» .

ولربما كان الغمز له فى شخصيته بالضعف ، وفى دينه بالرِّقة نتيجة لحب الدنيا كانا المُسبِّبين لانقطاع التردد عند «شرحبيل» بل والاندفاع فى خط « معاوية » ليُثبِت قوة شخصيته السياسية كوالٍ يُحكِم الحسم للأمور — فتراه لا يرعى حُرْمةً لصلة الرَّحِم بينه وبين « البارق » ابن أخته ، وبدلاً من أن ينصاع لنصحه إذا به يتهمه بأنه : رسول الشيطان ، ويهدده بتسييره إلى « معاوية » لينتقم منه — باعتباره المخرِّب عليه سياسته ، وما يهدُف من ورائها .

ولا يجد « البارقى » من وسيلة يضمن بها الأمْن على نفسه وقد تهدده خاله الوالى سوى أن يغادر الشام بأسره ويَلحق بـ « على » فى الكوفة — وما جدوى النصح حتى ولو صيغ من درر القول فى قالب شعرى إذا كانت النفس قد مالتْ إلى الدنيا كما قال الشاعر مما أعماها عن البصَر بالحق ؟! .

إذن — قد أصبحتْ فى موعد مع التهتك وعدم المداراة ، وانفتح الطريق أمام الخُدعة لتنفذَ إلى نهايتها مُظلَّلة بأطياف تكسوها بأثواب الدِّين لتنطلى على أهل الشام — وقد هُيِّء لها رجلها الذى أُعِدَّ له دَوْره لينهض به كاملاً من بعد أن صح اقتناعه بما لُقِّن له ، ولُقِّف عليه ، وأصبح والى حمص يمثل مخلب القط فى الدور السياسى الذى لعبه لحساب والى الشام فى محيط دهائه وجَدْله السياسىّ .

مسيرة التأليب ضد الخليفة «علي»

الموقف السياسي : وما يلبث «معاوية» وقد أدرك أن زميله الوالي «شرحبيل» قد أصبح مُهَيَّئا لإنفاذ دوره من بعد ما كان بينه وبين ابن أخته حتى يأمره بالسير في مدن الشام منادياً بأن «عليا» قتل «عثمان» فكتب إليه قائلا :(١)

«إنه كان من إجابتك الحق ، وما وقع فيه أجرك على الله ، وقبله عنك صُلَحاء الناس ما علمت ، وإن هذا الأمر الذي قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة ، فسر في مدائن الشام ، وناد فيهم بأن «عليا» قتل «عثمان» وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه»

التعليق :

واللافت للنظر في الرسالة هو أسلوب الإقناع المفحم على الرغم من إقامته على أساس غير صحيح .

حيث بدأ بإقناعه أنه قد بلغ مرحلة من السير في طريق الحق الذي أوجب له الأجر ورضى به الصلحاء من مواطني الشام — ومادام الأمر كذلك فلا يسوغ لك التوقف أو الرجوع عن السير ، وهذا تضييق للخناق على السامع حيث لم يعد له مهرب من إتمام المسيرة إلى نهايتها من بعد أن بدأ تورطه فيما شارك فيه — إذن فلا رجعة

ثم يسوقه سوقاً إلى المناداة في الشام بأن «عليا» قتل «عثمان» ليصل من وراء ذلك إلى الإقناع الجماعي لأهل الشام بصحة التهمة ،

(١) وقعة صفين ص ٥٠

و « معاوية » يبغى من ذلك التكتيل لأهل الشام وراء دعوى المطالبة بدم « عثمان » .

وهكذا تصبح الرسالة إقناعاً فى إقناع من بدئها وحتى نهايتها .

وكل هذا يتم و « معاوية » مُشْتَكِن فى دائرة الظلام يدبّر ، ويترك أتباعه يظهرون مفادين بما يريد فى وضح النهار — من بعد أن يكون قد صح له الانتقاء للأتباع من ذوى التأثير فى جماهير العامة لفرط ثقتهم بهم . و « معاوية » فى هذا كوالٍ على بعض الشام يكون قد تمكن من الكسب لوالى (حمص) الشام وضمه إلى صفه طبقا لطريقة إقناع أدخلها عليه ، ثم استخدمه بعد ذلك فى التهويج لأهل الشام جميعا بترويج دعوى قتل « على » لـ « عثمان » .

إنها دنيا السياسية يَجُدُّ لها دُهاتها وهى ما تزال مجرد مشاريع يتفتق عنها الفكر ، ويتولى قيادة التنفيذ لها داهية محنك ، ويستخدم الصنائع والأتباع يرسم لكل دوره فى مقابل الوعد بقطعة من الدنيا تناسب الدور الموكول إليه تنفيذه - وربما لا يناله شىء مما وُعِدَ به ، فالسياسة تجفو الأخلاق .

وكان من الطبيعى أن يبدأ « شرحبيل » التنفيذ بمباشرة دعوى التأليب ضد « على » بين قومه وأهل ولايته وثقته من أهل الشام فى (حمص) فسار إليها ، وما أن بلغهم حتى وقف فيهم خطيبا فقال:[1]

« يا أيها الناس — إنّ « عليا » قتل « عثمان بن عفان » .

---

(١) وقعة صفين ص ٥٠

وقد غضِب له قوم فَقَتَلهم[1] ، وهزَم الجميع ، وغلَب على الأرض، فلم يبق إلا الشام — وهو واضعٌ سيفه على عاتقه ، ثم خائضٌ به غِمار الموت حتى يأتيكم أو يُحْدِث الله أمراً ، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من « معاوية » فجِدُّوا وانْهَضُوا »

التعليق :

(أ) الخطبة تمثِّل إشارة البدء بالحشد والتكتيل لأهل الشام ليستعدوا للقاء « على » المنتصر فى معركة (الجمل) والمتحفِّز للانقضاض عليهم فى الشام .

(ب) التصدير للخطبة بإلصاق تهمة القتل لـ «عثمان» بالإمام، وإيرادها فى صورة الحكم المقطوع بثبوته[2] مع الاستغلال للعاطفة الدينية لإلهاب مشاعرهم وحَفْزهم على الحشد والتكتيل — ولا أشدَّ من العاطفة الدينية جَذْبا للقلوب وحَفْزا للهمم .

(ج) إظهار « على » فى صورة المتعطِّش للدماء دون رِى ؛ حيث (قتل « عثمان ») ومن غضِب من أجله (قتلهم) أيضاً — وفى هذا التنبيه لأهل الشام أن خطر القتل يتهددهم مثل سابقيهم فـ« على » الآن (وسيفه على عاتقه) وليس لهم من عاصم منه سوى التهيؤ للقائه .

---

(١) إشارة إلى من قتل فى وقعة الجمل .

(٢) الجملة اسمية أكدت بإن وجاءت بعد التمهيد لها بالنداء التنبيهى بأيها الناس مما يفجأهم بحكم ثابت آكد مقرر مما يعين على تقريره فى نفوسهم

(د) التحذير من خطورة « على » فهو الذى (غلب على الأرض) ولم يبق أمامه سواكم ، وهو لن يتوان عن خوض (غمار الموت) إلى أن يصل إليكم فان يفلتكم ، والرجل منتصر وأنتم قلة بالنسبة لمجموع الأرض التى احتازها — وفى هذا استثارة لروح التضامن بين الأقاليم لتقاوم طغيان الكثرة الزاحفة التى صُوِّرَتْ لهم ، وبَنَى على هذا الدعوة إلى النهوض لقتاله حيث لم يبق سواه عاصماً من الخطر الماحق وصوَّر القتال أنه قضاء الله المنقذ الوحيد، وأتى به فى المقابل للحق مضمنا إياه قوله : (أو يحدث الله أمرا)

(هـ) أوضحتْ الخطبة صورة التوزيع للأدوار على أشخاص القائمين بأمر التدبير ضد « على »

فـ « معاوية » قد برز فى صورة البطل الحامى المنشود للخلاص من خطر « على » حيث لا نجد أحداً أقوى على قتاله من « معاوية » وارتضى « شرحبيل » لنفسه أن يكون الداعية له — وعلى الرغم من أن « معاوية » و « شرحبيل » كلاهما واليان على أقاليم شامية غير أن كلا منهما قد اختار لنفسه دورا يتلاءم وثقله السياسى طبقا لقدرته وكفاءته .

فـ « معاوية » (داهية البلاد)[1] وصاحب الوزن الثقيل بين القبائل العربية ، وابن الحامى تجارة العرب إلى الشام ، وأعرف الناس بالشام وأهلها منذ أمد بعيد ، وأطول الناس ولاية عليها امتدت زمان

(١) راجع فى هذا الوصف قصيدة ابن أخت « عمرو بن العاص » الموجهة منه إلى خاله .

حكم خليفتين (عمر وعثمان) وقد بدأ التنادى به بَطَلاً حاميا للشام بأسره. وارتضى « شرحبيل » لنفسه دور الداعية ومخلب القط فى مخطط كان فيه المخدوع المُلَفّف عليه[1] .

وكان لابد لدعوى التهييج العاطفى للجماهير من أن تنجح فتلهب مشاعرهم فيستجيبوا لها دون إدراك لحقيقة الأمر فيها فالجماهير لاعقل لها !!!

صوت المعارضة

الموقف السياسى : غير أن الصلحاء من أهل (حمص) لم تطغ عليهم موجة الحماس العارمة فتفقدهم صوابهم ، فقاموا إلى شرحبيل يعارضونه ، ويقاومون مسلكه مقاومة يمكن أن يقال فيها إنها سلبية غير أنها كفيلة بإشعاره أنهم غير راضين ، ولن يشركوه فيما يفعل حيث قالوا له :

« بيوتُنا قبورُنا ومساجدنا — وأنت أعلم بما ترى[2] »

إذن لقد أعلنته المعارضة بإشارة ذكية أنّ ما يأتيه « شرحبيل » هو فتنة لا يمكن مقاومتها ، فلا أقل من أن يعتزلوها ويلزموا مساكنهم[3] ثم يتركوه فيما وراء ذلك يتحمل المسئولية وحده كوالٍ .

---

(١) راجع قصيدة (البارق) الموجهة إلى خاله (شرحبيل) .

(٢) وقعة صفين ص ٥٩

(٣) أخذاً بحديث النبى عليه السلام عما يسلك أثناء الفتن من قوله : والزم بيتك ولو أن تعض بأصل شجرة »

ولم يقف صوت المعارضة عند هذا الحد، وإنما نجده يسلك طريقاً آخر غير طريق المقاومة السلبية مِنَ الذين فضلوا العزلة ؛ فنرى « النجاشي الحارثي [١] » يرفع صوته بالنصح للوالي « شرحبيل » وتحذيره مغبة الاشتراك في أمر لايدرى حقيقته فبعث إليه يقول :

«شرحبيلُ» ما للدِّين فارقْتَ أمْرَنا	ولـكنْ لبُغْضِ المالكى «جَرير»
وشحناء دبَّتْ بين «سَعْدٍ» وبينَه	فأصْبَحت كالحادى بغير بَعِير
وما أنتَ إذْ كانتْ «بجيلة» عاتَبَتْ	قُرَيْشاً فيا لله بعـد نصير
تفضّل أمْراً غِبْتَ عنه بِشُبْهةٍ	وقد حارَ فيها عقل كلِّ بَصير
بقول رجالٌ لم يكونوا أئمةً	ولا للتى لقّوكَها بحضور
وما قول قوم غائبين تقاذفوا	مِنَ الغيب ما دَلّاهمُ بغرور
وتترك أنَّ الناسَ أعْطَوْا عهودَهم	« عليا » على أنس به وسرور
إذا قيل هاتوا واحدا تقتدونه [٢]	نظيراً له لم يُفصِحوا بنظير
لعلك أنْ تشْقَى الغداةَ بِحَرْبه	« شرحبيل » ما ما جئته بصغير

البيان الأدبي :

القصيدة من نصح الصديق للصديق ، وفحواها ينطوى على ما يلى :

(أ) النعى على « شرحبيل » صنيعه الدعائى ضد الخليفة « على » بأنه يقوم بدعوى للتفرقة ولشقّ عصا الجماعة ومن أجل الخروج على الحق ، وهذا أمر ليس من الدين في شيء ، وربما كان دافعه

(١) واسمه « قيس بن عمرو بن مالك » وكان صديقا لـ « شرحبيل »

(٢) ضمن الفعل معنى تتبعونه ـ لهذا عدى الفعل بغير الباء

البغض لشخص « جرير » رسول الخليفة « على » نتيجة لشحناء كانت بين (بجيلة وبين قريش) .

(ب) الدعوة لـ « شرحبيل » أن يراجع نفسه — فلا ينبغى أن يكون فيْصلاً فى أمر لم يشهده بنفسه اعتماداً على مجرد شبهة ثارتْ ضد الإمام ، أو ارتكازا على قول مَنْ لا يُعتدُّ بهم من غير الرؤوس فى القوم (لم يكونوا أئمة) ولا متابعة عشوائية لتهمة تلقاها من لم يحضروا واقعة الاتهام — مما يقطع بأن الجميع قد قذفوا الإمام رَجْماً بالغيب .

(جـ) النصح لـ « شرحبيل » ألا يَتَنَاسى ولا يفارق البيعة الآكدة للخليفة « على » التى تمتْ له عن اختيار ورضى ومحبة فقد عاهده الجميع (على أنس به وسرور) ولا يوجد من بعده قيادة وريادة للأمة — وهذا تعريض بـ « معاوية » وبـ « شرحبيل » لوقوفه إلى جانب الضعف المفضول .

(د) التأكيد للصديق أنه قد ارتكب جُرْماً فظيعاً باتخاذه موقفه هذا — ولربما جرَّ على نفسه الشقاء بدخوله حربا ضد الخليفة « على »

وفى هذا تعريض بموقف الخسران تجاه « معاوية » مما يمكن اعتباره نصحا من طرف خفى للصديق أن يتدارك نفسه قبل فوات الأوان وضياع الفرصة ؛ فالمشاركة فى مقاومة الخليفة الناهض بمسئولياته اعتمادا على مجرد شبهة قامتْ ضده لم يثبتها أى دليل — أمر أقل مايقال فيه إنه حدَث خطير لا تُؤمن مغبَّته (« شرحبيل » ما ما جئته بصغير)

مواجهة بين «جرير» و «شرحبيل»

الموقف والبيان : ويدخل « شرحبيل » على « معاوية » مطالباً إياه بالنهوض بواجبه فى المطالبة بثأر « عثمان » وعنده « جرير » من بعد أن قام « شرحبيل » بنشر التهمة المدّعاة بين الحمصيين من أهل الشام — فقال[1] :

« شرحبيل » لـ «معاوية» — أنتَ عامل أمير المؤمنين وابن عمه[2] ، ونحن المؤمنون ؛ فإن كنتَ تجاهد « عليا » وقتلة «عثمان» حتى ندرك بثأرنا أو تَفنَى أرواحنا استعملناك علينا ، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك ممن نريد ، ثم جاهدنا معه حتى ندرك بدم «عثمان» أو نهلك .

جرير (متدخلا) يا « شرحبيل » مَهْلاً فإن الله قد حقن الدماء ، ولَمَّ الشَّعث ، وجمع أمر الأمة ، ودنا من هذه الأمة سكون ، فإياك أن تُفسد بين الناس ، وأَمْسِك عن هذا القول قول لا تستطيع رده .

شرحبيل — لا والله — لا أُسِرُّه أبداً .

ويخرج « شرحبيل» فيتكلم فى الناس مجاهراً بأمر التهمة فلا يملكون وقد أُجِّجَتْ مشاعرهم إلا أن يقولوا : صدق صدق — القول ما قال والرأى ما رأى .

---

(١) وقعة صفين ص ٥١

(٢) يعنى «عثمانا »

وهنا – ينتثم « جرير » وقد سمع ، ورأى ما رأى أن لا أمل في نجاحه في مهمته لدى « معاوية » وعامة أهل الشام .

التعليق :

ربما كان الموقف الحوارى بين « معاوية » و « شرحبيل » بحضر « جرير » قد أُعِدّ قبلا كأحد الخيوط المجدولة خفية كيدا للخليفة « على » غير أن الحوار قد أبان عما يلى :

(أ) إظهار « معاوية » في صورة الولى الشرعى وصاحب الحق في المطالبة بدم « عثمان » (ابن عمه) وإيضاح أن القتال المتوقع شنه على الخليفة « على » ماهو إلا جهاد مشروع أخذا بالقصاص من قتلة الخليفة المغتال « عثمان »

وبناء على ذلك يكون التشدد الصادر من الوالى « شرحبيل » والموجه إلى نظيره « معاوية » والتهديد له بالعزل ما هو إلا حث له ودعوة إلى اتخاذ الخطوات التنفيذية لحرب الخليفة « على » ويكون « شرحبيل » قد أظهر نفسه في صورة الصوت المعبر عن رأى الأمة ونسى أو تناسى أن هناك الخليفة « على »

(ب) بيان اكتمال وحدة الشام في وجه الخليفة « على » من بعد أن وضع والى (حمص) نفسه ضمن عداد (المؤمنين) بحق « معاوية » في ولايته حق المطالبة الشرعية بدم (ابن عمه) وفي هذا إعلام المبعوث « جرير » بالجبهة التى تكونت في مواجهة « على » وأنها تضم الشام بأسره ولاة ومحكومين .

وما كان لـ « معاوية » أن يتحدث وقد برز اسمه على صدر الأحداث فقد تولى المدخول الأمر عليهم ، وجماعة المساندين له مهمة التجسيد للموقف بدلا منه ، وصح له أن يصمت انتظارا للتعرف على رد الفعل عند مبعوث « على » وقد ألقيت أمامه قنبلة (المطالبة بدم « عثمان ») وحُصِرتْ ولاية المطالبة بدمه فى « معاوية » .

ويجيب « جرير » على النقاش الحوارى الذى طرح بحضوره فيبين أن الأمة قد تهيأت لسكون وهدوء يؤمل لها أن يدوما بعد الاقتتال والاحتراب إثر المخالفة للإمام المبايَع له « على » والتحذير لـ « شرحبيل » وغيره من محاولة إثارة الصراع الداخلى المدمر للأمة من بعد أن حُقِنَتْ الدماء ، وانتهى التمزق ، وقاربها الاستقرار السياسى إثر معركة (الجمل) .

هذا إلى جانب النصح العام بصرف النظر عن الأكذوبة المدّعاة على « على » بأنه قتل « عثمانا » وإلا فدون التعجل فى ذلك مجابهة أمور قد لا يكون فى الإمكان التصدى لمضارها .

عود إلى المفاوضة

وعرض جديد

الموقف السياسى : يبدو أن « معاوية » حتى هذا الحين لم يكن واثقا من نجاح دعوى التهييج ضد « على » وقد بوشر التنفيذ لها : لتأخذ طريقها فى الانتشار بين أهل الشام بزعامة « شرحبيل » ومازال

« جرير » رسول الخليفة « على » موجودا فى الشام يحاور كلا من « معاوية » و« شرحبيل » عساه أن يتوصَّل إلى حسم الأمر لصالح الخليفة بإقناع « معاوية » ومناصريه بصرف النظر عن الدعوى المفتراة على « على » وإجابته بالمبايعة والمتابعة .

و « معاوية » فى كل هذا يلزم جانب الصمت الظاهرى اكتفاء بأنه ولى الدم ، وصاحب الحق المشروع فى المطالبة بالقصاص ممن قتله كما اعتبر نفسه ، وليس له من قاتل سوى الإمام « على » طبقا للتدبير الخفى الذى ألبس على الناس وأُشيع بين أهل الشام باعتباره حقيقة آكدة .

وتطول إقامة « جرير » فى الشام يتابع الأحداث ، ويداعبه الأمل فى أنه ربما يتوصل إلى الإقناع فتحقن دماء الأمة فتنعم باستقرار سياسى يتيح لها الفرصة فى أن تصرف همها إلى الإصلاح الداخلى وربما الفتح الخارجى بدلا من ضياع قوى الأمة وزهرة شبابها فى الصراع والتقاسم والحرب .

ونظراً لما بدا من صلابة موقف المبعوث « جرير » دون أن يتمكن « معاوية » من احتيازه إلى جانبه ، ودون أن يستطيع « جرير » إقناع « معاوية » ومناصريه ونظراً إلى طول فترة الترقب والانتظار دون حسم للموقف إلى جانب أحد — إذا بـ « معاوية » يعمد إلى سلوك أسلوب المفاوضة مع المساومة — فيسعى إلى حيث يقيم « جرير » ويدخل معه فى نقاش حوارى تفاوضى جديد بغية الوصول إلى اتفاق سياسى يحسم الأمر ويفض النزاع .

معاوية : يا « جرير » إنى قد رأيتُ رأياً

جرير : هاتِه .

معاوية : اكتب إلى صاحبك يجعل لى (الشام ومصر) جباية ؛ فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحدٍ بيعة فى عنقى، وأسلّم له هذا الأمر، وأكتب إليه بالخلافة .

جرير : اكتبْ بما أردتَ ، وأكتبُ معك :

التعليق:

ويكشف الحوار الذى معنا عن :

(أ) أن التّهمة المفتراة والتلويح بدم « عثمان » لم يكونا غير عملية ضغط سياسى يحاول « معاوية » أن يفهد منه قوة سياسية تعينه فى مجال التفاوض مع « على » إذا ماقدّر للمفاوضات أن تنهى النزاع بينهما .

(ب) اتضاح موقف « معاوية » بأنه يريد : أن يحتفظ لنفسه بالولاية على الشام ويضم إليها مصر (جباية) مع إعفائه من أن تلزمه البيعة لمن يلى الأمر بعد « على » .

وفى المقابل لهذين الشرطين يقدم « معاوية » للخليفة « على » اعترافا صريحا ببيعته ، والتسليم بخلافته دون نزاع .

إذن — لقد تكشف الأمر عن صراع سياسى يبغى فيه « معاوية » أن تكون له الولاية على بعض أصقاع تخيّرها من أطراف الدولة يليها فى حياة « على » دون أن يلزم نفسه البيعة لمن يليه ليتيح لنفسه الفرصة للتفاوض من جديد مع الخليفة الجديد .

وقد اتخذ « معاوية » من التلويح بدم « عثمان » مبررا سياسيا

يمكّنه من المداورة فى المفاوضات الدائرة بينه وبين « على » والتى يتم فيها الصراع بين سلطة الخليفة فى الدولة وحقه فى بسط نفوذه على سائر بقاعها ، وخلوص حقه فى الولاء والطاعة له من قِبَل جميع الولاة دون استثناء ، وسقوط حقهم فى الاشتراط عليه ، أو تعليق خلافته أو توقيفها على شرط — أى شرط مادامت البيعة العامة قد تمّتْ له .

إنه الصراع السياسى يقف فيه الحق فى مواجهة الدهاء ، وتُستخدَم فيه سائر أسلحته من احتيال واجتذاب وملاينة وتدبير ومداخلة وإسرار ضد أسلحة الحق من الوضوح والشجاعة والصدق والصراحة .

إنها سياسة الدهاء تتطاحن مع سياسة الحق ، والتقاء الصراع بين الخطوط المنحنية الملتوية بكل مافيها من تجاويف وتضاعيف تسوخ فيها أقدام التصلب فى الحق وبين الخط المستقيم بكل مافيه من حدة واستقامة وصلابة بحيث يستحيل عليه أن يُرى فى وضع الميل والانحناء أو الطراوة والليونة والمرونة مادامت الرّيادة للحق ولاشىء سواه غير الثبات عليه والصلابة فيه .

وشتان بين كلمة وكلمة : كلمة الحق مِلؤها الصراحة والوضوح تخرج بيضاء نقية صافية هدفها الخير ، وأخرى تنفَث صفراء حائلة — لما ماوراءها من سواد التدبير وسوء الطوايا والنوايا .

ومازال المجال حتى الآن تفاوضيا بين المتنازعين — يدور الصراع فيه حول قرْع الكلمة بالكلمة ، وحكّ الرأى بالرأى ، ورَمْى الفكر بالفكر .

وكلاهما ينشد من وراء ذلك محاولة الوصول إلى حد الإقناع للآخر. أو الاهتداء إلى فجوة تفتقصها خلال تعبير عارض ربما تتيح له النفوذ منها حيث يبلغ من ورائها مأملاً إذا ماقدّر للمفاوضات السياسية أن تستمر وتنجح وتنهي النزاع ، ولم تكن هناك ضرورة إلى تحكيم السيف بينهما .

وأطراف التفاوض فى النزاع كلهم عرب — يجيدون الانتقاء ، وحسن الاستخدام للكلمة المعبّرة ، واقتداح الفكر النيّر ، وصواب التسديد المعنى ، ودقة التوجيه للرأى — وكل هذا يدور فى معركة مفاوضات ساخنة يكثر فيها التلاطم والشدّ والجذب ، ومن ورائها تعلو أصداء قعقعة السلاح .

توجيه من الخليفة

الموقف السياسى : ويكتب الوالى « معاوية » إلى الخليفة « على » مشترطا كما سلف أن يكون له حكم(الشام ومصر)فى مقابل الاعتراف بخلافته ، ويتسلم « جرير » الرسالة ويبعث بها إلى الخليفة « على »

ونستطيع أن نتنبأ مسبقاً بأن الرفض من الإمام للمساومة والشروط المعروضة عليه هو الرد الوحيد على تلك الرسالة فما كان للخليفة الإمام « على » صاحب الخط السياسى الواضح الصريح فى التزام الحق والاستمساك به أن يقبل اشتراطاً أو تنازلا معينا فى مقابل اعتراف والٍ بخلافته . لأن الخليفة « عليا » هو صاحب البيعة العامة الملزّمة لجميع الأمة بما فيهم الولاء — حقاً طبيعياً ثابتا له دون القبول لأى مساومة أو مماحكة أو اشتراط »

والإمام « على » فى خُلُقه لا يرتضى لنفسه إلا امتلاك حقه كاملا دون انتقاص وذلك :

(أ) لشجاعته التى تحول بينه وبين القبول بأى أسلوب لا يعطيه الحرية الكاملة فى إطلاق يده فى الحكم .

(ب) ولمنهج الإمام الواضح إزاء مجابهة أى موقف فى حياته كما عهدناه عنه يعتمد شق الصخرة فى سبيل بلوغ غرضه ولا يتخذ المرونة طريقا بالدوران حولها[١] .

لما جُبِل عليه من التزام الاستقامة كخلق وطبع فى جميع شئونه مما يدعوه لأخذ حقه كاملا أو الموت دونه سواء كان ذلك فى تصرف شخصى أو فى بيئة عامة تمتُّ له .

ومثل الخليفة « على » فى شجاعته لا يرهبه خروج والٍ ولا تمرُّد رعية إقليم عليه — فسيف الحق عنده دائما على عاتقه مسلول مُشْرَع ، والجرأة تملأ قلبه ، ولقد سبق له السحق لمن حاول الخروج عليه بعد أن بايع له[٢] ولا يُعقل ولا يُقبل منه وحاله هذا أن يتراخى أو يلاين أو يداخله أدنى قدر من الخوف أو الفزع فى مثل موقفه مع الوالى «معاوية» ومن شايعه من رعية أهل الشام .

---

(١) الأمر الذى جعل الخليفة « عمر » يصرف الخلافة عنه إلى « عثمان » بعد أن طُعِن . راجع عبقرية « عمر » للعقاد

(٢) أصحاب معركة الجمل وأشهرهم طلحة والزبير ومن تابعهما .

وهكذا — نرى الخليفة الإمام يسارع بالكتابة إلى مبعوثه « جرير » قائلا : (١)

« أما بعد — فإنما أراد « معاوية » ألَّا يكون لى فى عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب ، وأراد أن يريثّك حتى يذوق أهـــل (الشام) . وإن « المغيرة بن شعبة » كان قد أشار علىّ أن أستعمل « معاوية » على (الشام) وأنا بالمدينة فأبيْتُ ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلّين عضدا » .

فإنْ بايعكَ الرجل — وإلا فأقْبِل

التعليق

يبدو من رسالة الخليفة « على » أنه قد صح عنده الإدراك لما يلى :

(أ) أن الوالى « معاوية » يرفض البيعة له بادىء ذى بَدء .

(ب) أنه يشترط لنفسه ولاية بعينها حددها طبقا لرغائبه ثمنا للاعتراف بخلافته إن أظهر الخليفة مرونة فى هذا الأمر .

(حـ) أنه يجرى الآن تبطيئاً للمبعوث المفاوض « جرير » ريثما تتاح له الفرصة ويطمئن إلى كسب تأييد أهل الشام إلى صفّه .

إذن — فالوالى « معاوية » مصمم على أن تكون له الولاية على بقاع بعينها من الدولة الإسلامية ينالها عن أحد طريقين :

---

(١) معركة صفين ص ٥٢ .

إما الطريق السلمى الناتج عن مفاوضات سخية مَرِنة تحقق له هذا الهدف، وإما بطريق الغلَبة والقوة بالوقوف فى وجه قُوى الخليفة الزاحفة وهو يستعد من الآن لاحتمال مسئولية الفرض الأسوأ — وهو القتال إن أبى الخليفة «على» الاستجابة للعرض المطروح عليه من الوالى «معاوية».

وكيف يتأتى للخليفة صاحب الخط الواضح فى الاستمساك بالحق مهما تكن النتائج أن يقبل بمثل تلك الشروط ؟!

وكيف يتأتى لوالٍ مهما يكن وزنه السياسى أن يشترط على الخليفة المبايع له اشتراطات بعينها ليبايعه ؟

والولاة ليسوا غير عمَّال لدى الخليفة ، وليس فى إمكانهم سوى المبايعة أو الاعتزال ، وهم عرضة للعزل أيضاً من قبل الخليفة فى أى وقت إن صح عنده أن أحدا منهم قد خرج عن حدود مهمته كوال يُعهَد إليه بخدمة المسلمين فى أى صقع من أصقاع الدولة الإسلامية طبقا للأسلوب الذى جرى النهج عليه منذ التأسيس لها فى عهد النبوة وسار الأمر عليه فى (الخلافة الراشدة) التالية له حتى آل إلى الخليفة « على » .

وبناء على هذه الاعتبارات ، وطبقا لمضمون الرسالة فقد وضح أن الفروض المعروضة على الخليفة أمور لا يطيق عليها الإمام صبْراً ، وخطه السياسى الواضح يرفضها رفضا تاما جملة وتفصيلا ، ولا يقبل الخليفة « على » فى الحق الثابت له القبول بالبعض دون البعض ، كما أنه لن يقبل ملاينة أو مصانعة أو سلوك نهج المرونة فى أمر خلافة تمت له فيها البيعة العامة . خاصة أنه قد رفض الأخذ بمبدأ المصانعة السياسة ، وربما

تستقر الأحوال وهو لم يزل فى المدينة وما كان فى يده على اليقين من الدولة غير الجزيرة ، والأمور على أشدها اضطرابا - فكيف وهو الآن على مشارف الشام وقد دانتْ له الدولة من أقصاها إلى أقصاها ولم يعد يستعصى عليه غير الشام ببعض أجزائها ؟!

ويبدو من هذا أن الخليفة « عليا » كان يدرك ما كان يعتمل فى نفس « معاوية » ويَنْتويه .

لذا — نلمح العنف والتشدد والحسم فى ختام رسالته الموجهة إلى مبعوثه المفاوض حيث يطلب منه المسارعة بالعودة إن لم يسرع « معاوية » إلى المبايعة .

ومادام الأمر كما ورد (مساومة على الاعتراف بالبيعة) إذن فلم يعد يُرجى من بقاء المبعوث المفاوض فى الشام كبير أمل فى إحراز أية نتائج مفيدة متوقعة .

والرسالة بهذا الاعتبار تكون قد أنهت فترة الترقب والانتظار للأمل فى المبايعة المرجوة من بعد أن اتضحت نوايا الوالى « معاوية » كما أوضحت النهج السياسى للخليفة « على » فى رفضه الأخذ بمبدأ المصانعة فى أسلوب الحكم .

ردود فعل البيعة المشروطة

الموقف السياسى : أحدثت الرسالة التى بعث بها الوالى « معاوية » إلى الخليفة الإمام عن طريق مبعوثه المفاوض « جرير » والتى يرفض فيها

الاعتراف ببيعة الخليفة « على » ما لم يجعل له الولاية على الشام ومصر وعلى أن يحلّه من إلزامه البيعة لمن يلى الأمر بعده .

أحدثت هذه الرسالة التى تضمنت البيعة المشروطة ردود فعل شديدة ودويا عظيما بعد أن فشا أمرها بين العرب وعلم بها الجميع ، فقد أثارت عديدا من الشاعر وعلى الأخص بين المناصرين للوالى « معاوية » فنرى « الوليد بن عقبة[1] » يسارع بإرسال القصيدة التالية إليه والتى فيها يقول :

« معاوى » إنّ الشام شامُك فاعتصِمْ   بشامك لا تُدخِل عليك الأفاعيا
وحامِ عليها بالقنابل[2] والقَنَا   ولاتكُ محشوش الذراعين[3] وَانيا

---

(١) مروانى ولاه « عثمان » الكوفة بدلا من « سعد بن أبى وقاص » فقال لـ « سعد » وهو يسلمه أمر التولية « لا تجزعن أبا إسحاق فإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون » فقال « سعد » : أراكم ستجعلونها ملكا، وفى عام ٣٠ هـ عزل « عثمان » الوليد وكان من بعد أن صلّى الصبح بالناس أربعاً ، وشهدوا عليه بشرب الخمر فأمر « عثمان » بجلده فأحضر ونزع عنه « على » حلته وجلده « سعيد بن العاص وروى اليعقوبى أن الجلاد له « على » مما يجعل هذا الحادث سبباً بارزاً لتحامله ضد الإمام ـ هذا بالإضافة إلى فكره الخاص الذى اعتبر خلافة « عثمان » هى الملك لبنى مروان
البداية والنهاية لابن الأثير جـ٧ ص ١٥٥
تاريخ الطبرى /٤ /٢٧٤   تاريخ اليعقوبى / ٢/ ١٦٠

(٢) جموع الناس

(٣) أشلهما .

وإنَّ « علياً » ناظرٌ ما تُجيبُـه فأهْدِ له حَرْباً تُشيبُ النَّواصِيا
وإلا فسلِّمْ إنَّ فى السِّلْمِ راحـةً لمن لا يريدُ الحربَ، فاخْتَرْ « معاويا »
وإنَّ كتاباً يا «ابن حرب» كتَبْتَه على طمَعٍ يُزْجِى إليكَ الدَّواهيا
سألتَ « عليا » فيه ما لن تَنَالَه ولو نِلْتَـه لم يَبْـقَ إلاَّ لياليا
وسوف ترى منه الذى ليس بعده بقاءٌ فلا تُكثِر عليكَ الأَمانيـا
أمثلُ « علىٍّ » تعتريه بخُدْعـةٍ وقد كان ما جرَّبْتَ من قَبْلُ كافيا
ولو نَشِـبَتْ أظفـارُه فيـكَ مرَّةً حذاكَ[1] « ابنَ هندٍ » منه ما كنتَ حاذيا

البيان الادبى :

تدور أفـكار النص حول ما يلى :

(أ) الدعوة لـ « معاوية » إلى التمسك بالولاية على (الشام) والنهوض بحق الدفاع عن ذلك دون تهاون أو تقصير بشن حرب مهولة ضد « على » من بعد أن غدت الشام ملكا لـ « معاوية » (الشام شامك) بفعل طـول الولاية عليها وخبرته بحسن السياسـة لأهلها وتمكنه من نفوسهم .

(ب) اللوم لـ « معاوية » على رسالة الطمع التى بعث بها إلى « على » يسأله فيها الولاية على (الشام ومصر) وأنها كفيلة بسوق المصائب تترى عليه ولربما كان اللوم منصباً على التصريح والتكشيف لخفى النيات

---

(١) أعطاك وأذاقك ما كنت تريد إعطاءه وإذاقته له .

بطلب الولاية ، ولعل الشاعر « الوليد » كان يفضل لـ « معاوية » العمل الجاد للغرض المنوى دون التصريح به حتى لا يكشف أوراقه السياسية للآخرين (الولاية الدائمة على الشام)

فقد كان الشاعر مقتنعا بأن مثل هذا الطلب لا حق لمعاوية فيه — كما أن « عليا » لن يمنحه إياه إطلاقا ، وإذا حدث أن أناله إياه لفترة قصيرة ثم سريعا ما يسترده .

وهنا يبدو الشاعر وهو يوهى بعوامل الثقة فى نفس « معاوية » بـ « على » ويدفعه فى نفس الوقت إلى عدم الاستسلام للتحليق فى عالم أحلام اليقظة وسلوك النهج العملى بالحرب وعلل ذلك بأن « عليا » لا تنطلى عليه صور الخداع ، وهو صلب فى الحق ، وبناء على ذلك فلن تنال منه رغبتك التى ليست من الحق فى شىء إلا بحرب إن لم تبدأه بها بدأك بها هو ، وإذا ما أنشب أظفاره فيك فلن يفلتك .

وفى هذا من الدفع إلى المسارعة بحرب « على » ما فيه !!!

وما أرى الدعوة المخيِّرة لـ « معاوية » بين السلم والحرب (فى البيت الرابع) إلا إحساء له ليسارع إلى ركوب ظهر موجة الحرب لتعينها الوسيلة الوحيدة لاستخلاص حكم الشام من يدى الخليفة « على » والتحريض لـ « معاوية » على عدم الاطمئنان إلى « على » فهو المهلك له إذا ظفر به . إذن — فمن الأفضل أن يبدأه بالقتال .

وإذا كان « على » الآن فى موقف الترقب والانتظار حتى تحين له الفرصة للانقضاض فسارعْ أنتَ بمهادانه حربا تشيب النواصى ، فمثله لا يهادَى إلا بالحروب المهلكة !!!

ويتابع « الوليد بن عقبة » إلحاحه فى رسائله الشعرية إلى « معاوية » داعياً إياه إلى التهيؤ لاقتعاد دَسْت الحكم ، والولاية على الشـــام ، والاستعداد لحرب « على » الذى لن يرضى بذلك — فكتب يقول[1]

« معاوى » إنَّ المُلْكَ جُبَّ غاربه — وأنتَ بما فى كَفِّكَ اليومَ صاحبُه

أتاكَ كتابٌ من « علىٍّ » بخُطَّةٍ — هى الفَصْل فاخترْ سِلْمَه أو تُحاربه

ولاترجُ عنـــد الواترين مودَّةً — ولاتأمنِ اليومَ الذى أنتَ راهبُه[2]

فحارِبْه إن حاربْتَ حربَ ابن حُرَّةٍ — وإلا فسلِّمْ لاتَـــدِبُّ عقاربه[3]

فإنَّ « علياً » غير ساحبِ ذيله — على خُدْعةٍ[4] ماسوَّغ الماءَ شاربُه

ولاقابِـــل مالايريد وهــــذه — يقوم بهـا يوماً لديك نَوَادِبه[5]

ولاتدعنَّ الملكَ والأمر مُقْبِــلٌ — وتطلب ما أعْيَتْ عليكَ مَذَاهِبه[6]

فإن كنتَ تنوى أنْ تُجيبَ كتابَهُ — فقُبِّحَ مُمْلِيــهِ وقُبِّـــحَ كاتبُه

فألقِ إلى الحىِّ اليمانين كلمةً — تَنَال بهـا الأمرَ الذى أنتَ طالبه

يقول : أمير المؤمنين أصابه — عَدُوٌّ ، ومالاهم[7] عليه أقاربه

أفانينُ منهم قاتـلٌ ومحضض — بلا ترة كانتْ ، وآخر سالبـــه

(١) موقعة صفين ص ٥٣ ، ٥٤

(٢) تخشاه وتخافه .

(٣) لاتثر غضبه .

(٤) لن يقبل الخداع إطلاقاً .

(٥) تشهد بصواب قولى بها الأيام .

(٦) محاولة استخلاص حكم الشام من « على » سلما .

(٧) مالآهم بتسهيل الهمزة (عاونهم وساندهم) .

وكنتَ أميراً قبلُ بالشام فيكمُ فحسبي وإياكمْ من الحق وَاجبه
فجيئوا ومَنْ أرسَى [١] ثبيراً مكانه ندافع بحراً لاتُرَدُّ غواربه [٢]
فأقللْ وأكثر [٣] مالها اليوم صاحبٌ سواكَ فصرِّحْ لستَ ممن تُوارَبه [٤]

البيان الأدبى

تنحو القصيدة فى فكرها إلى الدفع لـ « معاوية » إلى سلوك الحرب لاستخلاص ملك الشام قسرا من يدى « على » فهو لا تجوز عليه إطلاقاً [٥] أساليب الخداع مهما أُحكمتْ ـ كما أن يقبل بما تطلبه منه من استمرار الولاية عليها إلا بنصر حربى يرغمه على القبول به .

ويتضح من النص أن « الوليد » مدرك تماما للعناصر المميزة لكل من شخصيتى الإمام ومعاوية .

فالخليفة الإمام رجل لايقبل التعامل بأسلوب الخداع ولا ينطلى عليه ذلك ، ولا يمكن إجباره على القبول بما لا يريد مما يعتقد أنه ليس بحق ولا بصواب ، و « معاوية » نظرا لقوته فى الدهاء يبيح لنفسه الأخذ بأسلوب التفاوض محاورة ومناورة ومداورة عله يحقق ما يسعى إليه سلْما إن أمكن عن طريق الملاينة والمرونة فى أسلوب التعامل السياسى .

---

(١) اسم جبل . (٢) أعالى أمواجه .

(٣) أى مهما أكثرت أو أقللت من حجج ومعاذير تبديها فالموقف الآن يظهر أن ليس للشام من أحد يليه ويتملكه سواك .

(٤) لاتكن من أهل المواربة فى المطالب وان كانت ملكاً .

(٥) لاحظ ما المصدرية الظرفية قبل الفعل الماضى (ما سوغ) عما يقطع بدوام عدم قبول الإمام لأساليب الخداع اطلاقا .

ومن هنا نلحظ الإلحاح على « معاوية » من « الوليد » أن يكون واضحا ويسلك أقرب الطرق الموصلة إلى غرضه مباشرة بالحرب، ويطرح أساوب الخداع والمناورة فى مفاوضات تسلك أسلوب المسالمة — لما يراه من عدم التوافق وانعدام جدوى ذلك للفوارق الواضحة بين النهجين المتنافرين اللذين يستحيل بينهما الوفاق ، فـ « على » فى سياسته صاحب أسلوب الحق الصُّراح والصلابة فى الاستمساك به ، و « معاوية » ينهج أسلوب الدهاء السياسى — والأسلوبان يستحيل عليهما إمكان التلاقى فى نقطة تجمع بينهما فضلاً عن التقارب أو الوفاق .

ومن هنا جاء الأمر الناصح من « الوليد » لـ « معاوية » (لحارب) وأن يعتبر المفاوضات التى تعتمد الخداع والدهاء أسلوبا عقيما لا ينبغى الأخذ به فى التعامل مع « على » لأنه يدرك حيل الخداع — إذن — فلن تكون لهذا الأسلوب أية فائدة، وما دام الأمر كذلك فمن الصواب الميل إلى اليمانيين وكسبهم إلى صفه بالعمد إلى خُدعة تجوز عليهم (كلمة تنال بها الأمر) حيث يمكن قبولهم لهذا الأسلوب، وحارب بهم «عليا» وثبِّتْ ملكَكَ على الشام ، وهذا أمر لا ينبغى إخفاؤه أو الدوران حوله بعد الآن ، بل يجب التصريح والجهر به من بعد أن لم يصبح للشام من صاحب سواك وبتملكك الشام يمكن أن تكون صاحب الملك لسائر بقاع الأمة العربية بأسرها — لرجوح كفتكَ بأهل الشام من بعد أن قد جُب غارب الملك وأصبح مُلْكاً متاحاً لصاحب القوة الأقوى دون نظر إلى جذور أو أصول أو مراعاة لأسس أو قواعد أو أحقية ! !

والمذهب السياسي عند « الوليد » يتمثل فى الدعوة إلى اغتنام الفرصة ما دامت ظروفها مواتية ، وبهذا ينصح « معاوية » فما دامت رياح الملك مقبلة فلا ينبغى إلا اهتبالها ، وليس بينه وبين التمكن منها إلا حرب تثبّت الملك على الشام ، وتعطيه الفرصة لمد أبعاده إلى سائر أركان الدولة ، وليس فى ذلك من خيار فـ « على » يعتطك الملك ولا يخدعه الخداع — فكن عمليا فى فكرك ، ولا تستجب لرؤى أحلام اليقظة تجرُّكَ إلى الضياع بسلوك أسلوب التفاوض غير المُجْدِى :

ولا تدعن الملك والأمر مقبل   وتطلب ماأعيت عليكَ مذاهبه !!

والفكر العملى عند « الوليد » يتمثل فى التوجه مباشرة إلى الغرض قَصْد نَيْله ، والحصول عليه من أقصر طريق ، وطرح أساليب التفاوض جانباً فهى لن تجدي مع « على » وربما صلُحتْ مع غيره — وما أقبحها من وسيلة يُعمَد فيها إلى الأخذ والرد (فقبح عليه وقبح كاتبه) إذن — فلا مناص لك من انتهاز الفرصة المواتية والتى ربما لا تواتيك ثانية إذا ما أفلتَتْ ! !

والخيارات المعروضة فى صدر القصيدة (لحاربه وإلا فسلم) .

ما أتى بها إلا ليفنِّدها ، وليظهر عدم جَدْواها مع « على » وليست معروضة لبيان إمكان الأخذ بها ؛ فالتصميم على الحرب هو الهدف تثبيتاً وامتداداً للملك المواتى ، وهو الحل الوحيد الذى يمكن التعامل به مع الواترين الذين وصفهم بذلك[1] ، إذن لحارب وليس لك فى الحرب من خيار .

(١) ويعنى بهم الإمام « على » ومن وقف إلى جانبه .

الوضع السياسي إثر مقتل «عثمان»

الموقف السياسي : طالتْ إقامة مبعوث الإمام المفاوض «جرير» لدى «معاوية» وتبادل الرسائل قائم، والأمل في نجاح المفاوضات بإقناع «معاوية» لم ينقطع، وصبر المبعوث المفاوض لم يَنْفد على الرغم من طول الانتظار لبارقة أمل تؤدي إلى انفراج الموقف، فظل على الترقب لوَمْض البادرة، ولم يهمل أساس مهمته كمبعوث ممثل للإمام يعمل لصالحه — فكان أنْ خرج يَتَنسّمَ الأخبار[1] ويتشممها على صعيد الرأي العام الحر المنطلق المعبِّر عن حقيقة ما يعتمل في ضمير الناس بعيدا عن المواقف الرسمية التي تحكمها الصنعة لتؤدي أهدافا مرسومة.

وبينما هو في تطوافه في المنطقة التي اختارها ميدانا له يستجلي من خلاله حقيقة الرأي العام إذا به — وقد أبْعد في تجواله — بغلام على قعود ينشد ما يلي[2] :

---

(١) ورد في النص «يتحسس الأخبار» ص ٥٤ وقعة صفين.

(٢) وقعة صفين ص ٥٤ — ٥٥

«حُكَيم»(١) و«عَمّار»(٢) الشجا، و«محمد»(٣)

و«أشتر»(٤) و«المكْشوح»(٥) جَرُّوا الدَّواهيا

وقد كان فيها «للزُّبير»(٦) عَجَاجة

وصاحبه الأدنى أشابَ النَّواصيا

فأما «علىٌّ» فاستغاثَ ببيته فلا آمِرٌ فيها، ولم يكُ ناهيا

وقلْ فى جميع الناسِ ما شئْتَ بعدَه

وإنْ قلتَ: أخطا الناس لم تكُ خاطِيا

وإنْ قلتَ عَمَّ القوم فيه بفتنةٍ فحَسْبُكَ منْ ذاكَ الذى كان كافيا

فقولا لأصحاب النبىّ «محمدٍ» وخُصَّا الرجالَ الأقربين المَواليا

أَيُقتَلُ «عثمان بن عفان» وسْطكم

على غير شىءٍ ليس إلاَّ تَعاديا

فلا نومَ حتى نستبيحَ حريمكم

ونَخضِب منْ أهل الشِّنانِ(٧) العَوَاليا(٨)

---

(١) حكيم بن جبلة بن حصن العبدى - كان من عمال «عثمان» على السند ثم البصرة.

(٢) عمار بن ياسر الصحابى (٣) محمد بن أبى بكر الصديق

(٤) مالك بن الحارث الأشتر الشاعر التابعى، وكان قد قدم مع أهل الكوفة (٥) المكشوح المرادى

(٦) الزبير بن العوام - وكان مقربا إلى الامام، وقتل هو وطلحة فى موقعة الجمل

(٧) لغة فى الشنآن بمعنى البغض (٨) الرماح

وبعد أن فرغ الغلام من إنشاده لم يملك المبعوث « جرير » إلا أنه حاور الغلام ليستطلع حقيقة صاحب الرأى المعبِّر فقال :

جرير : يا ابن أخى : مَنْ أنتَ ؟

الغلام : أنا غلام من قريش ، وأصلى من ثقيف .

أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شريق — قُتِل أبى مع « عثمان » يوم الدار .

وهنا يتملك العجب « جرير » لاتضاح صورة موقف الإمام وبراءته مما رُمِى به ، فما كان من المبعوث إلا أن سَجَّل الشعر وضمَّنه رسالة بعث بها إلى الإمام ليطلعه على حقيقة الموقف لدى الرأى العام بعيدا عن الرسميات فى الولاية الخارجة عليه — وقد كان صدى رد القصيدة المصوِّرة للرأى العام عند الإمام إثْر بلوغها إياه أن قال :

والله — ما أخطأَ الغلام شيئا .

البيان الأدبى :

ويلخص الفكر فى القصيدة الرأى العام فى ولاية الشام ، وموقفها من الأزمة الناشبة فى نقطتين أساسيتين :

أولاهما : إن الخليفة الإمام « على » أبرأ الناس من المشاركة فى أمر الفتنة وما أدَّتْ إليه — بحيث يمكن القول بأن الإمام هو الشخص الوحيد الذى كان أبعد الناس عن مقارفة أخطائها ـ وما وراء ذلك فقل فيه ما شئت بحق الجميع ممن عداه فى إمكان تخطئتهم ـ حيث لزم بيته ، ولم يتدخل فيها بأى وجه من الوجوه (فلا آمر فيها ولم يك ناهيا) علما بأنَّ الإمام كان مطمح الآمال العامة للناس فى تلك الأثناء بأنه يملك

بقدرة الحسم للأزمة وإيقاف نيرانها المتأججة الزاحفة لما له من عظيم المنزلة فى النفوس حيث لم يكن يوجد من الكبار سواه ، ولربما كان لموقف اعتزال الإمام للفتنة عظيم الخطر فى اضطراب أمور الأمة بعد أن تجرأت الجماهير الغاضبة على الخليفة ، وأعوزته القدرة على كبح جماحهم ، وغشيت الأمة الغواشى — ولكن كيف كان يمكن للإمام التدخل وليس بيده أية مسئولية ، أو حق يبيح له التدخل اللهم إلا نفوذه الشخصى وعظم منزلته فى النفوس ، ولم يستخدم أياً من ذلك فقد كان الأمر فتنة غشيت الجميع ، وأطاشت منهم صواب التصرف فلم يتخذوا أى إجراء يحاولون به إيقاف نيران الفتنة التى انتهت بقتل الخليفة « عثمان » ومن هنا كان النعى من الشاعر على الصحابة والمقربين (أيقتل « عثمان بن عفان » وسطكم) والاستهجان لهذا الموقف الذى أدى إلى قتل « عثمان » وهو بين أظهرهم .

وقد رتب على هذا الاعتبار القول بأنه لن يكون هناك تفريط فى القصاص لمقتله ، وأنه لن يتوقف عند حد القصاص فقط ؛ وإنما سيكون فيه إيغال إلى أبعد مدىً فقتالٌ تُستباح فيه الحرمات ويُقضَى فيه على الخصوم وإلا فلا نوم ولا راحة .

ثانيهما : القصيدة تُعتبر بمثابة الإعلان للحرب صادر من أهل الشام وموجه إلى من اتُّهموا بقتل « عثمان » بنية القصاص له من بعد أن أعذر الشاعر إلى وجهاء الأمة من كبار الصحابة الذين اتُّهموا بالتقصير باعتبار أن دم « عثمان » لا ينبغى التفريط فيه ، أو التسامح فى القصاص له .

إذن — لقد انعقد عزم الرأى العام على القصاص والانتقام إلى أقصى حد من بعد أن فقدت الأمة مسئولها الأولى وولى الأمر فيها الذى كان موكولا إليه هذا الحق يمارسه بنفسه حيث قد اغتيل هو نفسه ولم يبق بعد ذهاب الخليفة المغتال من يقوى على تحمل مسئولية الضرب على أيدى العابثين أو يخرس ألسنة المهيجين ، ويكف نهازى الفرص عن التمادى فى إيقاد نيران الفتنة عاتية خضوعا منهم لنيل مآرب خاصة أو منافع معينة ، أو دخلوا فى الفتنة ليمثلوا فيها مخالب القط لحساب غيرهم ، أو كانوا مجرد غوغاء جرفهم تيار الهياج العام من بعد أن أفلت زمام القيادة، وانعدم الضبط والربط وبدلاً من أن تطفأ نيران الفتنة وهى فى بدء شبوبها إذا بانعدام المسئولية بعد مصرع الخليفة «عثمان» يترك زمام الفتنة لموج الرياح تعصف بها فتعم الأمة الإسلامية بأسرها !!

تحديد مهمة المبعوث المفاوض

. الموقف السياسى : تطول مهمة المبعوث المفاوض « جرير » لدى والى الشام دون أن تتضح أية نتيجة المفاوضات التى طال أمدها دون اتضاح لنجاح أو لإخفاق ، وقد استدعى مكث المبعوث مطولا فى الشام الشك لدى العامة عند الإمام فى أنه ربما يكون قد وقع ضحية لإغراءات عرضت عليه هناك فى رحاب الشام ، فمال إليها وفارق مهمته ، وخدع موفده الخليفة الإمام .

وهكذا — دار الحديث على الألسن بين أتباع الإمام ، وعلا الحديث واستطار حتى بلغ الإمام فى صورة اتهام يدور حول المبعوث

للفاوض لم يَتَبَيَّنْ كُنْهه بعد ـ وأقل ما يمكن أن يوجه للمبعوث من اتهام هو مخالفته لأسس مهمته التي بُعِث من أجلها دون تحديد لنوع التهمة والتي تتراوح غالباً في مثل تلك الأحوال بين الإهمال والتقصير وبين الخضوع لعوامل الإغراء المعروض عليه من الطرف المفاوِض إن كان ثمت إغراء حيث تسوء التهمة صُعُدا في سلم الفساد فتصل إلى حد الخيانة .

ولما علا صوت الاتهام للمبعوث المفاوض عند الخليفة الإمام لم يجد بدا من الحسم في هذه المهمة التي لم تتضح لها نهاية على الرغم من طول الوقت الذي استغرقته .

وإلى هنا لم يجد الخليفة الإمام مفراً ، من أن يتبين حقيقة الموقف ، ويستجلي الأمر ـ فما كان منه إلا أن واجه مُتَّهَمه المبعوث المفاوض عنده بقوله : « وَقِّتْ لرسولي وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصيا » ثم عمد إلى تحرير الرسالة التالية لمبعوثه « جرير »[1] .

« أما بعد ـ فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل « معاوية » على الفَصْل وخُذْه بالأمر الحزم ، ثم خَيِّره بين حرب مجلية أو سِلْمٍ مُخظية ؛ فإن اختار الحرب فانبذ له ، وإن اختار السلم فخُذْ بيعَتَه » .

التعليق :

يبدو من أسلوب الرسالة أن الخليفة الإمام كان يستشعر أن الأمر بينه وبين والي الشام لن ينتهي إلا بحرب ـ وربما كان هذا إحساساً منه بأن هذا الوالي بعينه لا ترده إلى صوابه وتقنعه غير الحرب ، ولن يرتضي التسليم بحق الإمام في الخلافة ويبايعه عليها سِلْماً .

---

(١) وقعة صفين ص ٥٥

والإمام بشجاعته التي عُهِدَتْ عنه ، وبتاريخه الحربي المشرِّف مقتنع بأن الحرب أيسر وسيلة عنده يمكن أن يقنع بها معارضيه إذاما تعينت حلا أخيراً يلجأ إليه — وآخر الدواء الكيّ !!

لذا — نراه قد طرح في رسالته اختيار الحرب أولا (حرب مجلية) مقدماً إياها على السلم ، وأعطى مبعوثه تفويضا مسبّقا بحق إعلان الوالى « معاوية » بالحرب فَوْر اختياره لها على السلم — مما يكشف عن شجاعة الإمام شجاعة يمكن أن يقال فيها إنها ربما تكون قد تجاوزتْ حدّ الثقة بالنفس إلى حد افتراض توافر الاستعداد والقوة الدافعة له ثقةً بمن حوله ممن تابعه ، وقد كان في هذاالاعتبار ما كان فيه ما كشفتْ عنه الأحداث فيما بعد .

ومبادىء الإمام التي يعتنقها مَثلاً يستمسك بها تُمْلِي عليه الحرب الصريحة في ذاتها كحربٍ بكل مايمكن أن تنجلي عنه من مهالك !

فهو رجل الصراحة والوضوح حتى في الحرب التي تحصد الأرواح، وشجاعته تُباعد بينه وبين سلوك الأسلوب السياسي المعيب الذى حشوه المداراة والخداع والتضليل والمموّه بحلل المرونة والليونة والنعومة — اقتناعاً منه بسلامة موقفه ووضعه التشريعي كخليفة مبايَع له .

إذن — فهو غير حريص إلا على الحق الصُّراح ينالُه بالحرب الصريحة ولو تهددت حياته — وأمّا مالها من أهوال ومخاطر فلا اعتبار لها عنده! وأما السلم في مجال الاختيار المطروح فهو حظوة والإمام يقبل بأقسى الاختيارين .

وفي هذا مايدل على أن الإمام ربما كان يستشعر ما لوالى الشام

« معاوية » من مَرام/مطامح لن تحققها له غير الحرب ـ لكونها مطامح لن تقف عند حد إشعال نيرانها من أجل الاحتفاظ بحق الولاية على الشام فقط ، وإنما الأمر يعلو صُعُدا حتى يبلغ حد التطلع إلى الخلافة ذاتها.

وبناء على هذا يمكن تفنين وضع والى الشام إذا ما بايع رضي بأنه يكون قد وقف عند الحد الأدنى من مراده حيث الرضى بالعمالة على ولاية هابطا بقدره أمَداً بعيدا عن حد مقام الخلافة .

والإمام فى كل هذا صاحب الحق الشرعى الذى لن يرضى به إلا كاملا غير منقوص وإلا دون الانتقاص الاحتراب الصريح ـ كما أنه مستمسك بشهامة العربى التى لاتسمح له بأن يتسنَّم العلا إلا على أسِنَّة الرماح .

وما أن تبلغ الرسالة المبعوث حتى يتوجه بها قاصدا « معاوية » وعندما انتهى إليه أقرأه إياها ثم تبعها حوار بدأه المبعوث «جرير» قائلا :

جرير : يا « معاوية » إنه لايُطْبَع على قلبٍ إلا بذَنْبٍ ولا يُشْرَح صَدْر إلا بتوبة ـ ولا أظن قلبكَ إلا مطبوعا ـ أراكَ قد وقفتَ بين الحق والباطل كأنك تنتظر شيئا فى يَدَى غيرك .

معاوية : ألقاكَ بالفيْصل أول مجلسٍ إن شاء الله[1] .

البيان الأدبى :

الموقف الحوارىُّ بين المبعوث المفاوِض وبين والى الشام الذى تم إثر ورود رسالة الخليفة الإمام يقطع بسلامة موقف المبعوث ، وأنه

---

(١) وقعة صفين ص٥٦

مازال على ولائه للخليفة مهما طال تلبُّثه عند الوالى ، وما صدَّ ومنه التطويل للإقامة إلا قصد استيضاح موقف الوالى الذى لم يكن قد وضح حتى هذه اللحظة ، ولو كان قد استبان أن الموقف فى غير صالحه لما توانى عن قطع المفاوضات والالحاق بالإمام ، ولكن يظهر أن الأمل فى إقناع الوالى كان لايزال يراود المبعوث .

فقد واجه الوالى « معاوية » بأن قلبه قد استغلق دون التفتح لتقبل الحق (ولا أظن قلبك إلا مطبوعا) مما أطال مكثه أملاً فى محاولة التغلب على هذا الانغلاق ، وكان موقف الوالى حتى هذه اللحظة مُتَّصِفاً بالغموض وعدم الاتضاح إلى الحد الذى لايمكن الحكم عليه بيسر وسهولة مما إذا كان مواليا طائعا أو عاصياً مخالفاً وذلك لتأرجحه فى موقفه بين الحق والباطل مما دعا المبعوث لأن يؤكد له ذلك التأرجح الصريح (أراك قد وقفت بين الحق والباطل) .

هذا — والإقامة المطوَّلة للمبعوث فى الشام جعلته يدرك كثيرا من حقائق موقف الوالى ، وحقيقة الأوضاع الداخلية فى الولاية ويوافى بها الإمام[1] .

ويبدو أن رسالة الحسم الصادرة عن الخليفة والمخيِّرة للوالى بين الإذعان بالمبايعة وبين الحرب قد بلغته وهو لم يمسك بزمام الشام تماماً بعد . لذا نراه يلبِّث المبعوث إلى أول مجلس تالٍ ليوافيه بالفصل والفيصل فى الأمر ، ويدرك المبعوث « جريراً » أن رَدَّ التلبيث ماهو إلا حيلة

---

(١) راجع قضيدة الغلام الثقفى

لالتقاط الأنفاس ريثما يصله ما يمكن أن يثق به ويطمئن إليه وهو لم يصله حتى تلك الآونة ، فما كان من المبعوث إلا أن ضيّق الخناق على الوالى بأنه يبدو وكأنه ينتظر حدوث وضع سياسى معيّن تدور أحداثه فى الولاية ولم تخلص إليه نتائجه بعد ـ فكانت إجابة الدهاء السياسى بالتلبّث وطلب الفسحة فى الوقت (أتاك بالفيصل فى أول مجلس) ولربما امتدت الأيام بأول مجلس وطال أمد انتظار انعقاده ، وظل للموقف على ماهو فيه من غموض .

كل هذا يحدث والمبعوث على ولائه ووفائه ، والتمديد لأمد مهمته .

وطول الأيام التى استغرقتها لم يكن وراءها من سبب غير غموض موقف الوالى ، ولم يكن المبعوث مُغْمَض العينين أو مخدوعاً فيما تدور به الأحداث فى ولاية الشام ، وإنما كان مدركاً وعلى وعى ـ ولكنها السياسة ـ ربيبة المرونة ، وابنة الدهاء يُمْتِعُها الإيحاء ، ويُفْسِدها الاندفاع وتَتَكره الجموح ، وتضاد التهوّر ، وتنفر من الإلحاح .

لقد اضطر المبعوث المفاوض أخيراً أن يجبه والى الشام بحقيقة موقفه المتأرجح بعد أن اتضح تأرجحه ، وبعد أن وردت رسالة الحسم من الخليفة الامام المطالبة بتحديد المواقف ، ولم يكن المبعوث المفاوض غير شجاع لم تتخل عنه شجاعته ، ولم يغل من الإخلاص لمهمته طول إقامته فى الشام ، أو رخاوة عيش فيه ، أو تخلّ عن الولاء للخليفة الإمام

الإعلام بالحرب

الموقف السياسى : وما أنْ يفرغ الشام من البيعة لـ « معاوية » ويطمئن قلب « معاوية » إلى مساندتهم له ، ويستوثق تماما بهم حتى يسارع إلى استدعاء المبعوث المفاوض ويُمْلِه بقطع المفاوضات قائلا : يا « جرير » إلحقْ بصاحبك ! !

ويزوده برسالة موجهة إلى الخليفة الإمام ورد فيها ما يلى :[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

(من « معاوية بن صخر » إلى « على بن أبى طالب »

أما بعد — فلعَمْرى لو بايَعكَ القوم الذين بايعوك وأنتَ برىء من دم « عثمان » كنتَ « كأبى بكر وعمر وعثمان » رضى الله عنهم أجمعين .

ولكن أَغْرَيْتَ بـ « عثمان » المهاجرين ، وخذلْتَ عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقَوِىَ بِكَ الضعيف .

وقد أبى أهل الشام إلا قتالَكَ حتى تدفع إليهم قتَلَة « عثمان » فإن فعلتَ كانتْ شورى بين المسلمين .

ولعمرى ما حُجَّتُكَ علىّ كحجتِكَ على طلحة والزبير — لأنهما بايعاكَ ولم أُبايعْك .

وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة — لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعْكَ أهل الشام .

وأما شرفُكَ فى الإسلام ، وقرابتُكَ من رسول الله ﷺ ، وموضعه

(١) الكامل للمبرد ص ١٨٤ ، الامامة والسياسة ١ / ٨٧

من قريش — فلستُ أدفعه .

ولم يكتف الوالى « معاوية » برسالته هذه — وإنما أضاف فى نهايتها قصيدة قالها الشاعر الموالى له « كَعْب بن جُعَيْل » ونصُّها كما يلى :

أرَى الشامَ تَكرهُ مُلْكَ العِراق ... وأهْلُ العِراقِ لها كارهونا
وكل لصاحبـــه مُبْغِضٌ ... يرى كلَّ ما كان مِنْ ذاكَ دِينا
إذا رَمَوْنا رَمَيْنَاهم ... ودِنَّاهم مثلما يُقرضُونا (١)
وقالوا « علىٌّ » إمامٌ لنا ... فقُلْنا رَضِينا « ابنَ هندٍ » رضينا
وقلنا نرى أن تَدِينوا لنا ... فقالوا لنا لانَرَى أنْ نَدِينا
ومن دون ذلك خَرْطُ القَتَاد ... وضربٌ وطَعْنٌ يُقِرُّ العيونا
وكل يُسَرُّ بما عنده ... يرى غَثَّ ما فى يديه سَمِينا
وما فى « علىّ » لمستعتِبٍ ... مقالٌ سوى ضَمِّه المحدثينا
وإيثارِه اليوم أهل الذنوب ... ورَفْعِ القِصاص عن القاتلينا
إذا سِيل (٢) عنه حدَا (٣) شبهة ... وعمَّى الجوابَ عن السائلينا
فليس براضٍ ولا ساخطٍ ... ولا فى النُّهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساءَ ولا سرَّهُ ... ولا بدَّ من بعض ذا أن يكونا

البيان الأدبى : مما يُلحظ على جواب والى الشام « معاوية » الخاص بتحديد موقفه — قد حوَى رسالة وقصيدة .

أما الرسالة فى إجمالها فكانت إعلاما بالحرب بناءً على اعتبارات.

---

(١) مثلما يقرضوننا — من الإقراض مع حذف نون رفع جوازا.

(٢) سئل بتسهيل الهمزة (٣) ساق .

صحيفة وردتْ فيها ، وقصيدة الشاعر « ابن جُعَيل » تضمَّنتْ الإعلام بالرأى العام فى الشام الرافض لخلافة الإمام عليهم وتحكُّم أهل العراق فيهم ، والرضى بخلافه « معاوية » وولايته عليهم . وقد حوتْ الرسالة فى تفصيلها ما يلى :

(أ) خلوُّها فى صدرها من الألقاب التى تحدد أقدر الأشخاص ومناصبهم حيث وجِّهت من « معاوية » إلى « على » — ولعل الوالى قصد من إغفاله الألقاب إفادة أنهما على حد سواء فى تساوى الرءوس المتنازعة سياسيا ، وفى هذا الرفض الضمنى للاعتراف بخلافة الإمام . وخشونة أسلوب الرسالة يتبدى من عمك « معاوية » بتسميته نفسه بـ « ابن صخر » وليس بـ « ابن أبى سفيان » أو « ابن هند » كأسماه شاعره — ولعلها رَجْعة فى التسمية ، الخشنة إلى ما كان فى الجاهلية من تسميتهم أبناءهم لأعدائهم ، ولربما قصد الوالى بهذا إعلام الإمام بمدى صلابته الصخرية المتوارثة ، ولعله أراد التقليل من طغيان اشتهار الإمام بالشجاعة ليحاول تطمين نفسه أنه على قدم المساواة معه فى هذا المضمار ، وإلى أنه لن يلين فى خصومته معه .

(ب) إلقاء تهمة قتل « عثمان » على « علىٌّ » .

ويَنْبَنِى على هذا اعتباران :

أولهما : أن البراءة من هذه التهمة إذا وجدت كفيلة برفع مقام « علىٌّ » إلى مصاف « أبى بكر » و « عمر » و « عثمان » ومادامت البراءة لم تثبت له ، وإنما الاتهام به ألصق إذن —

فان يلحق « على » بالراشدين (طبقا لما تعنيه عبارته) وهذه محاولة من الوالى لدفع الإمام بعيداً حتى لا يلحق بركب الراشدين وبالتالى طعن فى صحة البيعة التى تمت للإمام — حيث يحاول الوالى أن يثبت أن البيعة قد تمت للخليفة الإمام وهو متهم بعدم البراءة من مقتل « عثمان » الخليفة ، فقد (أغرى به المهاجرين) و (خذل عنه الأنصار)[1] .

والتلوث بتهمة القتل للخليفة « عثمان » كفيلة بحجب البيعة عن الإمام ، أو تنفير العامة من المبايعة لقاتل خليفة المسلمين لو صح هذا الاتهام المزعوم .

لذا — نراه استخدم أسلوب الفرض (لو بايعك القوم وأنت برىء) ليصح له الناتج الذى يبغيه وهو عدم براءة الإمام .

(ﻫ) تصميم أهل ولاية الشام على قتال الإمام .

وإظهار ذلك فى صورة إجماع عام عاصم لا يسعه وهو الوالى غير تنفيذه ، ونسبة ذلك التصميم إلى أهل الولاية (أبى أهل الشام إلا قتالك) وصرف ذلك عن نفسه ليظهر الوالى فى صورة المنفذ فقط لإرادة الإجماع العام فى ولايته .

وتعليق رضى أهل الشام عن الإمام وترك قتاله على شريطة ، أن يسلمهم قتلة (الخليفة) يوحى بأن الإمام عارف للقتلة بأعيانهم وهذا

---

(١) راجع نص الرسالة .

يقتضي سبق العلم بأحوالهم وتهويهم — وعلى الرغم من ذلك ضمهم الإمام إلى جماعته — مما يقوّي من محاولة الوالي إلصاق التهمة بالإمام قسراً .

(د) عدم التسليم بصحة البيعة العامة التي تمت للإمام جهاراً نهاراً برضى عام من جماعة المسلمين ، ومحاولة الضغط السياسي عليه بإخراجه من قائمة المرشحين للخلافة حتى وإن استجاب إلى اشتراطهم ؛ فعلى سبيل الفرض لو سلّم القتلة لأهل الشام لرأى الخليفة إحراجا جديداً حيث تُطرح الخلافة من جديد بين عامة المسلمين — يتشاورون ويبدون رأيهم في أمر الخلافة ومَنْ يصلح لأن يتولاها عليهم — متخطين في ذلك ما تم من البيعة الناجزة القائمة للإمام وكأن شيئاً من ذلك لم يحدث !!

هذا — ويُلحَظ أنّ المشورة العامة التي يُراد طرحها لم يرد فيها أي ذكر لشخص الإمام كمرشح للخلافة يمكن أخذ الرأي عليه ، والمبايعة له — وتلك محاولة فيها التصميم على الزحزحة لشخص الإمام عن الخلافة

(هـ) الرفض لأن تكون البيعة التي تمت للخليفة مُلزِمة للوالي « معاوية » أو لأهل الشام أتباعه .

ويسوق الوالي في سبيل إثبات صحة ذلك أقيسة ناتجها يبرئه ويبرئ أهل ولايته .

فـ « معاوية » يخرج نفسه من الحجة التي لزمت « طلحة » و« الزبير » كما يخرج أهل الشام بنفس الطريقة والأسلوب — لأنهم رفضوا طاعة الإمام — إذن — ما لزمتهم الحجة التي لزمت أهل البصرة الذين أطاعوا ، والوالي في كل هذا يحاول إغلاق الباب دون الإمام في

مجال النزاع السياسى ولا يسلم له بشىء إطلاقاً يمكن أن يفيد منه فى تقوية مركزه السياسى كخليفة ، ولم يسلم له إلا بسموه شرفاً فى الإسلام ، وقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلو مكانته فى قريش — من بعد أن رآها أموراً لا تندفع ، ولا يمكن غمطها أو الطعن عليها .

ورسالة الحرب هذه يحاول فيها والى الشام التملص من المبايعة للخليفة الإمام مستبيحاً لنفسه إلقاء تهمة اغتيال الخليفة « عثمان » عليه ، والطعن فى صحة خلافته القائمة عن طريق التشويش عليه بتهمة مفتراة لم يقم عليها دليل ، وقد نصب الوالى من نفسه ولياً لدم « عثمان » يطالب به باعتبار قرابته ، ونيابة عن أهل الشام الذين يليهم باعتبار آخر ، وهما اعتباران لم يسلم له واحد منهما يمكن الحكم به على صحة نسبته إليه — كما لم يفوض فى الادعاء بهما نيابة عن الأمة ، أو عن الأولياء المقربين للخليفة المغتال .

وما أن يتم للوالى ضمان تأييد الشام له فى نزاعه السياسى حتى يبادر بإعلام المبعوث المفاوض بقطع المفاوضات وخلع الإمام وإعلانه بالحرب إن كانت قد صحت له بيعة — وكل هذا إذا لم يذعن الإمام للشروط المخزية التى حاول فرضها عليه ، والزج به إلى محاذيرها — وذلك بأن يضطره إلى الاعتراف بجريمة لم يرتكبها ، وإن لم يكن ارتكبها فقد آوى مرتكبيها ، وإذا ما تحقق المستحيل الذى يفرضه الوالى فحينئذ يبرأ الإمام فيما يتعلق بهذا الجرم ، وهنا تطرح الخلافة فى شورى عامة بين المسلمين صرفاً للخلافة القائمة لانطوائها على تهمة قتل لم تتم البراءة منها بعد .

هذا ـ هو موقف والى الشام الذى يطوِّع الأوضاع والظروف لتكون فى صالحه السياسى طبقاً لما انتواه من الاستماتة فى التمسك بولاية الشام كحدٍ أدنى لمطالبه ، وتمييع للموقف فيما يتعلق بالخلافة القائمة محاولاً بدهائه السياسى أن يميلها تجاهه وناحيته إذا ما أمكنه النجاح فى التفشية لموقف الإمام وزحزحته عنها بالطعن عليه فى صحة البيعة له ، أو بالحرب تشب على حقٍّ أو بدون حق .

إنها السياسه لاغير تفعل أفاعيلها ، والغلَبة فيها لمن يجيد الفَتْل لأحابيلها إيقاعا بخصمه ، والعِبرة فيها بإحراز الفوز عليه دون نظر إلى صحة الوسيلة المسلوكة توصلاً إلى الغرض .

وتلك مصيبة كبرى حلَّتْ بالدولة الإسلامية منذ أن تم الفصل فيها والتجريد للسياسة من الأخلاق — فلو ظل الخلق القويم أسلوباً ملتزَماً فى السياسة كمبدأٍ لايسوغ لأحد التفريق بينه وبين السياسة للأمة تحت أى اسم أو دافع لما داخلتْ المجتمع الإسلامى نزعات التفرُّق والتشتت والتمزق . إن عملية الفصل هذه هى الداء الجديد القديم الذى مازال يجعل من كم المسلمين الضخم شيئاً لاوزن له فى عالم الأرقام والقوى العالمية على الرغم من ضخامته ؛ فلو التُزِم الخلُق لما وُجِد التنازع والتصارع ومايترتب عليهما من ضير ، ولسلم كيان المجتمع من التفتت ، ولانصرَف جهْد الأمة بأجمعه إلى البناء والتطور والتحضر — الأمر الذى ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون — لأنّ ماتبذله الأمة من جهد فى علاج رأب الصدوع ،

وسدّ الشقوق لايبقى لها على أى قوة يمكن أن تستثمرها فى البناء — فضلاً عن حسن الظن فى إمكان التقدم ومحاولة اللحاق بركب الحضارة المسرع فى خطاه والذى لاتخلو نفس أنسانية سوية من الأمل فى محاولة تسنّمه ، واقتعاد مجلس الصدارة منه لتعيدها كما كانت فى عهدها الأول — حضارة خيّرة بنّاءة — خيْرها موفور مبذول للإنسانية جمعاء دون تفرقة لأى اعتبار كان ، فنحن لسنا فقط مجرد أصحاب دعاوى حضارية لم تبرهن الأيام على صحتها ، ولكننا أصحاب عراقة فى عالم الحضارات — نجيد الإرساء لأسسها على أصلح قواعد ، وننشرها نوراً وهداية وعرفانا على الدنيا بأسرها دون أن يشوب ذلك تعصب أو تعنّت أو استغلال ، ودون اصطناع للقوة أو ركوب للمهابة نسلط قوى العلم الذرية والهيدروجينية ، ليفعلا فعلهما فى بنى الإنسان قتلاً وتخريبا ودماراً فى عصر حضارات التدمير التى تحكم العالم ، وتملى عليه حالة رعب جعلت الناس يحيون وهم من خوف الحرب فى حرب — لانعدام الجانب الخلقى القويم ونفضه عن السياسة فأضحت بدونه مناورة ومداورة وتغشية وخداعا !!!

المذكرة التفسيرية لحيثيات الرّفض

وأما قصيدة الشاعر « كعب بن جُعَيل » التى ذيّل بها « معاوية» رسالته . فهى أشبه بالملحق التفصيلى أو المذكرة التفسيرية التى تُلحَق بنصوص المعاهدات فى عصرنا الحاضر — لتكون مرجعاً يوضح الغموض الذى قد يعترى النص أحيانا ، ولتكون الفيْصل عند الاختلاف على جزء من النص الأصلى .

وهكذا — اعتمد الوالى « معاوية » على قصيدة « ابن جميل » لتكون موضحة لوجهة نظره فيما يعرضه على الخليفة الإمام من حيثيات الرفض لبيعته والطعن فى خلافته لاتهامه بعدم البراءة من دم الخليفة المقتال « عثمان » هذا إلى جانب الرفض الصريح من أهل الشام (كما ورد على لسان الشاعر) من أن يتحكم فيهم أهل العراق حيث اعتبر الشاعر أن (النزاع إقليمى) يرفض فيه إقليم سيطرة إقليم آخر عليه .

وتلك نظرة سياسية ضيقة مال إليها الشاعر واعتمد عليها كمبرر سياسى لرفض أهل الشام الطاعة للخليفة الإمام ، وبهذا — يكون قد أخرج النزاع السياسى الغامض ضد الخليفة إلى نزاع إقليمى يؤدى إلى تفتيت كيان الأمة .

وقد بنى الشاعر الفكر الرافض فى قصيدته اعتماداً على الحيثيات التالية :

(ا) فالبغض والكراهية متبادلان متأصلان بين الإقليمين ، وقد ساقهما كحيثية رئيسية أولى صدر بها قصيدته ، وقد رتب على هذه الحيثية الاستعداد للمناجزة والتحارب بين الاقليمين بناء على اعتبار عدم قدرة أحدهما على الاحتمال للآخر ، أو التغاضى عن أى محاولة للتحكم وفرض السيطرة على الإقليم المناظر .

والمعنى بالرفض هو سلطان العراق الزاحف إلى الشام بقيادة الخليفة الإمام وإن كان الشاعر قد طرحه فى صورة تشعر بالتساوى فى الرفض متبادلة بينهما — فليست الشام هى الزاحفة ، دون محاولة العراق السيطرة بالرمى والاصابة لها والقتل يوقعه بها أهل الشام بغية الإيقاع

والتنيل والاشتفاء والانتقام ، ومحاولة فرض الطاعة علينا أمر دونه (خرط القتاد) .

وإذا كانت إمامة « علىّ » فى موضع الرضى بالعراق ففى المقابل إمامة « معاوية » مَرْضِىٌّ عنها فى الشام .

ويعادل الشاعر فى المنزلة بين الرءوس المتنازعة حيث أقامهما على حد سواء وكأنهما واليان تنازعا الاقتسام لما تحت أيديهما من أرض يليان عليها .

وتجاهل الشاعر أساس النزاع المنحصر فى وجوب التسليم والطاعة والاعتراف بخلافة « علىّ » المبايع له بيعة عامة لزمت جميع الولاة على سائر أقاليم أرض الخلافة ، ومن لم يرتضها منهم فليعتزل الحكم مِنْ قِبل الخليفة القائم بالأمر .

(ب) ويوالى الشاعر حيثيات رفضه لحكم الإمام فيذكر : أن « عليًّا » قد آوى إليه مرتكبى جريمة الاغتيال للخليفة « عثمان » (أهل الذنوب) وفضلهم على من سواهم ورفع القصاص عنهم ، ولعل هذه الحيثية قد صادفتْ هوىً فى نفس الوالى « معاوية » حيث جاءت متوافقة ورأيه الذى جمع عليه أهل ولاية الشام ، وتصدَّر على أساسه القيادة لهم فى المطالبة للخليفة الإمام بتسليمه قتلة « عثمان » وإلا فليس ببرىء من دمه !!!

وما يسوغ فى عُرْف عام أو قانون خاص ولاسيا فى الدولة الاسلامية أن يبسط الحاكم حمايته على مُذْنب واضح الذنب ومشهود عليه بارتكابه له — جل شأن المذنِب أو المرتكِب أو قلّ دون أنْ يُقاد بذنبه —

كما لا يسوغ لوالٍ أو لخليفة ملتزم لشريعته منفذ لها وعلى الأخص الخليفة الإمام أن يلغى حداً حده الله ، وجعل فيه الحياة للمجتمع — ونحن مازلنا فى صدر الإسلام. وكيف يمكن أن يتأتى ذلك من الخليفة الإمام صاحب الشرف الذى لا يُدانَع فى الإسلام[1] ؟!

إنه الادعاء السياسى الذى يُسوِّغ إلصاق التهم دون تثبت أو حياء أو رعاية المكانة فى جانبها الدينى لمن يُرمَوْن بها ، ودون اعتبار لإمكانية صدور التهمة أو عدم صدورها ممن ألقيت عليهم ، وأُلصِقَتْ بهم !!!

(ح) وما يزال الشاعر يُلقى بتهمه على الإمام فيدّعى عليه أنه يعمى الأمور ، ولا يقطع فيها برأى — خاصة إذا ماسئل قصد الاستبانة لحقيقة سيل التهم التى ساقتها نيران الفتنة المستشرية .

ويبدو أن رزانة الخليفة الإمام قد حالتْ بينه وبين الخوض فى أحداثٍ غشيتها الغواشى ، ولم يقع له بها علم ، فلزم حدود نفسه ، ومدَى علمه ، ولم يحمِّل نفسه مسئولية ليستْ له ، ولا تدخَّل إلا فى حدود المسئولية المُناطَة بشخصه .

وكيف يتأتى للإمام الخوض فى فتنة تدافعتْ فيها الأحداث وتداخلتْ مسرعة بحيث استعصت على الإيقاف لها فى مَنابتها ، أو التفادى لشرورها عندما عصَفَتْ بكل سُلْطة فى طريقها، واستحالتْ الاستبانة لحقيقة ما تمّ فيها .

---

(١) راجع رسالة « معاوية » إلى الإمام التى شهد له فيها بذلك .

وعلى الرغم من كل هذا يسوق الشاعر حيثية أخيرة مُؤَداها : أن حقيقة موقف الخليفة الإمام إبّان الفتنة كانت غير مدرَكة ، فهو لم يفصح عنها بسلوك على إزاء الأحداث يمكن أن تستشف منه حقيقة موقفه أهو راضٍ أم ساخِط — كما أنه لم يتدخل فيها على أى صورة من صور التدخل من أمْرٍ أو نَهْى .

وهذا تحميل للإمام لمسئوليات لم تكن له صفة رسمية تخول له حق التدخل فيها ، واتهام سقيم له بالسلبية التامة .

وماذا كان يُرجَى من الإمام أن يفعله إزاء فتنة طاغية نهضتْ فى أطراف الأمة وتجمّعتْ مكتسحة فى طريقها كل قوة ، وتطورت مستشرية حتى أدّتْ إلى اغتيال الخليفة رأس الأمة ؟ كل هذا و « علىٌّ » ليس بنائبٍ له ينهض بالأمر بعده ، ولم يكن بصاحب مسئولية على أى وجه من الوجوه تسوّغ له اتخاذ إجراء أى إجراء حتى يستدعى مساءلته البطء فى اتخاذه ثم إصدار الأحكام الجائرة عليه بناء على هذا البطء !!!

حرب الرسائل

الموقف السياسى : ويدخل الخليفة الإمام رجل الدولة والخليفة المبايَع له ميدان حرب الرسائل ، والأخذ والرد مع والى الشام «معاوية» الرافض لبيعته ، ويبذل الإمام قصارَى جَهْده محاولاً تفنيد الدعاوى والتهم التى رماه بها « معاوية » .

إن الموقف الأساسى منحصر فى أمر والى الشام الذى لم يبايع كما بايع غيره ، وكان الحل يبدو منحصراً فيما يلى :

(ا) أن يبايع « معاوية » كما بايع الناس — إن كانت نفسه مستريحة لخلافة الإمام .

(ب) أن يعتزل الوالى الولاية — اعتماداً على عدم رضاه عن الخليفة المبايَع له — إن كانت له وجهة نظر مخالفة لما أجمع عليه الناس ، واقتنع هو شخصيا بسلامة ماذهب إليه من رأى .

(جـ) أن يدخل فى حرب تقرِّر مصيره كوالٍ ، ومصير الخليفة المبايَع له كصاحب حق فى بسط يده على سائر بقاع الأمة .

والذى نلحظه أن والى الشام قد نجح فى جرّ الإمام إلى الدخول فى نزاع جانبى ، وصرفه عن الحسم فى الأمر الأساسى (والى الشام الرافض للبيعة) والذى يدخل فى عرف السياسة تحت اسم (الوالى المنشق أو الخارج عن طاعة الخليفة) .

لقد دخل الإمام فى مُنعرَج محاولة دفْع تهم التقصير فى حق الخليفة المقتَّال « عثمان » والخذْلان له ، والمالأة عليه ، واندفع الإمام فى هذا المنعطف بقوةٍ وصراحةِ صاحب القلب النقىّ — سالكاً طريق إحقاق الحق فى طوفان التهم بكل ماانطوتْ عليه نفسه من استقامة .

لقد بذل الإمام جهداً مضاعفاً فى التفنيد لدعاوَى رماه بها الدهاء السياسى المضاد له ليحقِّق من ورائها غرضاً سياسياً قُصِدَ بعينه ، وكانت التهم سلاحا استُخدم لبلوغ ذلك الغرض .

وقد أفلح الدُّهاة السياسيون فى استفراغ جهد الإمام فى دوّامة النفْى للاتهامات وطلب البراءة منها ، وضاعتْ تهمة التجريم لعصيان الوالى الرافض لبيعة الخليفة ، وعلَتْ نيران فتنة الاتهام للإمام بالقتل ، وخَبَتْ

أصوات جريمة الخروج والانشقاق والعصيان ، وشغل الدهاء العامة بقضية قتل للخليفة « عثمان » لم يتم فيها القصاص !

ويعظم الجُرْم لحدوثه فى مجتمع إسلامى حياته فى القصاص وإلا عاد إلى عُرْف الجاهلية فى الثأر والانتقام .

إن جريمة قتل الخليفة « عثمان » جريمة اغتيال سياسى له مُلابَساته وظروفه السياسية والاجتماعية التى دفعتْ إليه ، وليس بجريمة قتلٍ عادية يَسهُل فيها التعرُّف والاهتداء إلى مرتكب الجُرْم ، أو يمكن فيها الوصول بيسر إلى دوافع القتل أو مبرراته ، وحيث تتحقق ظروف الجريمة وتَسْتعصى على التعرف والاتضاح لسائر الملابسات المصاحبة لها فلا يمكن إيقاع القصاص كحدٍّ شرعى ناجز — ولكنْ أين هذا من جريمة فتنة عارمة هبَّتْ من سائر الأصقاع ، وأسهمتْ فيها دوافع ماخفى منها أكثر مما وضح !

وهل كان الإمام « علىّ » والخليفة « عثمان » حياً يملك حق اتخاذ موقف عملى معين إزاء سريان طاغ للفتنة فى صفوف المجتمع بأسره قريبه وبعيده — والحال أن يده خلو من أىّ سلطة ؟!

وما الصفة الرسمية التى كان يمكن أن يضفيها على نفسه لو كان قد اتخذ إجراء معينا اعترض به أمواج الفتنة المصطخبة متخطياً سلطات الخليفة القائم بالأمر ، والمباشر لصلاحياته[1] ؟!

---

(١) لم يقصر الإمام « على » فى حق « عثمان » ، فقد عاده بعد أن حُصِب فى المسجد وهو يخطب فصُرِع ، وكان مع « على » طلحة والزبير يشكون إليه ←

وإجمال الأمر يقتضينا القول بأن قضية الاتهام للإمام وجهد الإمام فى التبرئة لنفسه كان دخولا فى معركة جانبية تم فيها التركيز عليها على حساب القضية السياسية الأساسية الأولى — قضية الخليفة المبايَع له، والوالى الرافض للبيعة!

من هذا الباب هَوَّد الخليفة الإمام إلى التراسل مع «معاوية» بعد

ـهما يجدونه من أمر الفتنة الفاشية، ويرد الأمويون على «على» بما يغضبه فينصرف.

ويبعث «على» بابنه «الحسن» ليكون إلى جوار «عثمان» عوناً ضد من اجتمعوا عليه فيصرفهم «عثمان» عنه صياحاً وطرداً.

ويستقتل «الحسين بن على» دون «عثمان» مع نفر من أهل المدينة بعد أن حصب وصرع مغشياً عليه، وعندما يستفيق يأمرهم بالانصراف

راجع الكامل لابن الأثير ج٣ ص ٨٠-٨١ ط دار الكتاب العربى- بيروت.

وعندما بلغ المتألبون على «عثمان» أطراف المدينة حاولوا اصطحاب الإمام «على» و«طلحة» و«الزبير» معهم فزجروهم ووبخوهم، ورد الإمام على كل تهمة وجهوها إلى الخليفة «عثمان» كما وضح لهم موقفه — ولكن المتمردين كانوا قد فاجأوا المدينة بقدومهم، واستولوا على أهم مداخلها، وصيروا أهلها شبه عاجزين — انظر البداية والنهاية ابن كثير ج٧ ص ١٤٦

ولم يكن أحد من أهل المدينة يتصور أن الأمور قد تتطور وتنتهى بصرع الخليفة «عثمان» الذى رفض أن يُقتَل أحد دفاعاً عنه فـ«زيد بن ثابت» يقول له: «هذه الأنصار بالباب يقولون. إن شئتَ كنا أنصاراً مرتين» فيقول «عثمان» أما القتال فلا، ويقول هذا لأبى هريرة وعبد الله بن الزبير — انظر طبقات بن سعد ج٣ ص ٧٠

أن قطع المفاوضات ، ورد المبعوث المفاوض وأعلمه بالحرب ، ولربما اعتقد الإمام أن الأمر هيِّن ولا يعدو أن يكون مجرد تهمة ناتجة عن تقوُّلات ليس لها مايثبتها ويكفى فيها التفنيد لإزالة آثارها ، وإقامة الحجة على البراءة منها ؛ فأبقى باب الإقناع مفتوحاً عن طريق التراسل وفيه ينفى ويفند ويقرع الحجة بالحجة ويقيم الدليل والبرهان ، ويمد فى حبال الصبر رغبة فى السِّلْم ، ويصد عن المسارعة إلى اتخاذ إجراء حربى يحسم به الموقف ، ومال إلى محاولة إحلال الكلمة محل السيف فى حل الخلاف السياسى — فكتب إلى « معاوية »[1] :

من « على » إلى « معاوية بن صخر » :

أما بعد ـ فقد أتانى كتاب امْرِيءٍ ليس له نظر يهديه ، ولاقائد يُرشده ـ دعاه الهوَى فأجابه ، وقاده فاتَّبعه ـ زعمتَ أنه أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى « عثمان » ولعَمْرى ما كنتُ إلا رجلاً من المهاجرين أوردتُ كما أوردوا ، وأصْدرتُ كما أصدروا .

وما كان الله ليجمعهم على ضَلالة ، ولاليضربَهم بالعمى ، وماأمرتُ فيلزمَنى خطيئة الآمر ، ولاقتلتُ فيجب علَىّ القصاص .

وأما قولُكَ : إن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز فهاتِ رجلاً من قريش الشام يُقْبَل فى الشورى أو تحلُّ له الخلافة ـ فإنْ زعمتَ ذلك كذَّبَك المهاجرون والأنصار وإلا أتيتُكَ من قريش الحجاز .

وأما قولُكَ : ادفع إلينا قَتَلَة « عثمان » فما أنتَ و « عثمان » ؟

---

(١) وقعة صفين ص ٥٧

إنما أنت رجلٌ من بنى أمية ؛ وبنو « عثمان » أَوْلَى بذلكَ منكَ . فإن زعمتَ أنَّكَ أقوى على دم أبيهم منهم فادْخُل فى طاعتى ثم حاكِمِ القوم إلىَّ أحملكَ وإياهم على المحجة .

وأما تمييزكَ بين الشام والبصرة ، وبين « طلحة » و « الزبير » فلعمرى ما الأَمْرُ فيما هناكَ إلا واحد – لأنها بيعة عامة لا يثنّى فيها النظر ولا يُستأنف فيها الخيار . وأما وَلوعُكَ بى فى أمر « عثمان » فما قلتَ ذلك عن حقّ العيان ، ولا يقين الخُبْرُ (١) .

وأما فضلى فى الإسلام ، وقرابتى من النبى صلى الله عليه وسلم ، وشرفى فى قريش فلعمرى لو استطعْتَ دَفْعَ ذلكَ لدفعتَه .

البيان الأدبى :

يُلاحظ أن مضمون رسالة الخليفة « علىّ » قد حوى التفنيد والإبطال لسائر التهم التى رماه بها الوالى « معاوية » لذا – نراه وقد وقف موقف الدفاع عن النفس فعمد إلى مايلى :

أثبت أن تصرفَ الوالى « معاوية » قد مال به إلى الهوى فاتّبعه وحادَ به عن الرشد والصواب لفقده النظر المادى ، والقائد المرشد ؛ ويحدّد الخليفة الإمام موقفه من الأحداث التى أودتْ بالخليفة « عثمان » بأنه كان فى تلك الآونة شخصا عاديا لا يملك أى حق ولا سلطة يستطيع بهما مدافعة الأحداث وردَّها . ويبرىء الإمام نفسه عن طريق التفنيد للتهم لم ينهض على إثباتها عليه أى دليل (ما أمرتُ ولا قتلتُ) ويحدّد

(١) العلم والاختبار .

الإمام ويستقصى سائر ما كان يمكن أن يتهم به فيردد ماقيل منه؟
وما لم يقل مبالغةً منه فى أن يدفع عن نفسه أية شائبة لشبهة يمكن أن
تدور حوله أو تعلق به .

والإمام قوى فى حجته المسقطة لولاية « معاوية » فى المطالبة بدم
الخليفة « عثمان » فالتقريع والتوبيخ فى أسلوبه (فما أنتَ وعثمان)؟!
كفيل بإسقاط أى صلة يدَّعيها « معاوية » لتكفل له حق المطالبة بدمه .
فهو ليس من « عثمان » فى شىء من الصلات تبيح له أن يسبغ على نفسه
تلك الصفة (ولاية الدم) وادعاء الصلة وانتحال الصفة هذه تجاوز معيب
لا يحق له أن يدَّعيه ، فليس من المتقبل فى عُرف العرب أن يدَّعى الشخص
لنفسه قرابة لشخص ليست له به قرابة اعتزازاً من العربى بنسبه — كما
رتب الشرع درجات الأولوية فى حق المطالبة بدم المقتول وأسندها إلى
الولى الأقرب فالأقرب .

وبناء على هذه الحيثيات يكون فى قولة الخليفة « على » للوالى
« معاوية » التقريع لتدخله بدون وجه حق مطالباً بأمور لا يساندة فيها
أى حق شرعى أو عرف أو تقليد .

إنه التبكيت القاسى للوالى الذى يدَّعى ماليس له بحق .

ثم يسوق الإمام أدلة النفى المسقطة لحق « معاوية » فيما يدعيه من
ولاية دم « عثمان » .

فيبين أن « عثمان » من بيت ؛ و « معاوية من بيت آخر
(إنما أنتَ رجل من بنى أمية ، وبنو « عثمان » أولى بذلك منك) .
وبذا يكون الإمام قد أسقط عن « معاوية » الصلة القريبة التى يستند إليها

كحجة فى حق المطالبة بدمه بقَصْرِه على كونه أموىّ مُباعَد بدرجات عن « عثمان » ، ونَزَعَ هذا الحق منه وأَسْنَدَه على طريق الأولوية إلى بنى « عثمان » شَرْعاً — كما جرَّده أيضا من دعوى القوة التى تُنهضه دفاعاً عن حقوق الضعفاء والمظلومين شهامة قصد القصاص لهم إن كان قد خالطه الزعم بذلك ، ثم يُرشده إلى الطريق الأَمْثل لنيل الحقوق المشروعة بطريق شرعى بأن (ادخل فى طاعتى ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على المحجة) .

إذن — لم يبق للوالى « معاوية » من حقٍّ يبيح له المطـالبة بدم « عثمان » سوى أن يسلك سلوكاً شرعيا فى سائر خطواته : بأن يدخل فى طاعة الخليفة « على » أولاً ، ثم يحاكم إليه القتلة ثانيا ، ويسحب الإمام الحجة والحـكم الشرعى الذى طُبِّق فى وقعة الجمل على الرافضين لبيعته على أهل الشام وواليهم ، ويقيس على صحة التَّساوى عنده بينهما فى الحكم (فلعمرى ما الأمر فيما هناك إلا واحد) ويدلل على تلك الصحة بأنها (بيعة عامة) .

ثم يتناول الإمام أمر صحة الخلافة له بعبارة تقطع على الوالى « معاوية » سبل التشكيك فى صحة البيعة له حيث يُثبت (أنها بيعة عامة لا يثنَّى فيها النظر) وهذه جملة قد أثبتتْ صحة البيعة له ، وأخرجتْها عن أن تكون موضع نظر جديد حيث قد ثبَتَ لها وبها ما ثبتَ من الصحة لاستيفاء أشراطها فى حينها ، ثم يعيد التأكيد لهذا المعنى بجملة تالية تقطع الطريق والألسُن دون الحديث فى بيعة قد أُبْرِمَتْ وانتهتْ — ولم يبق فيها أى مجال يسمح بأن (يستأنف فيها الخيار) .

وأخيراً يعم الإمام بالنفى سائر التهم التى رُمِى بها فى حق « عثمان » ويسقطها جميعا حيث لم يقُم على صحة ثبوتها دليل عَيْنِىّ أو خبر يَقِينِىّ.

وبذا تصبح التُّهَم ساقطة لانتفاء الأدلة المثبتة لها والحكم بعدم صحتها ! ! !

والإمام « علىّ » والحق يُقال إن الرجل هو صاحب الفُتْيا والفصل فى المحاكمات والقضايا المعضِلة ؛ فقد كان رجلها المَعْنِىّ بالقولة المشهورة : قضيةٌ ولا أبا حسن لها .

وهو فى تلك الآونة قد حكمته الأحداث ، ووضعته حيث يقف مدافعاً عن نفسه أمام الأمة ورأيها العام سَيْل تُهَم رُمِى بها لم يكن مقترفاً لها أو مُعِيناً عليها ، فانبرى المتهم البرىء المطعون على خلافته يدافع بكل ما أُوتى من قوة الحجة ، ويستشهد بأقطع الأدلة النافية لتُهَمِه والمثبتة فى حقه ، فهذا هو مَناط ظهور عبقريته وبراعته المشهود له بها — فابالك إذا كان مظلوماً فيما رُمِى به ! !

ثم يُنهِى الإمام الرسالة بما يفيد أنه مُدرِك أنّ خصومته مع الوالى « معاوية » كفيلة بأن تَدْفع الوالى إلى الإنكار والغَمْط لأى تفوق وفضل للخليفة فى الإسلام أو القرابة أو الشرف لو أمكنه ذلك (فلعمرى لو استطعتَ دفع ذلك لدفعتَه) .

وجرياً على صنيع الوالى « معاوية » من إلحاقه قصيدة « كعب بن جعيل » رسالته سالفة الذكر[1] الموجهة إلى الخليفة « على » نرى الإمام

---

(١) راجع الرسالة السابقة والقصيدة الملحقة بها

قد سلكَ نفْس النَّهْج حيث أمر « النَّجاشى » أنْ يجيبه شِعرا يذيِّل به رسالتهَ فقال[1] :

دَعَنْ يا « مُعَاوِىَ » ما لنْ يكونا   فقد حقَّــقَ الله ما تحذَرُونا

أتاكم « علىٌّ » بأهلِ الحجاز   وأهلِ العراق فما تَصْنعَونا ؟

على كلِّ جَرْدَاء خيفَانَة[2]   وأشْعثَ نَهْدٍ[3] يسرُّ العُيونا

عليها فوارسُ مَخْشيَّــةٌ   كأُسْدِ العَرين حَمَيْنَ العَرِينا

يَرَوْنَ الطِّعانَ خِلالِ العَجَاجِ   وضَرْبِ الفوارسِ فى النَّقْع[4] دِينا

هُمُ هزَمُوا الجَمْعَ جَمْعَ « الزُّبير »   و « طلحة » والمَعْشَرِ النَّاكِثينا

وقالوا يمِيناً على حَلْفَــةٍ   لَنُهْدِىَ إلى الشَّام حَرْباً زَبُونا

تُشِيبُ النَّوَاصِىَ قَبْلَ المَشِيبِ   وتُلقِى الحَـوَامِلِ منها الجَنِينا

فَقُـلْ للمضلِّل مِنْ وَائِلٍ   ومَنْ جَعَل الغَثَّ يَوْماً سَمِينا

جَعَلْتُمْ « عليّاً » وأشياعَهُ   نَظِيرَ « ابنَ هِنْدٍ » ألاَ تَسْتَحُونا ؟!

إلى أوَّلِ النَّاسِ بعدَ الرَّسولِ   وصِنْوِ الرَّسولِ مِنَ العالَمِينا

وصِهْرُ الرَّسولِ — ومَنْ مثله   إذا كان يَوْم يُشِيبُ القُرُونا

البيان الأدبى :

القصيدة تحمل سيف التهديد مُشْرعا دون مُواربَة من بعد أن اتضح

---

(١) وقعة صفين ص ٥٨

(٢) الجردا. الخيفانة / الفرس القصيرة الشعر الوثابة.

(٣) النهد من الخيل الجسيم الضخم.

(٤) غبار المعركة المنعقد فوق رءوس المقاتلين.

أن الوالى « معاوية » قد رفض البيعة للإمام القائم بالأمر بناء على اعتبارات يدعيها .

لذا - نرى القصيدة فى بنائها الفكرى : تفتتح بالتثبيط والإحباط للوالى فيما يسعى إليه جاهدا من محاولة الخروج على الخليفة « على » فيقول له الشاعر : (دعن) بكل مافيها من إظهار خالص النصح المبكت فى مقام انعدام الفائدة من بذل المحاولات غير المنتجة ، ثم يعقبها بما يدعو إلى التيئيس من ناتج مساعيه ، فالأمر (لن يكونا) وهذا أدعى إلى قطع الأمل من بعد أن تحقق ووقع (ماتحذرونا) وقد تم هذا بفعل (الله) القوىّ الذى لا يُنَقَّض له قضاء .

وليس أشد من ذلك تثبيط وتيئيس من ناتج الجهود المبذولة دون تأميل لبلوغ أى هدف ولا فائدة ! .

ويتبع الشاعر تيئيسه للوالى بالدليل المقنع بصحة ماذهب إليه فيبين أنه قد اجتمع إلى جانب الخليفة الإمام (أهل الحجاز وأهل العراق) فى جبهة متحدة تقف فى وجه أهل الشام من أجل عرقلة ما يهدفون إليه من محاولة الخروج على الخليفة الشرعى والتضييع لحقه .

وفى إظهار الشاعر للقوة الاتحادية التى تجمعت للإمام من (أهل الحجاز والعراق) ووُضِعتْ رهْن إشارته وطوّع يده كقوة كفيلة بتحقيق النصر على أهل الشام — أسلوب فيه من الإرهاب مافيه لكل من الوالى وأهل الإقليم جميعا ، ويحمل معنى الضياع للسعى بالجرى وراء ما لا فائدة تُرجَى منه بمحاولاتهم التملّص من لزوم البيعة لهم —

حيث قد أصبحوا فى موقف ضعف فقدوا فيه كل عنصر من عناصر الغلبة ، فساءلهم مساءلة التوبيخ لمن أوقع نفسه فى مأزق وعدِم وسيلة الخروج منه بقوله :

(فما تصنعونا) حيث قد أتاهم بأضخم قوة لها وزنها فى اعتبارات النصر والغلبة عند من يَزِن الأمور بميزان القوة الحربية الضاربة إذا ما استدعتْ الأحداث استخدامها من أجل التأييد والتثبيت لما يمكن أن يُدَّعى من حقوق .

ويتابع الشاعر السرد لأدلة النصر المتحقَّق وقوعه إلى جانب الخليفة « على » فيذكر أن فرسانه شجعان مشهود لهم بالكفاءة الحربية ، والاستماتة فى القتال ولديهم الوَفْرة فى معداته ، وقد طرقوا أبوابكم ، وأتاكم الخليفة الإمام بهم على حين غِرَّة منكم حيث لم يترك لكم فرصة لإعمال الفكر أو التهيؤ من بعد أن فاجئوكم بما لا قِبَل لكم به .

وبما أنه قد تم الإجماع الآكد من أهل هذه القوى المرْعِبة على ضرورة الإيقاع بأهل الشام فى حرب مُروِّعة قد أقسموا على خوضها — وهم الفرسان المجرَّبون من قبْل فى إيقاع الهزائم الماحقة بالجموع التى انتقضتْ وخرجتْ على الخليفة الشرعىّ — إذن — فسيحيق بكم مثل مصيرهم .

ويسوق الشاعر المعنَى هنا فى صورة تدعو أهل الشام إلى الاعتبار بمصائر الماضين من المخالفين تداركا لأمرهم قبل أن تقع الواقعة ، ويحل

بهم ماحلّ بالمخالفين من أمثالهم ، وإذا ما أصر (أهل الشام) على العصيان فلا بد من أن يلقنوا درسا يفيقهم بالحق بحرب مهلكة ، وتكون هذه الحرب خير هدية تُقدّم لهم حيث تكون صاحبة الفضل فى تصحيح وضعهم بردعهم عن العصيان ، وردّهم إلى رحى الجماعة ، وإذعانهم للخليفة .

ثم يعرض الشاعر لإحساس الكراهية المُثار من أهل الشام ضد أهل العراق فيبين فى أسلوب شرط مُقنع أن الحساسية السياسية المؤدية إلى إيقاع الكراهية بين الإقليمين أمرٌ مرفوض من أساسه .

فإن تكرهوا المُلْكَ مُلْكَ العراق فقد رَضِى القومُ ما تَكْرَهُونا

فالمسألة فى جوهرها طاعة مفروضة للإمام المبايَع له ارتضاها أهل العراق ، ويلزم أهل الشام مثلُ هذه الطاعة ، فالجميع رعية الخليفة .

وليس الأمر كما تدّعون من حكم إقليم وتسلطه على إقليم آخر مما تحاولون إثارته من حزازات العصبيات الإقليمية — فهذا أمر ليس بمنظور إليه .

والشاعر هنا يُنَحِّى أمرَ العصبية جانباً ، ويقصر الأمر على جوهر وجوب الطاعة بالمبايعة لخليفة الإمام ، وعدم المخالفة له أو الخروج عليه استناداً إلى دعاوَى باطلة أو ادعاءات لاتَقْدح فى صحة بيعته .

ثم يفنّد الشاعر زعم أهل الشام بادعائهم المساواة فى المكانة والمنزلة بين الخليفة « على » والوالى « معاوية » لدى مجتمع الأمة من حيث إمكان الموازنة بين الشخصيتين فيثبت أن البَوْن بينهما شاسعٌ ، وإمكانية التناظر بينهما مستحيلة .

فهـذا أمر لا يقرُّه عليه أحد ، ولا يُقْبَل فى عُرْف مجتمع الدولة الإسلامية القائمة على التقييم للشخص على قدر عمقه وأصالته وضخامة أرومته فى الإسلام . من أجل هذا ينْعى الشاعر عليهم ارتكاب هذا الخطأ فيبكّتهم قائلا : (ألا تَسْتَحوا) ؟!!

بناء على اعتبار أن ادعاء التناظر أو التساوى فى المنزلة بين هاتين الشخصيتين أمر داعٍ إلى الخجل ، ولا يقول به إلا مَنْ عُدِم الحياء .

ثم يُتبِع الشاعرُ ذلك سَوْق الحيثيات المعظِّمة لقدر « على » الخليفة فى الإسلام ، والمُنْبِهة لمكانته إلى حيث لا تباهَى أو تُضارع — والتى من أجلها رماهم بانعدام الحياء :

(ا) فـ « على » أعظم شخصية بعد الرسول عليه السلام والمقدَّم من بينهم (أول الناس من بعد الرسول) .

(ب) و « على » صِنْوُ الرسول لأنهما أبناء أبٍ واحد — بينهما تمام التماثل فى الشَّرَف والأصالة فى بيوتهما القريبة ، ويَسْموان بها عُلواً فى أصل قريش .

(جـ) و « على » له منزلة عظمى وشرف أكبر يُعليانه على غيره فى مجال التنظير والموازنة ، فله عَلاوة على قرابة الدم شرف المعاصرة للرسول عليه السلام .

(د) و « على » ليس له مَنْ يماثله شجاعة وإقداما فى الحروب المروِّعة .

النزاع بين أتباع الخليفة

بين « جرير » و « الأشتر »

الموقف السياسي: لما رجع المبعوث المفاوض «جرير» بما رجع دون إقناع لوالى الشـام وأهلها ، وكانت عودته قد تأخرتْ واستطالت واستُبطِئَتْ — نشأ موقف بين الموالين للخليفة الإمام كان له تأثيره المضعف للجبهة الموالية له ، والذى يمكن أن يقال فيه إنه قد فتح باب شرٍّ خطيرٍ مضيِّع بما أنهضه بينهم من التَّلاحى والتنازع المفرِّق للصفوف والمُوهِن للقُوَى ، والمُذهِب للروح المعنوية من بين جماعة تتأهب للقتال ، والمُفتَرَض فى حقهم أن يُخرِسوا الألسنة ويُسكِتوا مثل هذه الأصـوات التى تُردِّد النغمة المقيتة للنزاع فى الرأى الذى أغرقهم فى منازعات لا تُحْسَم حول كل شىء ، ولم يحسمها الخليفة الإمام فى حينها مما أدى بها إلى التصاعد فى السوء حتى بلغتْ حد التأثير فى الموقف العسكرى ، ومثَّلتْ خطراً ذهب بالنصر فى « صفين » فيما بعد ! .

والجانب الخَطِر فى هذا التنازع :

(أ) أنه لم يُحْسَم فى حينه بحيث تختفى كل نغمة ونبرة يمكن أن تصدر عنه من غير المختصين للفصل فيه ، وإنما تُرِك ليستشرى حتى يشمل الخوض فى الأمور السياسية والدينية والعسكرية حتى بلغ حد الخيانة العظمى بإلقاء الجند للسلاح وترك المعسكرات بناء على آراء

شخصية لم يتم عليها إجماع مما أضاع نظام الضبط والربط وسرّب الجند حتى غدا الخليفة القائد دون جيش يحارب به ، وانتهى الأمر ببعضهم إلى الخصومة معه والخروج عليه والتآمر ضده وأخيراً أودى به ضحية لِقَلاح كان يتحتّم إخماده فَوْر شبوبه — وتلك كانت مسئولية الخليفة الإمامَ ولاشك !!!

(ب) لقد تُرِكَ المجال للتنازع بين أتباع يتحتّم عليهم ، ويحتّم عليهم موقفهم التريُّث انتظاراً للقول الفصل يَصدُر من الخليفة صاحب الرأى الأول والأخير فى الحسم فى كل مايدعوهم إلى التنازع والملاحاة ، وماعليهم كرعية غير السمع والطاعة لما يَصدر عن الخليفة مادام قد حُسِم بالعدل ولكن تُرِكَ الأمر مشاعا يخوض فيه غير المختصين يخطِّئ بعضهم بعضاً ، ويسفّه بعضهم رأى بعض ، وعمّت فوضى سياسية فى الآراء ، ولم يُعطوا الإمام الفرصة ليصدر حكمه السياسى ، ولم يسمحوا لكلمته الفاصلة أن تأخذ طريقها لتوقف نزاعهم عند حدّه فى اللحظة المناسبة ، فخلقوا نزاعاً سياسيا داخليا أَوْدى بجيش الإمام وحقه ، ولم يتركوا ماللخليفة للخليفة ويلزموا حدّهم كأتباع ورعية .

وبهذا — انفتح باب التنازع البغيض فى صفوف الموالين للإمام — ولما لم يُغلَق ذلك الباب اللعين أو يُسَد فى حينه فقد غدا باب شرٍّ يزداد اتساعا ، واندفعتْ منه رياح النزاع السياسى عاصفة عاتية بحيث استحال إغلاقه فيما بعدُ واستعصى على أى قوةٍ تحاول التصدي لإغلاقه مما نجم عنه الضياع لحق صاحب الحق خسارة فى خضم السياسة بلاهزيمة فى ميدان القتال والحرب !!!

لقد رجع المبعوث « جرير » فترددت الأحاديث عالية ، وكثر لغط الناس يتهمونه بالميل إلى الوالى « معاوية » من بعد أن طالت غيبته عنده .

لقد بدأ اللغط طعْنا على « جرير » بأنه ما كان أهلاً لأن يحمل مسئولية هذه المهمة من لدن الخليفة فنجد « الأشتر » وقد اجتمع هو و « جرير » عند الإمام يقول له :

« أما والله يا أميرَ المؤمنين — لو كنتَ أرسلتَنِى إلى « معاوية » لكنتُ خيراً لكَ من هذا الذى أرْخَى خِناقه ، وأقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو رَوْحَه[1] إلا فتحه ، أو يخاف غمَّهُ إلا سدَّهُ »[2] ؛

إذن — لقد اتّهم « الأشتر » « جريرا » بأنه : الضعيف الذى لم يقو على شدِّ وِثاق الوالى « معاوية » وأطال المُكْث عنده مما هيأ له الراحة وأعطاه الفرصة للتخلص مما يتهدده به الخليفة .

وتعليقنا على هذا الكلام أنه قد جاء فى غير أوانه ؛ فقد انقضى وقت المشورة وبذل الرأى فيه ، والاعتراض عليه .

هذا — مع صدوره من غير مختص فى شأن اختيار المبعوثين المفاوضين — فحق تلك الآونة — الحق السياسى للخليفة وحده ينتقى مبعوثيه طبقاً لما يعتقده فيهم من إخلاص وصلاحية للمهمة الموكولة إليهم — كما أن « الأشتر » قد زكّى نفسه بأنه الأكفأ فى الابتعاث

(١) يجد فيه راحته

(٢) وقعة صفين ص ٦٠

للمفاوضة فى وقت هو الأجهل بأحوال الخصم ومواقفهم وقدراتهم فى إقليمهم — حيث تنقصه الصورة الواضحة الناتجة عن القرب والرؤية والاحتكاك والتفاعل بالأحداث هناك — فكيف يمكن تدبير حل سياسى على عَمًى ربما لا يتمكافأ أو يتَّسق والمواقف والأوضاع التى عليها الإقليم فى الشام نتيجة لانعدام الرؤية السليمة لحقيقة الأحداث والجهل بها ؟! .

ويَنبَرى « جرير » للدفاع عن نفسه إزاء ما يُتّهم به من عدم الكفاءة فى مهمة سياسية خطيرة كان فيها رسول الخليفة ومبعوثه المفاوِض إلى الوالى « معاوية » فى وقت هو من أحرج الأوقات وأدقها فى حياة كلٍّ من الخليفة والوالى الرافض لبيعته فيما عرَض لهما من أوقات حرجة — وما كان أكثرها فى تلك الفترة !!

فقد كان يترتب على ما يُتّخذ فى تلك الآونة من قرارات أمْر السلم أو الحرب بين الخليفة والوالى — أي نشوب حرب أهلية تَعُمُّ الأمة الإسلامية بأسرها ، وتُقرِّر مصيرها إلى آمادٍ طويلة .

ويدافع « جرير » عن نفسه فيقول لـ « الأشتر » :

« والله ـ لو أتيتَهم لقتلوكَ ـ وقد زعموا أنّكَ من قَتَلَة « عثمان » ثم خوّفه بأشخاصٍ حدّدهم بأعيانهم هم : عمرو وذو الكلاع وحوشب بن طُخَمة.

ولم يكن لدى « جرير » من تبرير لما اتُّهم به سوى أن يخوِّف « الأشتر » مغبة القتل نتيجة اتهامه بالتهمة التى قد غدت ناجزة (تهمة الاشتراك فى قتل « عثمان ») يمكن توجيهها وإلصاقها بكل شخص

يُرغَب في التخلص منه حتى عند الخليفة « على » وبين الموالين له ، وفى منطقة نفوذه !!! ولئن ساغ لأهل الشام أن يَرموا بهذه التهمة الموالين للخليفة « على » فلا يَسوغ لأتباع الإمام أن يَرْمِى بها بعضهم بعضا .

والواقع أن رد « جرير » لم يكن جديراً صدوره من المثّل السياسى للإمام فى أخطر مهمةٍ واجهته ، ووقفتْ حائلا بينه وبين فَرْض سيطرته الكاملة على سائر أطراف الدولة الإسلامية كخليفة شرعى بويع له .

ولم يحاول « جرير » أن يُبرز كفاءته فى أداء المهمة التى وُكِلتْ إليه — الأمر الذى طعَن عليه من قبل « الأشتر » فى صميم كفاءته الشخصية وقدرته على إدارة دقة المفاوضات مع الوالى وتوجيهها لصالح الخليفة .

ومما لاشك فيه أن الكفاءة الشخصية ، والقدرة على حسن التصرف طبقاً لما تُمليه تطورات المواقف والأحداث — أمران لايُضْمَن توافرهما فيمن يُنْدَب لمثل هذه المهام السياسية الخطيرة و« جرير » بردّه الآنف على « الأشتر » كشف عن أنه قد تجرّد من أخص خصائص المبعوث المفوَّض السياسى الذى يُرْجَى له التوفيق فى أداء مهمته — حيث لم يحاول أن يصحّح موقفه ، وَينْفى مااتُّهم به ، ويثبت جدارته ، وإنما اكتفى بإشهار سلاح التهمة اللّعينة فى وجه « الأشتر » عَيْنِ السلاح الذى اعتمد عليه الخصوم مِنْ أهل الشام ، واتخذوه تكأةً للطعن على الإمام والموالين له من سائر معارضيهم .

ويكون « جرير » بردّه الجوابى هذا قد أثبت مِنْ طَرْف خفى للمناوئين أن سلاح التهمة هذا (سلاح تهديدىّ خطير) يمكن أن يُرْمَى

به كلُّ فرد، ويُوَجِّه إلى كل معارِض فيطيش صواب الجميع، ويُفقِدهم توازنهم — مما دفع به إلى الاستشراء فيما بعد، واعتُبِر قضية كبرى فرّقتْ بين جماعة المسلمين — يُعلنها كل من يحاول أن يظهر نفسه أنه يقف إلى جانب المناصَرَة للحق حتى وإن كان يروم من ورائها أموراً أخرى لا تَمَسّ وجه الحق، ومن هذا القبيل ما كان من إشراع أصابع تجاه الإمام تَرميه بالتهمة هو ومن تابَعه دون بيِّنة ولا دليل، ثم عظُم الخطب من بعد أن تبين أن التهمة سلاح قاتل؛ فأصبح مجرد الزَّعم على أى وجه كان بأن فرداً مّا متهم على صورة لم تتضح أبعادها غَدَتْ كفيلة بأن يضع نفسه فى موضع الإدانة والمطارَدة والمطالبَة بالقصاص منه من جماعة المنادين بالقصاص مِنْ قَتَلَة « عثمان ».

وعلى الرغم من أن الحُكْم التشريعى فى القصاص يقضى بالتحقق من وضوح الصورة التى تَمَّتْ عليها الممارسة للجُرْم حتى يمكن إيقاع القصاص المعادل المكافىء للجريمة على بصيرة تَنْفِى أىَّ شكٍ يَدْرأ الحد — غير أن الأمر هنا أصبح رَهْناً بمجرد الزعم بالمشاركة على أىّ صورةٍ كانتْ !!.

ومهما يكن من اعتبارات فى إجابة « جرير » فقد كشفتْ عن عظائم خطيرة ما كانتْ مُدْرَكة مِنْ قبل :

أولاها : ظهور سلاح التهمة بالمشاركة فى مقتل « عثمان » وتَبيُّن خطورته.

ثانيها : اتجاه أصابع الاتهام إلى الإمام « على » وأتباعه ورَمْيهم بها.

ثالثها : الاستغلال الشخصي لسلاح التهمة في الإرهاب للخصوم ، وسهولة الرَّمْى به مَنْ يُقْصَد الإيقاع بهم ، والاكتفاء في إثبات التهمة بمجرد الزعم ! .

ولما لم تسكن إجابة « جرير » بشافية شيئا ما في نفْس « الأشتر » حيث تفلَّتَ من الإجابة المقنعة واتجه إلى التحذير له من القتل بناءً على الزعم المُفْتَرَض غير أن « الأشتر » لم يُفْلِت « جريرا » من إجابته المتهاوية عن التهم التي لحِقَتْ به — وإنما أمسك بتلابيبه ، وألَحّ على ملاحقته قائلا :

ولو أتيتُه والله يا « جرير » لم يُعْيِنِي جوابُها ، ولم يثقُل عليَّ مَحْمَلُها ، ولحملتُ « معاوية » على خُطَّة أُعْجِله فيها عن الفكر »

ويبدو أن « الأشتر » كان واثقاً من نفسه أنه كان الأجدر بتمثيل الإمام ، والتفاوض نيابةً عنه ، فقد أوضح أنه الكُفْء الذي يستطيع أنْ يرُدَّ التهمة ، ويُبْطِل الزَّعم ، وأنه الأقوى على تحمل أعباء تلك المهمة ، والأشد تدبيراً وإدارة لدفة المفاوضات بحيث يمكنه التأثير على الخصم وإرْباكه وإفقادُه الفكر السليم ما يضطره إلى الانْقياد والموافقة لما يمليه عليه دون معارضة — لما يتمتع به من مقدرات تجعله الأقوى على التطويع والترويض للخصم مما يميل به إلى ما يقتضيه الخليفة ، أو بإفساد خُطط الوالي السياسية وقَلْبها عليه بحيث يَلْزمه الانقياد لما رَسَم له « الأشتر » وكل هذا يتم في مرونة تتسق وكل موقف يَقِفُه الخصم .

إن « الأشتر » يثق بنفسه ، ويضفى الكفاءة على شخصه ، ويظهر مقدرته على المناورة والمداورة إزاء الأحداث المتغيرة .

والثقة والكفاءة والمرونة هى العناصر الأساسية التى لا بدّ من توافرها فى شخص أى مبعوث سياسى مفاوض وخاصة إذا كان مُرْسَلاً إلى أدهى من عُرِف من العرب ، ولم يحر « جرير » جواباً على « الأشتر » الواثق من نفسه سوى أن يقول . فانْتِهم إذن — ويتدارك « الأشتر » الأمر ويعلم أن هذا الإتيان قد مضى أوانه ، ولم يكن ليصلح بامكانياته هذه إلا عند المبادأة فى النزاع قبل أن يستفحل فيغدو مخاصمة ومعاداةً وإنذارا بالحرب !!!

لذا — نراه يرد قائلا :

« الآن وقد أفسدتهم ، ووقع بينهم الشر ؟!!! »

مُلاحاةٌ بحضْرة الخليفة

لقد رجحتْ كفة « الأشتر » كفاءة كانت تحتم أن يكون هو الأولى بأن يكون هو المبعوث السياسى المفاوض والممثّل للخليفة « على » لدى الوالى « معاوية » طبقاً للنتيجة التى انجلى عنها النقّاش الحاد الذى استحكم بين « جرير » و « الأشتر »

ولم يحاول « الأشتر » أن يقف فى حواره الحاد عند حد المواقف التى عابها على « جرير » وانتهى من الناحية العملية وقت النقاش حولها حيث انعدم التّأميل فى أىّ جدْوَى فيها وخاصةً بمثل هذه الحدة والعنف ؛ فالرسول قد أُنْفِذ وعاد خاوِى الوفاض ، وقُطِعَتْ المفاوضات ، وأُعلن

الانذار بالحرب من قِبَل الوالى « معاوية » .

ومِثْل هذا الموقف كان يستدعى كلَّ من يحاول أن يُدْلِى برأيه فيه أن يدور به حول المواقف المقبلة ، واحتمالات الأحداث المنتَظَرة .

ولكن « الأشتر » بدلاً من ذلك نجده يمسك بعنف بتلابيب « جرير » ولا يُفْلِته ، ويطعن عليه أمورا خطيرة !

فعندما اجتمع « الأشتر » و « جرير » عند الإمام نرى « الأشتر » وقد انبرى فى هجوم قاسٍ على « جرير » فى حديثه الموجَّه إلى الإمام حيث قال :

الأشتر (للإمام) أليس قد نهيتُكَ يا أميرَ المؤمنين أنْ تبعثَ « جريراً » وأخبرتُكَ بعداوته وغِشِّه ؟ (١)

ثم يتوجه بحديثه إلى « جرير » شاتما إياه فقال :

الأشتر (لجرير) يا أخا بَجِيلة (٢) : إنَّ « عثمان » اشترى منكَ دِينَكَ بـ « همدان »

واللهِ ما أنتَ بأهلٍ أنْ تمشىَ فوقَ الأرضِ حَيّاً — إنما أتيتَهم لتتخذَ عندهم يَداً بمسيركَ إليهم ، ثم رجعتَ إلينا مِنْ عِندهم تُهَدِّدنا بهم وأنتَ واللهِ منهم ، ولا أرى سَعْيَكَ إلاَّ لَهُمْ ، ولئن أطاعنى فيكَ أمير المؤمنين ليحبِسنَّكَ وأشباهكَ فى مَحْبِسٍ لا تخرجون منه حتى تَسْتَبِينَ هذه الأمور ، ويُهلِكَ الله الظالمين .

تعليق :

وقولة « الأشتر » هذه لم تكن إلا سِهاماً مسمومة صوَّبها إلى

(١) وقعة صفين ص ٦٠ (٢) قوم جرير بن عبدالله البجلى

« جرير » مُتَّهِماً إياه بأسوأ تُهَم يمكن أن توجَّه إلى مبعوث سياسي مفاوض يمثِّل الخليفة الإمام .

(أ) فهو عدوٌّ غاش — وفى هذا تجريد المبعوث من الإخلاص لإمامه ، ومن الوضوح والصراحة فى تعامله معه ؛ وهذا يعكس سوء الاختيار لشخص المبعوث لانعدام كفاءته ، وبالتالى طعنَ على من اختاره ! !

(ب) وهو مُتَّهم فى دِينه بالضعف — حيث قد أُجِرَ عليه من « عثمان » وضَعْف الدِّين يفتح الباب واسعاً لِيلج منه مُنْدفعا الضعف الخلقى : مِنْ إمكان المعاداة مع قيام المصاحَبَة ، ومن إمكان الغش والخِداع مع إظهار الولاء والمتابعة .

(ج) و « جرير » مُتَّهم أيضا بالتواطؤ مع الوالى « معاوية » والعمل على انتصاره فى خصومته السياسية للإمام .

إذن — فهو بالتالى خائن للخليفة « علىّ » فى قضية نزاعه هذا !

ولما كانت الخيانة السياسية وعلى الأخص أثناء الحرب ليس لها من عقوبة سوى الإعدام . لذا — نرى « الأشتر » يُصْدِر حكمه الآكد بأن « جريراً » ليس بأهل أن يمشى فوق الأرض حيا .

حيث قد ثبتتْ خيانته كما يَرَى ، وصح عداؤه لإمامه بعمله وفق مصلحة خصومه المنازعين له . لذا — لا يرى « الأشتر » مَفَراً من أن يواجهه بحكمه القاسى : « أنتَ واللهِ مِنْهم »[1]

(١) راجع نص الرسالة ص ٦٠ وقعة صفين

كما يدمغه بالخيانة للخليفة الإمام فى كل مَسْعى يقوم به ، ويمثِّل ذلك بحيثيات يراها باعثة على إصدار ذلك الحكم :

(أ) فـ « جرير » قد رجع يهدِّد الإمام وأتباعه بقوة الوالى معاوية ومن تابعه — وفى هذا إضعاف للروح المعنوية فى جانب الخليفة الإمام وتهويل فى قوى الخصم المنازِع كفيلٌ بأن يمنحه سلاح نَصْرٍ أمْضى وأرهف .

(ب) و « جرير » فى رأيه لم يكن غير نَهَّاز للفرص يبغى النفع الشخصى من وراء قيامه بهذه المهمة السياسية الخطيرة كممثل للإمام — على الرغم من وضوح ضعفه ، وقلة غَنائه فى النهوض بها .

وينتهى « الأشتر » حملته على « جرير » بمطالبة الخليفة « على » بحبسه حَبْسا مطلقاً ، وعدم إفلاته هو ونظراؤه من الخونة إلى أن تتضح الأمور بهلاك الخصوم الذين يقفون فى وجه إحقاق الحق .

وأخيراً — يتذكر « الأشتر » بأنه فى حضرة أمير المؤمنين صاحب الحق الأول فى اختيار مبعوثيه السياسيين، وصاحب الكلمة الأولى التى تحسِم الأمور ، وتُقَيِّم النجاح والفشل فيما يَكِلُه إلى مُمَثِّليه من مهمات وتُصْدِر الأحكام تبعاً لذلك .

وهنا — يتَّجه « الأشتر » إلى الخليفة الإمام طالباً منه السماح له بإيقاع عقوبة الحبس المطلق على « جرير » فيقول : « لئن أطاعنى فيك أمير المؤمنين » .

وهو هنا يصدر الحكم بناء على التقييم الذى ارتآه ، ولا يترك ذلك لصاحب الرأى الأول والأخير وهو الخليفة « على » أمير المؤمنين !!! .

و «الأشتر» بصنيعه هذا يمنح نفسه حق الخوض فى مسائل سياسية عليها ليس مُفوَّضاً للخوض فيها إلا عند طلب الرأى فى ذلك إن كان من ذوى الرأى فيه — ولكنه تعدَّى ذلك إلى حق إصدار الحكم بالإعدام ، ثم التخفيف له والا كتفاء بالحبس المطلَق إلى أن تنتهى الحرب .

ولم يكن لـ « جرير » من جواب يدفع به عن نفسه التهم التى وجهت إليه بحضرة الإمام غير أن يقول :

جرير — وَدِدْتُ واللهِ أنَّكَ كنتَ مكانى بُعِثْتَ — إذن واللهِ لم ترجع .

ويبدو من رد « جرير » أنَّ مهمته كانت قاسية صعبة لدى الوالى « معاوية » حيث تمنى لو كان الابتعاث والتفاوض قد تم لأى شخص آخر بدله — ليعفيه من ثِقل هذه المهمة ، وليدرك مقدار العنَت والمشقة فيها ، الأمر الذى لم يُقَدِّر فيُحْمَدَ له — ولو كان الإرسال قد تم لمثل « الأشتر » لما كانت له عَوْدة .

إن « جريرا » يعبِّر عن قسوة المهمة السياسية التى نهض بها ، وحقق فيها مالا يمكن لأحد أن يحققه إخلاصاً منه للخليفة الإمام ، واستمسا كا بحقوقه ، ولو غيْر « جرير » حاول ذلك لاضطُر إلى دفع حياته ثمناً ؛ فالأوضاع السياسية فى الشام لم يطلع عليها ويُلِمّ بها غير « جرير » وقد عالج مجْرياتها طبقاً لأصلح الوجوه الممكنة ، وقد كانت منه المرونة الكافية التى أبلغته أقصى ما يبلغ وعاد سالما .

وإذا كان التقييم لمهمة « جرير » يستدعينا الحكم عليها بالفشل غير أننا لا نستطيع أن نغفل القول بأن هذا الفشل يحمل فى طياته

الدلالة على حال الوالى المنازع فى الشام وهو أنه قد صمَّم على نَيْل غرض معيَّن من وراء نزاعه هذا - اعتماداً على أنه صاحب الحق فيه ، وفى سبيل ذلك لن يدع لأحد فرصة الوقوف فى طريقه ، أو محاولة الحيلولة دون بلوغ هـــدفه .

وقد اختط لنفسه من أجل تحقيق ذلك أسلوبا سياسيا عماده (اللاينة) ومحاولة الاجتذاب للمناوئين إطماعا لهم فى شيء من الدنيا التى بين يديه ومن لم تفلح معه المُلاينة فالقتل للخلاص منه ولو كان المناوىء المناهض مبعوثاً ممثِّلا للخليفة الإمام « علىّ » .

ومهما يكن من أمر المُلاحاة التى تمَّتْ بمحضرٍ مِنَ الخليفة الإمام اعتماداً على الحرية المُطلَقة فى إبداء الرأى التى كانت مكفولة إلى أبعد حد فى ظلال الدولة الإسلامية فى عصر الراشدين فقـد فتحتْ باب الشرِّ والنزاع والفُرْقة الذى أدَّى إلى التفتُّت والتفلت لقُوَى جيشِ الإمام وأخيراً انتهى بإذهاب حق صاحب الحق وإضاعته ، وقُضِى بصورة نهائية على عصر الخلافة الراشدة ، وكان ذلك نتيجة للحرية المطلقة السَّراح للتدخل بإبداء الآراء فى أمور سياسية عُلْيا يستعصى الإدراك لأبعادها على الشخص العادى ، وتحتاج إلى الحسْم فيها بآراء المختصين ، ووقف إصدار الأحكام بخصوصها على رأس الدولة وحده !!!

وقد نجم عن عدم الحسم فى ذلك أن امتدتْ تلك الحرية فشمِلتْ إبداء الرأى فى أمور عقائدية ، وتميَّعتْ حتى لم تَبقَ لها حدود ولا رسوم تحكمها أو تُحْكِم تصرف الشخص فى حدودها !!!

لقد كانت مُلاحاة « الأشتر » لـ « جرير » بحضرة الإمام أمراً طبيعيا من ناحية إبداء الرأى بكل حرية جرياً على عادة المجتمع الإسلامى فى تلك الفترة ـ غير أن أحوال المجتمع كانت قد اختلفت فى آخر عصر الراشدين عنه فى أوّله ـ بما كان يستدعى التدخل من رأس الدولة بوضع حدٍّ للتدخل فى النقاش السياسى لعظائم الأمور فيُقْصَر على المختصين أو المفوضين فيه ، وخاصة إثْر فتنةٍ عارمة عمّتْ شرورُها سائر أنحاء الدولة الإسلامية ، وأدّتْ إلى الاغتيال السياسى للخليفة « عثمان » .

ردود فِعْل المُلاحاة

الموقف السياسى : كان من النتائج المباشرة للملاحاة « الأشتر » لـ « جرير » والاتهامات التى وُجِّهتْ إليه بحضرة الخليفة الإمام أن اعتزل جماعتهم ، ولحق بـ (قرقيسيا) ولحق به أناس من قومه ، ولم يشهد (صفين) من قومه الأقربين غير تسعة عشر رجلا[1] .

وكان رد الفعل لدى « الأشتر » نتيجة تخويف « جرير » له مغبة القتل لو كان قد أُنْفِذ مبعوثاً مفاوضا إلى الوالى « معاوية » وخاصة أن هناك شخصيات تُحْسَب حسابها تُعاديه[2] ، وتتحرّق شوقا لاقتناصه وقتله من بعد أن أُلصِقتْ به أنه من القتلة للخليفة « عثمان » .

فما كان أن ثارتْ ثائرته لهذا التخويف الذى جُوبِه به واعتبره تَوْلاً

---

(١) راجع وقعه صفين ص ٦٠

(٢) ذو الكلاع ، وحوشب بن طخمه .

من شجاعته ، فما كان منه إلا أن انبرى يَرُدُّ على حملة الإرهاب والتخويف التى وُجِّهت إليه من « جرير » شعراً فقال :

لَعَمْرُكَ يا « جرير » لِقَوْل « عَمْرٍو » وصاحبه « معاوية » الشآمى
و « ذى كَلَع » و « حَوْشَب ذى ظليم » أَخَفُّ علىَّ من زَفِّ النَّعام[1]
إذا اجتمعوا علىَّ فَخَلِّ عنهم وعَنْ بَازٍ مخالبه دَوَام[2]
فَلَسْتُ بخائفٍ ماخوَّفونى وكيف أخافُ أَحْلامَ النِّيام
وهَمُّهم الذى حاموا عليه مِنَ الدنيا وهمِّى ما أمامى
فإنْ أَسْلَم أَعُمُّهم بِحَرْبٍ يَشيب لهولها رَأْسُ الغلام
وإنْ أَهْلِك فقد قَدَّمْتُ أمْراً أَفُوزُ بِفَلْجة[3] يوم الخصام[4]
وقد زَأَرُوا إلىَّ وأَوْعدونى وَمَنْ ذا ماتَ مِنْ خَوْف الكلام ؟

البيان الأدبى :

قصيدة « الأشتر » بتمامها موجّهة إلى الرد على التهديد والتخويف الذى وجهه إليه « جرير » صادرا عن والى الشام « معاوية » وأتباعه ممن وقفوا إلى جانبه ، وعلى الأخص منهم من أمثال : « عمرو » و « ذى كلع » و « حوشب ذى ظليم » .

---

(١) خفيف صغار ريشها .
(٢) ملطخه بالدم لكثرة الافتراس .
(٣) للنصر .
(٤) يوم القيامه .

و « الأشتر » هنا يُبدى أنه لم يعد مبالياً ، ولا يُلقى بالاً إلى التهديدات التى صدرتْ عنهم وحملها إليه « جرير » وعــدم المبالاة بتهديداتهم إنما يعود إلى أنها تهديدات ليستْ بذات أثر مخيف أو مرعب يمكن أن يُحْسَبَ حسابه نتيجة لما يمكن أن يتوقع من ورائه من الإيقاع به .

وقُصارَى ما يحسه الشاعر « الأشتر » لذلك هو انعدام التأثير المخيف لتلك التهديدات ، واعتبارها جوفاء خالية من مضمونها المرعب لأن قوى الإيقاع الكامنة من ورائها تافهة لا يُعتَد بها ، وغاية التقييم لها فى إحساس الشاعر أنها تتعادل وزناً مع زَغَب ريش النعام الذى لا يُحَسّ له أى وزن ، وبالتالى فلن تعنى تهديدات خصومه له غير أن تكون التفاهة بعينها فى تأثيرها الفعلى عليه .

ويستمر « الأشتر » فى بيان أنه لا يكاد يحس خوفا مما يتهدده به خصومه الشاميين من القتل فيأتى باستفهام بالغ الدلالة فى هذا المعنى :

وكيف أخاف أحلام النيام ؟!

حيث يُظهر أن تهديداتهم له لا تعدو أن تكون مجرد أحلام طافتْ بعقول خصومه وهم نيام فأحسّوا لها الراحة نتيجة لما خُيِّل إليهم فى أحلامهم أنهم قد اشتَفَوْا بالنيل منه قتلاً - غير أن تلك الراحة لم تلبث أن تبددت بانقضاء الأحلام فإذا بهم يواجهون واقعهم المرير بأن « الأشتر » لم يزل حيا يرزق يقف نِداً معارِضا لهم ، ولم ينالوا منه مَقتلا .

إذن - تأميلهم فى الخلاص منه يُعَدّ أمراً لا يحدث إلا فى عالم الأوهام

التي تطوف بعقول أصحاب أحلام اليقظة أو المنام على سبيل التأميل ، ولن يكون لها تحقق في الواقع ، ثم ينتقل الشاعر إلى بيان أن مُتَهَدِّديه ممن خُوِّف بهم من أتباع والى الشام ماهم إلا جماعة من أصحاب المآرب والأغراض ، فكل همهم الدنيا بما فيها من متاع ينشدونه ، واتخذوها محورا غرضيا يدورون حوله .

ويبدو أن الشاعر قد صوَّر الدنيا التي جمعت بينهم وصارت أكبر همهم بأنها جيفة نَتِنة متفسخة — لا يدور حولها ويقع عليها ، ويتقاتل بغية النيل لشيء منها غير أكلة الجيف من الحدأ والغِربان — بدليل استخدامه للفظ (حاموا) المشعر أنهم طيورُ جِيَف !!!

وبهذا يكون الشاعر قد أجرى تقييما لخصومه الشاميين بأنهم طلاب دنيا وليسوا بطلاب حق ، وأصحاب نَفْع وغرض يميلون إليهما وليسوا بأصحاب مبادىء يستمسكون بها ، فغاية مأملهم دنيا يدورون حولها أملا في اهتبال فرصة تتيح لهم نهشه ، أو الاختلاس أو الاختطاف إن أمكن لشيء منها — كيفما تهيأتْ الظروف ، وأتيحت الفرص للمتطلعين إلى النَّهْش من جماعة طلاب الدنيا ! .

وفي الوقت الذي أفصح فيه « الأشتر » عن همّ خصومه من أصحاب الأغراض من أنهم حُوَّم الدنيا — نراه قد كشف في المقابل عن همّ نفسه هو الآخر — وهو ما يمثل أمامه من مهام تشغله (وهي ما أمامي) وما أظن له من مهامّ مقبلة تشغله وتمثل أمامه غير مستقبله ومستقبل إمامه في الأيام القليلة القادمة التي ستحسم الموقف بين الخليفة الإمام المبايَع له ،

ووالى الشام المنازع الذى لم يبايع ، وما يمثل أمامه أيضاً من وضوح الحق إلى جانب الإمام ، وتملق منازعيه بالباطل وميلهم إليه ، ويمثل أمامه الفوز برضى الله فى الآخرة بوقوفه ومؤازرته للإمام صاحب الحق. ولو أدى ذلك إلى هلاكه بالتضحية فى سبيله دفاعاً عنه ، واطمئنانا إلى صحة سلامة موقفه معه .

وبناء على ماوضح للشاعر واطمأن إليه من أنه يقف إلى جانب الحق مع إمامه لذا - نراه يعد نفسه لحرب لايدرك لهو لهامدى - حيث ذكر أن هولها كفيل بإشابة رءوس (الغلمان) ممن هم فى سن صغيرة لم تجر العادة على رؤيتهم ذوى شيبة - اللهم إلا إذا صادفتهم الكوارث المهولة من أمثال تلك الحرب المتوقعة .

ولفظ (أعمهم) يشير بالخطورة الحربية للشاعر فهو وحده كفيل بشن حرب تعم سائر الخصوم من متهدديه ثقة منه بنفسه ، وكفاءته فى مجابهة خصومه بمفرده ، وكل هذا إذا صدق حدس الشاعر وكتبت له السلامة ليشهد تلك الأيام كما يتمنى .

ويبدو هذا من تعليقه لخطره الحربى الذى يتهدد به خصومه على شرط (السلامة) فى قوله : إن أسلم ، ويستمر الشاعر مطيلاً نفسه فى استغراق سائر الافتراضات الأخرى إن لم يتحقق له شرط السلامة وهلك فيبين أنه يكون قد ذهب فداء للحق ، وسيحظى نتيجة لذلك بفوز أعظم فى الآخرة إن كان قد فاته الفوز فى الدنيا ، فهو دائما الفائز المنتصر فى الدنيا أو الآخرة ؛ وبانسحاب المعنى المنعكس على خصومه نجده

يدمغهم بالخسران دنيا وآخرة بطريقة غير مباشرة عن طريق لمح المعنى المنظور الذى يتراءى فى المقابل .

ويمكننا أن نستشف من البيان الوجدانى الذى أفصح عنه « الأشتر » مايلى :

(ا) أنه مخلص غاية الإخلاص للخليفة الإمام اقتناعاً منه بوضوح الحق إلى جانبه، ومجافاة الخصوم المنازعين له طمعاً فى نَيْل شىء من متاع الدنيا.

(ب) يكشف « الأشتر » الشاعر كفرد من أتباع الخليفة الإمام عن وَفْرة الحماس الذى يَغْمُرُ قلوبهم ، واستعدادهم للتضحية والفداء مع مَنْ يعتقدون أنه صاحب الحق .

(ج) مايزال العامل الدينى فى المجتمع الإسلامى هو الفيصل فى التمييز بَيْنَ الخبيث والطيب ، والحق والباطل .

فهو فى جانب الإمام المبايع له بيعة صحيحة عامة حق صراح نَبْعاً من الدين الذى يقضى بالطاعة لمن تمت له تلك البيعة ، ومن خالف ولم يبايع مهما يكن عذره اعتُبِر خارجاً ينبغى رده إلى صوابِ الحق بأى طريقة يراها الخليفة المبايَع له كفيلة بردِّه إلى حَوْزة الحق .

(د) استطاع « الأشتر » الحكم فى شعره على الخصوم المنازعين فى الشام بأنهم طلاب دنيا ، ولارعاية عندهم ولا وزن للعامل الدينى بناء على استخدامه لهذا العامل كفيصل يفرق به ويميز بين الصلحاء والطلحاء .

(ه)الحرب واقعة لامحالة بين الخليفة « علىّ » وأتباعه وبين الوالى على الشام « معاوية » ومَنْ معه .

وتلك هى النتيجة الحتمية التى انتهى إليها « الأشتر » طبقا لما يُستفاد من تعبيره : إن أسلم أعمهم بحرب ... فهو لن يشن حرباً بمفرده يخالف فى إشعال نارها رأى الخليفة الإمام ، وإنما سوف يشارك بكل قوة وعنف فى حرب يُعلنها الإمام ، ويتهيأ لها أتباعه بقوة مقاتلة يحشد لها جيش بأ كله يُجند فيه الجميع بحيث يفوق كفاءة جيش الخصوم المنازعين فى الشام .

وبناء على هذا نقول إن الرؤيا الشاعرية كانت صادقة الحس لدى « الأشتر » حيث راعى الأحداث رَصْداً ورتبها واستخلص النتائج من توقعات تداخلها ، وانتهى إلى حكم سليم مؤداه حتمية الحرب بين الخليفة والوالى المتنازِعَيْن من بعد أن عـلا صَوْتُ نفيرها ، وارتفع سيف التهديد بها .

ولم يـكن التهديد بأهل الشام الذى رفعه « جرير » فى وجه « الأشتر » مثيراً « للأشتر » وحده فقط ، وإنما وجدنا أثره يمتد إلى آخرين فتثور نفوسهم أيضا — فنرى الشاعر « السَّكُونى » وقد اهتاجه التهديد فأنشأ يقول :

تَطاولَ ليلى بالحبِّ السَّكَاسِكِ (١)

لِقول أتانا عن « جرير » و « مَالِكِ »

أجرَّ عليه ذيل « عمـرو » عَـدَاوة

وما هكذا فِعْلُ الرِّجال الحوَارِكِ (٢)

---

(١) حى من اليمن يُنسبون إلى أبيهم سكسك بن أشرس .

(٢) المدركون للأمور والفاهمون لها

فأعظِمْ بهما حَرَّى عليكَ مصيبة (١)

وهل يهلك الأقوامَ غيرُ التَّماحك (٢)

فإنْ تبقيا تَبْقَ العراق بغبطةٍ

وفى الناسِ مأوًى للرِّجال الصَّعالِكِ

وإلَّا فليتَ الأرضَ يوماً بأهلِها

تميلُ إذا ما أصبحا فى الهوالِكِ

فإنَّ « جريراً » ناصحٌ لإمامِه

حريصٌ على غسْل الوجوهِ الحَوالِكِ

ولكنَّ أمرَ اللهِ فى الناس بالغٌ

يحل منايا بالنفوسِ الشَّوارِكِ

البيان الأدبى :

لقد أوقد التهديد الذى حمله « جرير » عن الشام نيران العداوة الإقليمية بين الشام والعراق — وتلك هى النغمة الجديدة التى انطوتْ عليها قصيدة « السكونى » مما دعاه إلى التنادى بحب قومه اليمانين يناصرونه فى تلك الأزمة التى كثر فيها اللجاج والمشارّة وأصبحتْ تنذر بالهلاك إذا ماتصادم الإقليمان .

ويحاول الشاعر أن يُنصِف «جريراً » فى موقفه فيذكر أن المشاحنة بينه وبين «الأشتر» وسوء العلاقات ونذر الحرب المنبعثة بين الإقليمين لم تكن إلا بفعل « عمرو »

---

(١) مصيبة حارة شديدة (٢) اللجاج والمشارة

و « جرير » لم يكن إلا مخلصا فى مهمته لإمامه - حاول أن يزيل بالحسنى آثار النزاع السياسى التى نشبت بين المتنازعين — غير أن اشتعال العداوة بين القبيلين لم يكن غير قدر من الله أراده ليوقع النقمة بالمخالفين الحائدين .

« معاوية » وتحييد أهل مكة والمدينة

يبدو أن والى الشام قد أحس خطرا على موقفه فى نزاعه السياسى مع الخليفة الإمام، ويبدو أنه قد أدرك أن مبعث هذا الخطر يكمن فى الثقل السياسى لأهل الحرمين ، والذى لا ينبغى أن يتجاهله حصيف يحاول أن يتصدى للتعامل مع الرأى العام لجماعة المسلمين فى تلك الآونة ونحن مازلنا على مشارف الخلافة الراشدة حتى وإن كانت مشارف النهاية ، وخاصة ممن ماثل الوالى « معاوية » فى دهائه السياسى .

وليس من المستبعد أن يكون والى الشام ربما يكون قد أحس أن أهل الحرمين هم مع الخليفة « على » ميلا إليه فى غالبيتهم إن لم يكونوا جميعهم .

وما يزال لرأى أهل المدينة ومكة وزنه وقدره الخطر فى أى خلاف أو نزاع عام ينشب فى الدولة الإسلامية لصدوره من كبار الصحابة من أمثال « عبد الله بن عمر » وغيره — ممن لم يبرحهم التحول إلى البلاد المفتوحة فأقاموا راضين فى جوار الرسول ، وقريبا من بيته الحرام .

لقد كان الوالى « معاوية » يخشى أن يجبهه أهل الحرمين فى لحظة لا تناسبه برأى يضعف من مكانته فى نزاعه السياسى مع الخليفة « على » خاصة

أن النزاع بينهما دينى سياسى يتعلق بنظام الدولة والحكم فى الإسلام — مؤداه أن البيعة العامة لخليفة المسلمين تلزم أفراد الأمة بما فيهم الولاة حكام الولايات بالمبايعة له ، وإلا فليعتزلوا العمل لحسابه إن لم يكونوا فى رضىً شخصىٍّ عن خلافته ، ويلزمهم بعد ذلك أن يبايعوا كأفراد مواطنين عاديين وإلا خضعوا لعقوبات الممتنعين عن البيعة المقررة المقننة كنظام متبع منذ أن بدأ الأخذ بنظام الخلافة فى الدولة الإسلامية [1].

ومما لاشك فيه أن صدور رأىٍ لأهل مكة والمدينة فيما ينشب من نزاع فى دولة سياستها دينها ، ودينها نبع سياستها يكون فيه الترجيح .. لوجهة النظر التى يميلون إليها وبالتالى تميل إليها وتلتزم بها سائر البقاع فى الدولة الإسلامية .

وإزاء مايبدو من عامل الضغط والثقل السياسى الذى يمثله أهل الحرمين فى المجتمع ميلا إلى الخليفة الإمام يبرز مكافئًا له فى جانب والى الشام عامل الجدل السياسى بناء على بُعْد النظر ، واستغلالاً للدهاء فى توجيه دفة النزاع وأخذاً بالأحوط فى التعامل مع الخصوم المنازعين وذلك باستخدام سياسة التطويق للخصم ومحاولة تجريده من القُوى المتعاطفة معه والتى تمثل عنصر قوة له .

وهنا يدخل الوالى « معاوية » فى سلوك أسلوب التحييد لأهل مكة والمدينة عسام لايميلون إلى الخليفة « علىّ » إن استعصى عليه الجَذْب لهم تجاهه كُلِّيَّة .

وفور انقداح الفكرة فى ذهنه بدأ ممارسة التنفيذ لها ؛ فنراه قبل

(١) القتال لمن لم يبايع

بدئه المسيرة إلى (صفين) يسرع إلى « عمرو » يستشيره فيما اعتزمه من محاولة التحييد لأهل مكة وأهل المدينة قائلا فى حوار استشارى بينهما :

معاوية : إنى قد رأيتُ أنْ نُلقى إلى أهل مكة وأهل المدينة كتاباً نذكر لهم فيه أَمْرَ « عثمان » فإمّا أن نُدرك حاجتَنا ، وإما أنْ يكُفَّ القومُ عنّا .

عمرو : إنما نكتُب إلى ثلاثة نَفَر :

١ — راضٍ بـ « علىّ » فلا يزيدُه ذلك إلا بَصيرة .

٢ — أو رجل يَهْوَى « عثمان » فلن تزيدَه على ما هُوَ عليه .

٣ — أو رجل معتزل ؟ فلستَ بأوثَق فى نفسِه مِنْ « علىّ » .

معاوية : علىَّ ذلك !!

ومن المحاورة يتضح أن والى الشام قد حاول التحييد لأهل الحرمين معتمداً على استثارة الجانب العاطفى فى نفوسهم واستقطابه لحسابه وذلك بتوجيهه إلى المضادّة للخليفة «على» عن طريق تذكيرهم بمأساة الاغتيال للخليفة « عثمان » التى أُلقيَتْ مسئوليتها على البعض من أتباع الخليفة « على » دون تحديد بحيث يمكن إلقاء تَبِعتها على كل فرد منهم مادامتْ التهمة قد اتَّسمتْ بالشيوع ، ثم امتدتْ حتى تناولتْ الخليفة عينه ، ثم تضخمت وحُمِّل الخليفة « على » كل وِزْرِها ، وانتهى بها الأمر إلى أن صارت وصمةً عامة يمكن أنْ يُوصَم بها كل فرد يحاول أن يقف فى وجه للنازعين من أهل الشام ، أو تُشَمّ منه ريح التَصدِّى لهم .

ولم يعرف التاريخ تهمة مطاطة سريعة الانتقال والعدوى والتراى لشررها المتطاير حتى تلحق بكل من لحقتْ به من المسلمين مثل تلك التهمة

التى تميَّعتْ ، واستعصَتْ على التحديد والحصر لها فى فرد بعينه — ولربما كان التمييع لها على هذا الوضع قد قُصِدَ به التطويح للتهمة لتخدم المنازعين للخليفة حقه فى بَسْط سلطانه على سائر أرض الخلافة حيث قد مكنهم التمييع لها من التحكم بدقة فى توجيهها لِيُرْمَى بها كلُّ من يحاول قطع الطريق عليهم ليحول بينهم وبين تحقيق مأربهم السياسى فى ذاك — فتراهم وقد نصبوا من أنفسهم أولياء الدّم المطالبين بالقصاص للخليفة المقتَال . فى الوقت الذى يوجد فيه من هو أولى منهم بتلك المطالبة ، ثم توسعوا فى هذا الحق فوقفوا يوجهون سهام الاتهام بالاغتيال إلى كل من هم فى غير رِضىً عنه حتى ولو كان من أنقى الأبرياء وأبعدهم عن تلك التهمة .

وواضح من الحوار الاستشارى بين الداهيتين أن الوالى « معاوية » كان واثقا من الفائدة المرجوة من وراء تلك الكتابة إلى أهل الحرمين . حيث يرى نفسه وهو متراوح بين احتمالين كلاهما فى صالحه :

(ا) فهو إما أن ينجح فى استمالتهم إليه فعلاً ، وصرفهم عن الميل والتأييد للخليفة « على » وهذا يمثل عنده قمة النجاح المرموق — بدليل قوله : « ندرك حاجتنا » .

(ب) وإما أن ينجح نجاحاً جزئيا على أقل تقدير — وذلك ببلوغه هدف التحييد لأهل المدينتين بكفّ تأييـــدهم عن الخليفة الإمام ، ومضادتهم له بدليل قوله : « يكف القوم عنا » وهذا يمثل فى نظره نجاحا فى تخفيف ضغط جماعات التوجيه للرأى العام ليحس مُتنفساً مُريحا إذا ما نجح فى التفريغ لضغط أولئك من أصحاب الحَلِّ والعَقْد ذوى الرأى .

المسموع المعتد به بين جماعات المسلمين عامة الصادر عن أهل مكة وأهل المدينة .

ويبدو من التحليل بالتقسيم الثلاثى لحال أهل الحرمين الذى طرحه المستشار « عمرو » أنه قد أظهر ألّا جدوى من مكاتبة أهل المدينتين فى هذا الشأن حيث لا يُرجَى تحقيق أية فائدة تخدُم الوالى « معاوية » من جَرَّاء الكتابة إليهم .

(ا) فالرّاضى بالخليفة « على » هو ضد الوالى « معاوية » والكتابة إليه لن تزيده ثقة وبَصَراً بسلامة موقفه أكثر مما هو عليه . إذن — لا فائدة تُرجَى من مكاتبته — لأنه ضِدٌّ صريح لا تمكن زحزحته عن رضاه بالخليفة الإمام .

(ب) ومن بهوَى الخليفة المقتَل « عثمان » هو متعلّق بهواه بحيث لا يمكن أن يصرفه عنه صارِف آخر عن الاشتغال به حتى ولو كان النظر فى أمر اغتياله والقصاص له ؛ فلن يَسْمح له هواه بالجرى وراء التهمة الملوَّح بها تركاً لما انعقد عليه قلبه من الحب لـ « عثمان » !؟؟

إذن فهذا القِسْم أيضاً لن يكون مع « معاوية » .

(ج) والمعتزلون للنزاع ليسوا أيضاً معه من بعد أن ارتَضَوْا لأنفسهم البُعْد عن الخوض فى هذا النزاع اعتقاداً منهم أن السلامة فى عزلتهم — وبهذا لن تخرجهم الكتابة إليهم عما ارتضَوْه لأنفسهم .

وعلى سبيل الفرض لو أمكن لأمثال هؤلاء أن يفارقوا عزلتهم لصح منهم الميل إلى « على » الخليفة ثقة منهم فى أن الحق إلى جانبه حيث ارتضَوْا بيعته بادِىء ذى بَدْء .

وضَعْف مركز الوالى « معاوية » عند معتزلى النزاع يبدو من قول « عمرو » : فاسْتَ بأوثق فى نفسه مِنْ « على » حيث ركَزَ الثقة النفسية عندهم وجملها إلى جانب الخليفة الإمام — وبناء على هذا يُعتبر المعتزِلون ممن ليسوا مع « معاوية » ولا يمكن إمالتهم إلى جانبه .

ويمكن التلخيص لناتج التقسيم الثلاثى لحال أهل الحرمين ومؤداه أنهم جميعاً فى الجانب المضاد للوالى «معاوية» وإن كانت درجة المضادة له قد تفاوتتْ قوة وضعفا .

فالراضى بالخليفة « علىّ» هو فى مضادة صريحة له ، وأصحاب الخليفة المقتّال « عثمان » هم والمعتزلون للنزاع فى مضادة ضِمْنِية له .

وبهذا يكون المستشار « عمرو » قد كشف خِفّة الوزن السياسى للوالى « معاوية » لقاء رجحان كفة الخليفة « على » عند من بيدهم الميزان المقرِّر للقُوى الفعالة فى مجتمع الأمة الإسلامية .

والتصور الصحيح للموقف يدعونا إلى إسباغ الصِّدق على التحليل الذى طرحه « عمرو » لمواقف أهل المدينتين حيث أبدى براعة الخبير المدرك لاتّجاهات الرأى العام المؤثِّر ، واستشعر ماانطوتْ عليه نفوسهم ، ومدى تأثيرهم فى الرأى العام للدولة الإسلامية والذى تحقق صدقه فيما بعد[1] .

غير أن الوالى « معاوية » لم يقتنع بما طرحه عليه « عمرو » من تحليل وتقسيم ، ولربما كان يؤمل أن ينال خيراً من وراء المكاتبة —

---

(١) راجع رد « عبد الله بن عمر » الذى أجابهما به ص ٢٥٨ التالية .

فما كان منه من جواب على تحليل « عمرو » سوى أن يقول : « على ذلك » .

إذن ـ فقد ضمن النتائج الإيجابية لمكاتبته ، فما كان من «عمرو» سوى أن ينصاع لما انتواه «معاوية» وانتهى بهما الأمر إلى الكتابة إلى « عبد الله بن عمر » سَوِيًّا فقالا فى رسالتهما إليه :

« أما بعد ـ فإنَّه مهما غابت عنَّا مِنَ الأمور فَلنْ يغيب عنا أنَّ « عَلِيًّا » قتل «عثمان» والدليل على ذلك مكان قَتَلَه منه ، وإنما نَطْلُبُ بِدَمِه حتى يَدْفَعوا إلينا قَتَلتَه فنقتُلَهم بكتابِ الله ، فإنْ دَفَعَهم « علىّ » إلينا كَفَفْنَا عنه ، وجعلناها شُورَى بين المسلمين على ماجعلها عليه «عمر ابن الخطاب » وأما الخلافةُ فلسْنا نطلُبها فأعينُونا على أمرِنا هذا ، وانْهضُوا مِنْ ناحيتِكم فإنّ أَيْدِينا وأَيْدِيَكُم إذا اجتمعتْ على أمْرٍ واحدٍ هابَ « علىٌّ » ماهُوَ فيه » .

التعليق

والرسالة فى مضمونها تنطوى على مايلى :

(ا) الاتهام الصريح للخليفة « على » بأنه القاتل لـ « عثمان » استنادا إلى أنه قد آوى قتلته ، وقد اتُّخذ الإيواء كذريعة لإقناع « ابن عمر » بأن عليا هو القاتل .

(ب) « معاوية » « وعمرو » قد نصبـا من نفسيهما أولياء دم « عثمان » لذا ـ طالبا بحقهما فى القصاص من قتلته .

(حـ) بنفى كل من « معاوية » و « عمرو » عن نفسيهما شائبة المطالبة بالخلافة أو السعى لها ـ ليظل بارزا أن قصدها الأساسى ليس

غير القصاص للخليفة المقتول ، وليظهر نزاعهما أنه ديني صرف متعلق بإنفاذ حد من حدود الله ومجرد من أية أغراض سياسية حيث أخفيت في ثنايا الرسالة ، ولم تدرك إلا عند المطالبة بجعل الخلافة شورى حتى بعد القصاص لـ « عثمان » فحتى بعد الاستجابة لمطالبهم لن يصح عندهما أن « عليا » هو الخليفة الذي بويع له عن رضى تام من الجميع تم جهاراً نهاراً.

وما أظن أنه يستقيم لهما قول بعـد الآن : وأما الخلافة فلسنا نطلبها !!

(د) التلويح بجعل الخلافة شورى بين المسلمين فيه إسقاط للخلافة القائمة ، وسلطانها الماثل في شخص الخليفة ، وإبطال لرسومها التي تمت بالمبايعة لـ « علي » واعتبار أن الأمة الإسلامية في تلك الفترة إنما هي خلو من الإمام الشرعي لها يسوسها ويتحمل مسئوليات القيادة لها ، وأن كل مايصدر من تصرفات إنما تجانبه الشرعية لصدورها من شخص مطعون على صحة خلافته في نظره — لأنها ماتزال على ما جعلها عليه « عمر بن الخطاب » .

هذا — والتلويح بطرح الخلافة شورى بين المسلمين فيه التلويح قصد الإغراء لـ « عبد الله بن عمر » لعله يصيب منه هوى فيشده إليه بهواه - حيث قد وجد من المسلمين من نادى بإرجاع الخلافة « عمرية » في تشددها في مسيرتها بينهم بإسنادها إلى ابنه « عبد الله » .

ومما لاشك فيه أن التلويح المطمع « لابن عمر » بالخلافة ما هو إلا محاولة جادة من « معاوية » قصد الزحزحة « لابن عمر » عن موقفه منه الذي يدرك تماماً أنه ليس بمؤيد له فيه .

فشل مَسْعَى التَّحْييد

لقد صدق حدْس « عمرو » فى أنّ محاولة التحييد لأهل مكة وأهل المدينة غير مجدية فلا داعى للكتابة إليهم فى ذلك ، وخاب فأل « معاوية » فى النتائج المعلّقة عليها — حيث وجدنا « عبد الله بن عمر » يرد عليهما قائلا :

« أما بعد — فلعَمْرى لقد أخطأتُما موضِعَ البَصِيرة ، وتناولتُماها مِنْ مكان بعيد ، وما زاد الله مِنْ شاكٍّ فى هذا الأمر بكتابكما إلا شَكًّا — وما أنتُما والخلافة ؟!

وأما أنتَ يا « معاوية » فطَليق[1] ، وأما أنتَ يا « عمرو » فظَنُون[2] — ألا فَكُفَّا عنّى أَنْفُسَكُما فليس لكُما ولا لِى نَصِير[3] » . —

التعليق :

والرسالة واضحةُ الدلالة على ما يلى :

يأْبى (عبد الله بن عمر) أن يتخذه كل من (معاوية) (وعمرو) مِعْبراً إلى غرضهما وهو الخلافة :

(أ) فبيّنَ لهما أنهما قد سلكا أطول الطرق وأشقَّها إلى قصدهما بقوله : تناولتُماها من مكان بعيد — أى أنه يقف فى وَجهَيْهما عَقَبةً فى هذا الأمر ، وأن يعطيهما فرصة العُبور عليه بسهولة ويُسْر ، وكان من

---

(١) واحد الأسراء الذين أطلقهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة .

(٢) متهم لا يوثق به

(٣) وقعة صفين ص ٦٣

الأفضل لهما أن يقصدا غيره — أما هو فصلْب لا يلين، وبالتالى يدل فَحْوَى العبارة على أنه لو كان قد صح منهما قصد الطريق الأقرب الأصوب بالتسليم لصاحب الحق لـكان لهما فيه خيْر عون .

(ب) وبين أنهما قد أخطآ القصد بلجوئهما إليه — لأنه مدرك لحقيقة مجريات الأمور، ويعلم مَنْ هو صاحب الحق ومَنْ ينازعه فيه ؟ فمثله لا يخفى عليه مالهما من مأرب هو عَيْن الطموح إلى الخلافة — إذن — فأن يـكون لهما منه أى عَوْن يؤمِّلانه فيه ؛ أو يحاولان دفعه إليه . وهذا — سرُّ تخطئتهما الوثيقة التأكيد فى عبارته (لقـــد أخطأ تُمَا) .

(ج) حدوث العلم المسبق لدى « عبدالله بن عمر » إحساساً منه بالقَصْد الذى يهدُف إليه كل من « معاوية » و « عمرو » مِنْ تطلع إلى الخلافة كتفسير للأحداث الجارية فى الشام : من امتناع لواليها ومَنْ تَبِعه عن البيعة للخليفة « علىّ » وتطور الأمور إلى رمى للخليفة بقتل سلفه الخليفة « عثمان » والمطالبة بدمه وإعلان « معاوية » من نفسه ولياً يطالب بالقصاص له .

وإذا كان « ابن عمر » يساوره الشك قبل الآن فى الدافع المحرِّك لتلك الأحداث ، وحقيقة القصد فيما يَنْتَوِيه الأشخاص الواقفون خلفها فقد جاءتْ هذه الرسالة فزادته شكاً على شك فيما يعتزمانه من أنهما يبغيان من وراء كل ذلك إلى التعلق بالخلافة ، والآن قد رقّ شكه فى ذلك قوة حتى بلغتْ به الرسالة مبلغ اليقين — مما دعاه إلى أن يصارحهما فى الجملة التالية لذلك بأنهما ساقطى شرائط الأهلية لتوليِّها .

وإذا كان « ابن عمر » قد استطاع أن يستشفّ بذكائه من خلال سطور الرسالة ما انطوياه ، ولم تموّه عليه الأمور فينخدع بها . فقد كان أيضا واضحا فى رده عليهما من أنه لن يكون مِعْبَرًا إلى قصدهما ، فعندما تبين له على سبيل القطع مرغوبهما فى الخلافة نراه يماجاهما برد تطلعهما عليهما بأسلوب هو غاية فى التوبيخ على مثل هذا التطلع بقوله : وما أنتما والخلافة ؟! أى أنتما غير مُؤَهَّلَيْنِ لنيلها أو محاولة التطلع إليها لعدم توفر أىٍّ من شرائطها فيكما — وبهذا — يكون « ابن عمر » قد طوّح بهما بعيداً عن الخلافة ، وقرَّعهما حتى على مجرد التعلق النفسى بها أو التطلع إليها بهذا الأسلوب !!

ولم يتركهما على جالهما من التقريع وإنمـا أتْبعه ببيان الأسباب المُسْقِطة لأهليتهما فيصارح « معاوية » بأنه أحد طلقاء الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ، وبهذا تكون عبارته (أما أنتَ يا معاوية فطليق) المصدَّرة بأما الشارطة والمتلوَّة بأنتَ الموجِّهة للخطاب ، وإثرها وقع النداء المحدّد والمعيِّن لذات الشخص قد حكمتْ عليه حكماً أبدياً لا تزول سمَتُهُ ـ بأنه من الأُسراء الذين مُنَّ عليهم بإطلاق السّراح — وبهذا — لم يَسْقِط عنه الحق فى الخلافة أبداً فقط ، وإنما ذكَّره أيضاً بإذلال موقف كان يحتّم عليه أن يكون فداءً لذلِّ أَسْرِه فى ذلك اليوم .

وأما « عمرو » فقد حكَمَ عليه بأنه مُتَّهم لا يُوثق به (وأما أنتَ يا عمرو فظَنُون) ومثل هذا الحكم كفيل بإسقاط أهليته العامة فى أى تصرف يمكن أن يمارسه فى مجتمع المسلمين ، ومادامتْ الثقة فيه لا ترقى إلى هذه

خالد ـ فما بالك والخلافة !! وبناء على هذين الحكمين السيئين أصبح لا أمَلَ لهما فى الخلافة ماداما مَوْسُومَيْنِ بذلك .

ولما كان من المقطوع به عند « ابن عمر » أن لاحق لهما فى التطلع إلى الخلافة — إذن — فليكُفّا عنه مطالبتهما له بالعون فى شىء ان يستحقاه ، وتكون عبارته (ألا فكُفّا عنى أنفسكما) تنبيه حازم صارخ أن يتباعدا بينهما وبين ملاحقته والضغط عليه بهذا الخصوص ، ويمكن ملاحظة مدى الضغط الواقع عليه من الجمع للفظ (أنفسكما) المشعر أنهما ألقيا عليه بكل ثقلهما — مما دعاه إلى إنذارهما بالكف عنه لذلك — حيث لن يُعينهما على مايبغيان هُوَ ولا أحد من جماعة الساكين الذين يدركون فيهما ما أدرك — لذا قال : فليس لكما ولائى نصير .

وكما نفَى النصْرَة لهما فى هذا الأمر نفاها أيضاً عن نفسه بخصوصه حيث لن يجد من يناصره فيما فيه حَيْدة عن الحق لوحاد قَرْضاً وحاول أن يجاريهما بالمنازعة للخاوية « على » .

وهذا — أدخل فى نفى النصرة عن « معاوية » و « عمرو » فيما طلبا النصرة من أجله .

وإذا استطعنا أن نعتبر أن رأى « عبد الله بن عمر » هذا هو الرأى المعبِّر عن وجهة نظر المهاجرين فى عدم أحقية هذين فى التطلع للخلافة فقد وافانا رأى خالطاهم من الأنصار مُمثلاً فى قصيدة بعث بها أنصارى[1]

---

(١) لم يرد ذكر لاسم الأنصارى صاحب القصيدة ، وقد وثق النسب الذى أورده فى هامش وقعة صفين بذكره فى المتن(كتب رجل من الأنصار) راجع ص ٦٣ .

وفى رد « ابن عمر » السالف قال فيها[1] .

« مُعاوِىَ » إنَّ الحقَّ أَبْلَجُ وَاضِحُ
وليسَ بما رَبَّصْتَ أنتَ ولا « عَمْرُو »
نَصَبْتَ « ابنَ عفّان » لَنا اليومَ خُدْعةً
كما نَصَبَ الشَّيْخانِ[2] إذْ زُخْرِفَ الأَمْرُ
فَهذا كَهذا البلا[3] حَذْوَ نَعْلِه
سواء كرقراقٍ[4] يُغَرُّ بِهِ السَّفْرُ
رَميتُم «علياً» بالذى لا يَضُرُّه
وإنْ عَظُمَتْ فيه المكيدةُ والمَكْرُ
وماذَنْبُه أنْ نالَ « عثمانَ » مَعْشَرٌ
أتوهُ من الأحياء يَجْمَعُهم مِصْرُ ؟
فَصارَ إليه المُسلمون بِبَيْعَة
عَلانِيةً ما كانَ فيها لَهُمْ قَسْرُ
فَبايَعَه الشَّيْخانِ ثُمَّ تَحَمَّلا
إلى العُمْرةِ العُظْمَى وَبَاطِنُها الغَدْرُ
فكانَ الذى قَدْ كانَ مما اقْتِصاصُه[5]
رَجِيعٌ[6] فيالله مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ !؟

---

(١) القصيدة ص ٦٣ — ٦٤.
(٢) عنى بها طلحة والزبير صاحبى وقعة الجمل
(٣) مقصور البلاء
(٤) السراب يغتر به المسافر الظمآن .
(٥ ، ٦) روايته تكرر وتعاد

فما والفخر منا وأنتم بعينا حروب ما يبوخ لها الجمر[1]
وما أنتما لله در أبيكما وذكركما الشورى وقد فلج الفجر

البيان الأدبي :

النص يفصح عما يلي طبقا لما عبر عنه الشاعر :

(أ) لقد اتضح أن « معاوية » قد اتخذ من رفعه لقميص « عثمان » والمناداة بالقصاص من قتلته (خدعة) ينتظر من ورائها هدفا سياسيا آخر يخفيه لا علاقة له بالدين ولا بالتباكي على « عثمان » وذلك أمر لم يخف علينا فقد ظهر واضحا .

ولفظ (ربصت) يوحي بأن الانتظار إنما يتم قصد التحين للفرصة المناسبة للانقضاض على الغرض المقصود من بعد أن تكون الخدعة قد آتت أكلها ، ومنحت المتربصين فرصة التلبث ريثما يحين وقت الوثوب ، ولفظ (نصبت) يوحي بأن « معاوية » قد اتخذ من اغتيال « عثمان » نصبا أقامه ليتجه إليه المتباكون ويفرغ هو لتحقيق غرضه السياسي في الخلافة من وراء ذلك المشهد الحزين .

(ب) يسوي الشاعر بين صنيع « معاوية » وصنيع « طلحة » « والزبير »[2] في المخادعة مما يشعر به التشبيه في قوله : « كما نصب الشيخان ... » وما قاما به أثر جر بلاء على المسلمين تماما كهذا البلاء المرتقب من وراء صنيع « معاوية » .

---

(١) مثيران للحروب الخفية .

(٢) بايعا عليا ثم انصرفا إلى التهييج ضده مما أدى إلى وقعة الجمل .

(ح) يكشف الشاعر حقيقة أن ما أتهم به « على » ماهو إلا مكيدة ومكر ، وهما وإن كانا لا يضيرانه شخصيا غير أن بهما من بلاء المكيدة ودهاء المكر الخطر العظيم عليه ، وكان الشاعر دقيقا عندما قال (رموهم) حيث دلّ أنّ « علياً » قد أصيب فعلا فى مقتل بسبب تهمة دافعها خبث الكيد ومين المكر ، ولولا حصانات معينة تميزت بها شخصية الإمام لكانت التهمة كفيلة بالحق له ، وربما قصد الشاعر من وراء ذلك التلميح بعظمة « علىّ » فى الإسلام ومواقفه المشهود له بها مما يعطيه مناعة ضدّ شرّ التأثر أو التداعى أمام خطر هذه التهمة التى أملاها الكيد وأحكمها المكر .

(د) يبرىء الشاعر « علياً » من تهمة القتل لـ « عثمان » مبيناً أنه لاذنب له فى الحادث الذى تألبتْ فيه على « عثمان » جماعات قدمتْ من مختلف الأنحاء ، وقصدوا بيته علانية حيث شوهدوا وكانوا من الكثرة بحيث لايقوى أحد على ردهم ولو عن طريق القوة ، فقد كانوا رعية قصدوا الخليفة — وما يستطيع أحد ردّ الرعية عن اللقاء بإمامها — ربما الترفع إليه شكاية ، أو لتعتبه فى أمر أو لتناقشه فى تصرف أتاه رأتْ فيه المجانبة للصواب — فلقاؤها حقها المشروع المكفول فى الدولة الإسلامية ولا يستطيع أحد أن يحول بين الرعية وبين هذا الحق — كما أنه لم يكن لأحد فكر يمكن أن يحدس بأنّ الأمور ستتطور إلى حدّ من السوء ينتهى بمصرع الخليفة .

ولما كانت مسئولية إدارة دفة الأمور فى الدولة رَهْناً بيد الخليفة القائم بالأمر — إذن — فقــد ثبتَ أن لا ذنب يلحق « عليا »

حق الاتهام الموجّه إليه حتى ولو فى التراخى عن نُصْرةِ « عثمان » حيث لم يقترف القتل ، ولم يُقَصِّر فى الحيلولة دونه ، وبناء على هذا فلا مجال لاتهامه .

والاستفهام الثانى فى قول الشاعر : وما ذنبه ؟

كفيل بمحو أى ذنب يمكن أن يُرمَى به « على » وهو بالتالى ثابت على من سواه من الجماعات القادمة من مختلف الأمصار والذين عناهم الشاعر بقوله : نال « عثمان » معشر أتَوْه من الأحياء ... والتعبير بالفعل (نال) يدل على أن قصد الجماعة لم يكن مصحوبا بنية القتل للخليفة بادىء ذى بَدْء ، وإنما هى الأحداث تتابعتْ نتيجةً للتجمع الجماهيرى غير المتجانس والمتكاثر فى صعيد واحد يمثلون (الغوغاء) والجماهير لا عقل لها مما أدّى إلى تفاقم الأمور ، واندفاعها فى السوء حتى انتهتْ بالاغتيال المشئوم .

(ه) ينصُّ الشاعر على أن « طلحة » و « الزبير » بايعا عليًّا ثم خرجا مستمرَيْن وهما يُضمِران غَدْراً عظيما انطوتْ عليه الضمائر العُظمَى هدفه إشعال حرب لا ينطفىء لها لهيب بين جماعات المسلمين — الأمر الذى يشنع فِعله فى المجتمع الإسلامى أنْ يتلاقَى المسلمون بسيوفهم — وما دام الأمر كذلك فلا تنتظر منا معونة فيما أنتما بسبيله من سوء تدبير يدفع المسلمين إلى التطاحن ، وأنتما أبعد عن الانتظار والتأميل فى أى نصرة لكم منا فى هذا الأمر الشنيع . وقد ضمَّن الشاعر هذا قوله البليغ : (فما أنتما والنصر) ثم أتبعه الأسلوب الإخبارى المثبت أنه لا همَّ لهما إلا إثارة

الحروب التى لا يُحْمَد لها أُوار بقوله : أننا بعيثا حروب ـ وجاء وصفه العمرة بـ (العظمى) ليُشعِر بانطوائها على غَدْر خطير — مما يتنافى مع الغرض الذى شُرِعتْ له من كونها طاعة لله ظاهرة وباطنة — أما هذه فعظمى لمداخَلَتِها غرضاً خبيثاً يتنافى وشرعيتها وهو (الغدر) .

(و) وكما باعَد الشاعر بين « معاوية » و « عمرو » من أن ينتظرا أى نُصْرة لهما من أهل المدينة كذلك باعد بينهما وبين مجرد التحدث فى أمر الشورى (وما أنتما . وذكركما الشورى) وكأنى به يقول لهما :

إنكما لستُما منها فى شىء ، فلا تتناولانها ولو بالذكر لأنكما لستما من أهلها — هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لقد صح عندنا أنه لا مقصد لكم غير (المخادعة) وما دامتْ حقيقتكما هكذا فكيف يمكنكما أن تنصبا نفسيكما للشورى وأنتما لستما من أهلها ولا مؤهَّلَيْن لها بمخادعتكم التى انكشفتْ مما يقطع أَمَلكم فى التطلع إليها نهائياً على سبيل افتراض جوازه[1] .

وبالقَرْن بين افتتاح القصيدة : الحق أبلج واضح وبين الاختتام لها : وقد فلج الفجر :

نرى لوناً قريباً من ردِّ الصَّدْر على العجُز يُثبِت وضوح الحق نيِّراً فى قلب ظلام الأحداث المصطخبة ، وفيما يحاوله « معاوية » ومن الثقة القول : إنه ليس إلى جانبه ، بناء على الاعتبارات التى أوردها الشاعر ـ

---

(١) لم يُدخِل « الخليفة عمر » فى الشورى أحداً إلا من كانت تحلّ له الخلافة من قريش .

عَوْدٌ إلى إرْسال الرُسل

المرقف السياسى :

يبدو أن محاولات إحلال السلام ، وفض النزاع السياسى المشتجر بين الخليفة الإمام ووالى الشام بطريقة سلمية كانتْ ما تزال أملاً له بقية باقية ، وسنرى لتلك المحاولات صوراً شتى فيما يُقبِل من أحداث النزاع حتى بعد اشتجار السيوف وسقوط القتلى من الجانبين — وذلك بمحاولة ثَنْى الوالى « معاوية » وصَرْفه عما هو عليه ، وَدَفْعه إلى اللّين فى موقفه بالمبايعة للخليفة « على » وخاصة من بعد أن كان ما كان من إيفاد « جرير » وعودته بالفشل فى مهمته .

وتأتى فكرة المعاودة إلى إيفاد مبعوث كفء يُراعَى فى إرساله هذه المرة أن يدخل على « معاوية » بحيلة تأتى من عند « عدىّ بن حاتم » من أتباع الإمام حيث قال له :

يا أمير المؤمنين — إنّ عِنْدى رجلاً من قومى لا يُجارَى به ، وهو يريد أنْ يَزُور ابنَ عمِّه[1] له « حابس بن سعد الطائى » بالشام فلو أَمَرْناه أنْ يلقَى « معاوية » لعله أنْ يكسِره ، ويكسر أهْلَ الشام .

ويستجيب الإمام للعرض قائلا : نعم فَرُه بذلك .

وهكذا يميل الإمام إلى معاودة إرسال الرسل بناء على اقتراح قُدِّم إليه ، وتكون هذه هى المرة الأولى التى يميل فيها الأمام إلى الأخذ

(١) هو « خفاف بن عبد الله » لا ءاالله أحد كفاءة .

بما يُعْرَف بالسلوك الدبلوماسى الذى يهتم بالمرونة إلى جانب الحنكة فى سياسة المواقف ، ولا يرفض الإخفاء للقصد فى التصرف بالسلوك به الطريق غير المباشر قصداً إلى الهدف — حيث كان الإيفاد للرسول مدخولاً غير صريح فقد خُطِّط ورسم له أنْ يتم فى صورة زيارة لقريب تجرُّ إلى مقابلة الوالى « معاوية » .

ويتقدم الرسول الجديد « خفاف بن عبد الله » على ابن عمه « حابس ابن سعد » بالشام ، ويُحدِّث « خفاف » ابن عمه « حابسا » أنه قد شهد أحداث المدينة التى أودتْ بحياة الخليفة « عثمان » .

ولما كان أهل الشام فى حالة تعطش إلى التعرف على تفاصيل تلك الأحداث وحقيقة الأمر فيها من مَصْدرٍ ثقة ليتبينوا حقيقة موقفهم فى النزاع الدينى السياسى ، ولما كان « خفاف » المبعوث من الذين يُوثَق بكلامهم[١] فقد غدا به « حابس » إلى « معاوية » ليحدِّثه بأحداث المدينة ، وما أن أتياه حتى دار بينهما الحوار التالى :

معاوية : (موجهـا حديثه إلى خفاف) هات يا أخا طيء : حدِّثنا عن « عثمان » .

خفاف : حَصَره المكشوح[٢] ، وحَكَم فيه حُكَيْم[٣] ، ووليه محمد[٤]

---

(١) كان بليغاً لَسِناً ذا مهابة كما كان شاعراً - راجع وقعة صفين ص٦٥ .
(٢) المكشوح المرادى / شخص مختلف فى اسمه .
(٣) حكيم بن جبلة بن حصن العبدى كان عاملا لعثمان .
(٤) محمد بن أبى بكر الصديق .

وعمّار[١] ، وتجرد في أمره ثلاثة نفر : عدى بن حاتم ، والأشتر النخعى ، وعمرو بن الحمق ، وجدّ فى أمره رجلان : طلحة والزبير ، وأبرأ الناس منه « على » [٢]

معاوية : ثمّ مَهْ ؟

خفاف : ثم تهافتَ الناس على « علىّ » بالبيعة تهافُتَ الفَرَاش حتى ضَلّتْ النَّعل ، وسقَط الرِّداء ، ووُطِئَ الشيخ ، ولم يذكر له ثم تهيأ المسير وخفّ معه المهاجرون والأنصار .

وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة : فلم يستكره أحدا ، واستغنَى بمن خفّ معه عمن ثقُل ، ثم سار حتى أتى جبل طيىء ، فأتاه منّا جماعة كان ضارباً بهم الناس حتى إذا كان فى بعض الطريق أتاه مسير « طلحة » و « الزبير » و « عائشة » إلى البصرة ، فسرح رجالها إلى الكوفة فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة فهى فى كفّه ، ثم قَدِم إلى الكوفة فحُمِل إليه الصبى ودبّتْ إليه العجوز ، وخرجتْ إليه العروس فَرَحاً به ، وشوْقا إليه ، فتركتُه وليس همّه إلا الشام[٣] .

حابس : أيها الأمير لقد أسْمعنى شعراً غيَّر بِهِ حالى فى « عثمان » وعظّم به « عليا » عندى .

---

(١) عمار بن ياسر الصحابي .

(٢) راجع فى ذلك قصيدة ولد المغيرة بن الاخنس السالفة .

(٣) وقعة صفين ص ٦٥ .

معاوية : أسمعنيه يا «خفاف» .

فأنشد بين يديه قائلا[1] :

قلتُ والليلُ ساقِطُ الأكنافِ   وجنبي عن الفراشِ تجافِ
أرقُبُ النجمَ مائلاً ومتى الغمـ   ـضُ[2] بعينٍ طويلةِ التذرافِ
ليت شعري وإنني لسئولٌ   هل لي اليوم بالمدينة شافِ
من صحاب النبي إذ عظُم الخطـ   ـبُ وفيهم من البريةِ كافِ
أحــلالٌ دمُ الإمامِ بذنبٍ   أم حرامٌ بسنّة الوقّافِ[3]
قال لي القــوم : لا سبيلَ إلى ما   تطلبُ اليــومَ قلتُ : حسْبُ خفافِ
عند قومٍ ليسوا بأوعيةِ العلــــم ولا أهــل صِحّةٍ وعَفافِ
قلتُ لمّا سمعتُ قولاً : دعوني   إنّ قلبي من القلوبِ الضعافِ
قد مضى ما مضى .ومرّ به الدهـــر كما مرّ ذاهبُ الأسلافِ
إنّني والذي يحجُّ له النا   سُ على لُحّقِ البطون[4] العجافِ
تتبارى مثلَ القسيِّ[5] من النبـ   ـعِ بشُعثٍ[6] مثلَ الرِّصاف[7] نحافِ
أرهبُ اليومَ إنْ أتاكَ «علىٌّ»   صيحةً مثلَ صيحةِ الأحقافِ[8]

---

(١) وقعة صفين ص ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ . (٢) بضم الغين النوم .
(٣) المتأنى . (٤) ضامر الإبل هزيلها .
(٥) الأقواس تضرب بها السهام — شبه بها الابل فى تقوسها لضعفها ونحولها
(٦) هى بهم الحجيج الذين تلبد شعرهم واغبر .
(٧) العقدة يصلح بها السهم المنكسر .
(٨) الإهلاك الذى لحق بعاد قوم هود .

إنه الليثُ عادياً وشُجاع[1] مُطرقٌ نافِثٌ بِسَمٍّ زُعافِ
فأرسل الخيل كل يوم نزال ونزالُ الفتى مِنَ الإنصاف
واضعُ السَّيف فوق عاتقه الأ يمَنِ يُذْرِي به شئون القِحاف[2]
لا يرى القتلَ فى الخِلاف عليه أَلْفَ أَلْفٍ كانوا مِنَ الإشراف
سَوَّمَ الخيـلَ ثم قال لقـوم تابَعُوه إلى الطِّعان خِفاف :
استعدُّوا لحربِ طاغيةِ الشأ م ، فَلَبَّوْه كالبَنين اللُّطاف
ثم قالوا: أنتَ الجناح لكَ الرِّ يشُ القُدامَى ونحن منه الخَوَافى
أنتَ والٍ ، وأنتَ والدنا البَـر رُ ونحن الغداة كالأضياف
وقِرَى الضيف فى الدِّيار قليل قد تَرَكْنا العراقَ للإتحاف
وهمُ مامُ إذا نَشِبَ البأ سُ ذوو الفضل والأمور الكَوَافى
وانظر اليوم قبل نادية القو م بِسِلْمٍ أردْتَ أمْ بخِـلاف
إن هذا رأى الشفيق على الشا م ولولاه ما خَشِيتُ مشاف

البيان الأدبى :

استطاع الرسول الدخول « خِفاف » أن يلخِّص فى حديثه الحوارىّ وفى إيجاز بليغ مجمل الأحداث المتعلقة باغتيال الخليفة « عثمان » حيث تحدث عن حصاره وحكم الجماهير فيه ، ومَنْ وقف إلى جانبه منهم ، ومَنْ تجرد فى أمره ، ومَنْ جدَّ فيه ، ومَنْ هو برىء من تهمة قتله .

وزاد الأمر دقة ووضوحاً بقَرْنه الحدَث باسم صَاحبه ، وأتى بها

---

(١) الذكر من الحيات

(٢) يطير به الرؤس

مرتبةً وفق أهميتها ، وأنْهاها بإثبات البراءة الخالصة للخليفة « على » مِنْ تلك الأحداث المُرِيعة فى حياة الأمة الإسلامية ، وكان بارعاً فى تعبيره : وأبرأُ الناس منه « على » حيث أثبت له براءةً مطلقة لا يلحقها أى شك ولا مطعن — حيث أوردها على سبيل الفَرَض بأن تهمة القتل لو لحقت جميع الناس ووقعتْ عليهم لـكان «على» هو الفرد الوحيد الأبرأ منها، وأتى بعبارته هذه فى ختام الأحداث المعروضة لتـكون المُنْهِية لحديث الأحداث والمغلقة له عند حد البراءة لـ « على » بما لا يدع مجالاً لـ «معاوية» للنقاش أو الشك أو مُعاودة الذكر لتلك الأحداث ، وبهـا يكون الرسول « خفاف » قد بلغ قَصْدَه فى إثبات البراءة للإمام ، وأَسْقط مِنْ يد « معاوية » أمْضَى سلاحٍ كان يعتمد عليه فى نزاعه السياسىّ له .

ولهذا لم يجد « معاوية » لنفسه من سبيلٍ سوى أن يقول : ثم مَهْ ؟ وكأنه قد خشِى من « خفاف » أن يُطيل من حديثه فى إثبات البراءة لـ « على » فقاطعه طالباً منه الانتقال وسرد بقية الأحداث — مع أننا لو نذكر فاتحة حديث «معاوية» لوجدناه يقول : حدثنا عن «عثمان» .

ولربما كان داعى « معاوية » فى طلبه السالف هو التعرف على ماتلا مقتل « عثمان » من أحداث ظانا أنه لن يكون هناك حديث عن براءة « على » فلما أنْ قالها حتى قاطعه ليغيِّر من مَجْرَى الحديث الذى لا يرغبه وحتى لا تقع براءة الخليفة « علىّ » علَى مَنْ فى المجلس كالسكتة اللطيفة الـكفيلة بتوقير المعنى فى نفوس السامعين وتتناقلها الألسن خارج المجلس مثبتة البراءة للإمام — وهذا أمر لا يخدم « معاوية » فكانت

القاطعة بمثابة صَرْف النظر عن حديث البراءة ، والدعوة إلى موالاة السَّرد لما تَلاَ ذلك من أحداث !!!

و« خفاف » بالِغٌ في تصويره التزاحم على بيعة « على » بتهافت الفَرَاش — فمن المعروف عن الفَراش أنه لا يتهافت إلا على مصدر النور .

إذن — فقد جعل « خفاف » من الإمام نَبْعًا للهداية هفَتْ إليه جميع نفوس المسلمين تبايعه بطريقة لم تُعْهد إلا في تَهافت الفراش — حيث أدى التزاحم على البيعة له إلى وقوع أمور ما كانت تحدث لو كان التزاحم عادياً أو تمَّ في حد المعقول .

لقد دِيس الشيوخ في مجتمع يُجِل كبار السن ويوقرهم ، وسقطتْ الأَرْدية عن المنا كب وما كان العربي يحرص إلا على كمال هيبته في جمال هيئته ، وضاعتْ النِّعال وزاغتْ باختلاط بعضها في بعض في مجتمع شحَّتْ فيه النعال فما كان كل عربي بمنتعل — وما ذلك إلا دليل الـكثرة التي تدافعتْ بطريقة تهاوَى فيها حبل التقاليد فخرجتْ عليه ، وما أمكن الحِفاظ على شيء من النظام نتيجة لطوفان المندفعين المتدافعين من الجموع الراضية ببيعة الإمام .

أما قول « خفاف » : إنّ «عليا» لم يذكر «عثمان» ولم يُذكر له — فلربما أتى بها الرسول قصداً واضحة في موضعها هذا إِثْر الحديث عن التزاحم على البيعة ليبرز أَمْراً قد اعتزمه المجتمع الإسلامي ومُؤَدَّاه أن جماعة المسلمين قد صرفتْ النظر نهائياً عن الالتفات إلى أحداث الفتنة الطاغية التي أودتْ بالخليفة « عثمان » وأنها قد فتحتْ في حياتها صفحة جديدة بدأتْها بالبيعة للإمام « على » .

وعندما يتحدث « خفاف » عن إجماع العراق على البيعة للإمام نراه يصوِّر ذلك فى عبارات صبَّ منها التضاد فى الأسلوب استغراقاً شمل جميع الرعية لم يتخلف منهم أحد حتى من لا يتحتم عليه الخروج للمبايعة.

فالحديث عن الصبى المحمول ، والعجوز التى تدب إنما هو تَفَنُّنٌ فى التعبير تناول به جميع أفراد العراق من صغيرهم إلى كبيرهم رجالا ونساء — بدءاً بالصبى من جنس الرجال وانتهاء بعجائز النسوة، وناهيك بالرجال شيباً وشباناً أصحاب الأصوات المنوطة بالمبايعة أساساً وإنْ كان مسكوتاً عنهم لشمول التعبير إياهم ضمناً بالنص على العجائز من النساء اللاتى لا يتحتم عليهن الخروج ولا يستطعنه إلا بمشقة — إنه فرح التئام شمل الأمة على خليفة ترضى به يسوسها !! .

حتى العروس التى ما يشوقها شىء فى حياتها أعظم من أن ترى نفسها عروساً — لقد جاءها فرح أمتع مما هى فيه فخرجتْ إليه لتُسْهِم فيه ، ولتقترب من الفرحة به — وما كانت ظروف عرسها تدعوها إلى الخروج لو لم تضم فى اعتبارها أن الخروج هو الأمتع !

وبعد أن أحكم « خفاف » التصوير للاستجابة الجماعية المحببة إلى أهل العراق ببيعتهم للإمام نراه يُنْهِى حديثه بما يشعر أنه قد فارق الإمام وهو مطمئن على قوة وضعه السياسىّ ورجوح كفته على مَنْ ينازعه أياً كان من بعد أن طابتْ له أرض الجزيرة والعراق ولم يبق أمامه من مهام سوى الشام وما أيسرها أمام قوى الدولة الإسلامية التى انحازتْ إلى جانب الإمام !

وبهذا يكون « خفاف » قد وازن خِفْية بين ما عليه الخليفة الإمام وبين ما عليه والى الشام من قوة ، ووضع والى الشام فى الجانب الأضعف الذى يسهل على الإمام اجتياحه والسيطرة عليه ، ورده إلى جادة الصواب ولو بالقوة إذا تعينت حلاً نهائياً من بعد أن فرغ له الإمام حيث دانت له سائر أنحاء الدولة الإسلامية ، ولم تبق سوى ولاية الشام — وهنا يبرز سؤال مثبط لهمة والى الشام ومؤداه : فهل تقوى يا « معاوية » على المجابهة والمقاومة لتلك القوى التى أتاك بها الخليفة الإمام ؟ !

فقد أتاك بكل تاريخه الحربى ، وبطولته فى الحروب الإسلامية ، وبشجاعته التى أثرت عنه فيها ، وبنصره فى وقعة الجمل ، وبقوة الأمة الإسلامية تقف إلى جانبه تشد أزره من بعد أن رضيت به ودانت له واستوفى الشرعية بالإجماع على مبايعته خليفة .

وهنا نجد والى الشام وقد استولى عليه الذعر وركبه الخوف[1] وما كان يملك سواهما أمام تلك الأنباء المرعبة لحشد القوى ضده والتى صيغت عباراتها بدقة وعناية أذهبت قوة تماسكه .

وليت الأمر وقف عند حد النقاش الحوارى المرعب الآنف وإنما وجدنا « جابسا » صديق الرسول يخبر « معاوية » بأن لـ « خفاف » شعرا خطيرا ، وخطورته تكمن فى تغييره للمفاهيم التى أعلنت عليها فى الولاية فيما يتعلق بـ « عثمان » وفيه ما فيه مما عظم به « عليًّا » عندى .

---

(١) راجع وقعة صفين ص ٦٦

ويسمع « معاوية » القصيدة فيصيبه الانكسار[1]، ويحس الضياع من بعد أن أحسّ أن أهل الشام الذين يركَن إليهم هم عرضة للتفلت من قبضته، وهنا — لا يملك إلا أن يقول :

معاوية : يا « حابس » إنى لا أظن هذا[2] إلا عَيْناً لـ « على »

وقد كان « معاوية » قوى الحدس فى إحساسه بالارتباط الوثيق بين ما أُلقِى إليه من حديث وشِعرْ مُرعب وبين النزاع الناشب بينه وبين الخليفة الإمام، وأن « خفافا » ليس غير جاسوس وطابور خامس جاء ليضرب أهل الشام وواليهم فى معنوياتهم لحساب الإمام.

ولربما ساءل والى الشام نفسه سريعا :

وماذا يملك مِنْ قوة إذا انصرف عنه أهل الشام اقتناعا ببراءة « على » ؟ .

وكيف تمكنه مقاومته والحال أنَّ « عليا » بقواه لم يَمُدَّ له مِنْهم سواه؟

وهنا تبدو قمة التخوف عند « معاوية » من خطورة بقاء « خفاف » فى الشام فنجده يصور أمره النافذ إلى « حابس » قائلا :

معاوية : « أَخْرِجْه عنكَ لا يفسد أهلَ الشام »

وما كان هذا إلا نتيجة للتأثير النفسى المرعب الذى وقع والى الشام صريعا له من بعد أن سمع قصيدة « خفاف » المرْعبة إثر حواره المخيف.

---

(١) راجع نص القصيدة .

(٢) يعنى « خفافا » الرسول .

وبعد — فما هي تلك المعاني التي أزعجت « معاوية » في القصيدة ؟.

(أ) استهل « خفاف » قصيدته بإظهار القلق والحيرة نتيجة للتخبط فيما ألم بالمدينة من أحداث ، ولم يجد من يبصّره بحقيقتها فتستريح نفسه حتى ولا من الصحابة أنفسهم على الرغم من وفرتهم — مما باعد بينه وبين المنام وأسهده يرقب النجم بعين دامعة .

ويكشف عن حقيقة الأحداث في البيت الخامس وينص على أنها تلك التي انتهت باغتيال الخليفة « عثمان » .

وقد أظهر ذلك في صورة مَنْ يتساءل عنها، وعن الحِلّ والحرمة فيما أصاب الخليفة ؛ فتلك أمور قد انبهمت ، ولم يستطع لها أحد تفسيرا أو بياناً يريح من يتساءل ، ثم يُتْبِع تساؤله بسرد أقوال تتردد على ألسنة العامة تكاد تقطع في مجموعها بألا سبيل إلى محاولة تبيّن حقيقة ماحدث — ولما كانت الأقوال المردّدة قد صدرت عن العامة ولم ينهض دليل مقنع على صحتها ، ولم تصدر عن لسان عفّ الترداد لغير الوثيق من الأقوال ، ولم تصدر أيضا من أهل بَصَر بحقيقة ما حدث — لذا — نرى « خفافا » يبدى عدم الاطمئنان والرضى بكل ما يُردد ، ويظهر أنه لم يعُد يقوى على تحمل الترّداد لمثل تلك الأقاويل التي لا يدعمها أي قدر من صحة أو سلامة ، وبهذا — يَسِم « خفاف » نفسه بأنه واقعى يحكى حقيقة مايموج به المجتمع من أقاويل ، وبأنه محايد فيما يحكيه وليس أسير رأى معين قد يطعن عليه في صدق ما يحكيه لدى « معاوية » فيفسد عليه مهمته التي وَفَد من أجلها .

(ب) ولما كانت الأحداث قد تضاربت واختلطت دون إمكان لتحديد أو تمايز مما استعصى معه الاهتداء إلى صواب قرار فيما أصاب « عثمان » لذا — كان من عين الصواب عند « خفاف » وعند عقلاء الأمة أن يغلقوا باب شر يتهدد الأمة بأن ينهوا القول فيما حدث، وبأن يقتنعوا بأنه :

قد مضى ما مضى ومرَّ به الدهـ ـر ـ كما مرَّ ذاهب الأسلاف

إنها الدعوة للأمة أن تضرب صفحاً عن فتنة قد ألمَّت بها وانتهت بمصرع الخليفة ، وتعذر القصاص له لانعدام التحديد الدقيق لشخص القاتل وتميعه خلال طوفان الجموع الزاحفة على منزل الخلافة دون توقع من أحد أنها كانت ستنتهى إلى ما انتهت إليه من الاغتيال المؤسف ، وكان فى صرف النظر عن القصاص وإبراء المشتبه فيهم مبرر قوى، يؤدى تفادى الإهدار لأنهار سالت بدماء المسلمين فيما بعد ، وكراهة أن يوقع القتل عن طريق الشبهة ببرىء فيكون عدوانا قد ارتكب فى صورة قصاص ولا قصاص لمن اغتيل — وهذا يمثل عين التخبط فى إيقاع العقوبة !!!

كما أن الأخذ بالحكمة : قد مضى ما مضى ومرَّ به الدهر ...

كان كفيلا بتخليص الأمة الإسلامية من الهزات السياسية التى أدت بها إلى القاسم إلى شيع وأحزاب متنازعة متناحرة متقاتلة ، وفتحت على نفسها شرور الاغتيال السياسى ولم تبرأ منها حتى الآن ، وإنما تعاودها الفينة بعد الفينة مُلْبسة أردية مختلفة تتراوح بين الدين أو السياسة

أو بين الدين والسياسة مما تمانى منه ضعفا وتفككا .

وقد كان من الأوفق والأصلح للأمة أن يتوقف النزاع بين الخليفة المبايَع له والوالى الممتنع عن البيعة عند مرحلة ما قبل تحكيم السيف فى الرقاب وإحماء النفوس وتأريث الأضغان وإثارة العصبيات — حيث كان يُرجَى للنزاع حل أى حلٍّ غير الاحتراب !!!

والحكمة الذهبية الداعية إلى طرح التفكير فى أمر الفتنة جانباً فيما عرضه « خفاف » إنما هى موجَّهة فى حقيقتها إلى شخص والى الشام بعينه ، وإن كان الشاعر قد عرضها فى صورة الدعوى العامة ـ يحاول أن يريح بها نفسه والآخرين كذلك من بعد أن نشد الحقيقة فاستعصى عليه إدراكها . وهى أيضا دعوى لوالى الشام ليستفيق ويخرج مما هو فيه من أمور من الحتم أنها تجرُّ خراباً على الأمة الإسلامية إذا استمر على تمسكه بها — إذن — فليضرب صَفْحاً عما مضى ، ولينهض لحل مشا كل نزاعه مع الخليفة .

وقد كان فى هذه الدعوى الخيرُ لكل فريق لو كان قد أمكن إلجام الشرِّ الجموح — ولكن مجرى الأحداث قد سار مندفعا إلى خلاف ما تقضى به الحكمة وينشده عقلاء الأمة !!!

(ج) ولما كان الشاعر يحس أنه ربما لن تكون من والى الشام الاستجابة لعرضه .

لذا — نراه قد أتبعه بقَسَم مُغلظ بحجيج بيت الله الحرام ينص على ضخامة الهول الماحق الذى ينتظر الشام على يد الخليفة « على » الذى أعدّ لهم إهلاكاً يماثل إهلاك قوم « عاد » !!!

ولبدال على صحة ذلك نراه قد امتدح « عليا » المقاتل بأنه :

١ — الشجاع المتوثب فى حالة الهجوم .

٢ — أشدّ الثعابين فتكا بسمّه القاتل — وهو الآن فى لحظة ما قبل النهش .

٣ — القاتل المتهيء بسلاحه الذى يُحسن استخدامه فى الإطاحة بالرءوس .

٤ — المقاتل صاحب الرأى فى القتال ، وأنه لا يرى بأساً بالإطاحة بالآلاف المؤلفة فى سبيل وضع الحق فى نصابه .

ويُلحَظ عند البيان للاستعداد القتالى الذى أعدّه الإمام قد وجهه الشاعر إلى والى الشام أساساً ، ولم يتناول به أهلها اللهم إلا إذا ناصروه — مما يدال على أن النزاع فى حقيقته بين الخليفة وواليه ، ثم عم فشمل الأحياء والأنحاء ، والقبائل والأقاليم ، والعراقيون فى اعتزام الإمام القتال جعلوا أنفسهم منه بمنزلة الخوافى من القوادم دعماً وتأييداً وكفاية .

(د) تظهر المقدرة الشاعرية عند « خفاف » فى تمكنه من صياغة رأيه بقوة وإحكام عندما يتهيأ لاختتام قصيدته — فنراه يُنهيها بدعوة ناصحة للوالى « معاوية » يرجحه فيها بين خيارين : السلم أو الخلاف وكأنى به يدعوه قائلا : يا « معاوية » انظرْ وتأمل وتخيَّرْ لك طريقاً آمناً تسلكه : السلم أم غيره قبل أن يتم التنادى للقتال ، والنفخ فى نفير الحرب .

وانظر اليوم قبل نادية القو م بسلم أردت أم بخلاف

وتقديم لفظ (السلم) إغراء لـ « معاوية » أن يقع اختياره عليه من بعد أن هدده قبل تخييره ، وأورد الخيار الثانى بلفظ (الخلاف) الدال على سوئه مسلكا لا يرتضيه للوالى .

هذا — والنصيحة مَسُوقة فى صورة الرأى الشخصى يقدمه المُحِب المُشْفِق على الشام وأهله ، ومِنَ الشفقة بهم تجنيبهم الخلاف الموقع لهم فى الإهلاك .

فياحبذا — لو استجاب واليها لما أبداه المحب المشفق !

والقصيدة قد بلغت بمعانيها وحُسْن صياغتها ، وجميل عرضها حَدَّ التأثير المنشود حيث انكسر لها « معاوية »[1] غير أن والى الشام كان له من قوة الإدراك ما أشعره بأن « خِفافا » ليس إلا مَدْخولا عليه . وأنه بآرائه هذه خطَر شخصىٌّ عليه يمكن أن يفسد عليه أهل الشام ، وإن كان دهاؤه قد أملى عليه أن يخرج الكلام على أنه يخشى منه الإفساد لأهل الشام فى أنفسهم أما هو فلا عليه منه شىء !!

فأبْدَى خلاف ما يريد: مداراةً ، وبراعة منه فى التحكّم فى التعبير ، وبنَى على اعتباره هذا قراره بإبعاد « خفاف » عن الشام .

---

(١) راجع ص٦٨ وقعة صفين

عَوْدٌ إلى مُراسلة خاصّة (أهل المدينة)

١ — « عبد الله بن عمر »
٢ — « سعد بن أبي وقاص »
٣ — « محمد بن مسلمة »

الموقف السياسي : يبدو أن الوالي « معاوية » مازال مُصِرّاً على محاولة استمالة أهل المدينة تجاهه بُغْيَة الترجيح لوزنه السياسي في نزاعه مع الخليفة الإمام ، أو تحييدهم على أقل تقدير إن لم يتمكن من استمالتهم تجاهه كلية كما أوضحنا آنفاً[١] .

من أجل هذا نراه هنا يعاود التراسل مع الخاصة من أهل المدينة ممن يَسْتشعر فيهم الخطر عليه إن لم يكونوا أميلَ إلى جانبه ؛ فكتب إلى « عبد الله بن عمر » يقول[٢] :

١ — « أما بعد — فإنه لم يكن أحَدٌ مِنْ قريش أحب أنْ تجتمع عليه الأمة بعد قتل « عثمان » مِنْكَ ، ثم ذكرت خَذْلكَ إياه وطعنَكَ على أنصاره فتغيرتُ لكَ ، وقد هوّن ذلك عليّ خلافك علَى « عليّ » ، ومحا عنكَ بعض ما كان منكَ فأَعِنّا — رحمكَ الله — على حق هذا الخليفة المظلوم ، فإني استُ أُريد الإمارة عليكَ ، ولكني أريدها لكَ ، فإنْ أَبَيْتَ كانت شورى بين المسلمين »

---

(١) راجع (الوالي معاوية يحاول تحييد أهل مكة والمدينة)
(٢) وقعة صفين ص ٧١ — ٧٢

التعليق :

وفحوى الرسالة يتضمن التلويح بأمرين على درجة قصوى من الأهمية فيما يتعلق بشخص « عبدالله بن عمر »

أولهما : التلويح بالتهديد له بالتهمة (العثمانية)

و « معاوية » في هذا وإن لم يكن متهما إياه بالتورط فيها مباشرة إلا أنه قد أعان على « عثمان » بخذله والطعن على أنصاره — كما يذكر ثم أتبع ذلك بمبرر يخفف من عقوبة الجرم الذى ألحقه به « ابن عمر » وهو خلافه على « على »

ويلحظ أن التهديد في الرسالة مغلف بغلالة رقيقة تكاد تخفيه ولا تبديه فقد استخدم مع الاتهام عبارة :(فتغيرت لك) التى تظهر الأثر النفسى للتهمة عند « معاوية » أنه مجرد تغير ولم يتعد هذا الطور إلى ما هو أعظم ، واستخدم عبارة (هون ذلك على) ليدلل على أن أثر التهمة من الممكن أن يتمحى إذا ما تم لـ « ابن عمر » أن يستمر على موقف الخلاف على « على » فيما يتعلق بنزاعهما ، ومن أجل دفعه إلى المعارضة والخلاف أكثر ذكر أن بعض أركان التهمة الموجهة إليه قد سقطت فعلا عن « ابن عمر » بما دل عليه تعبير « معاوية » : محا عنك بعض ما كان منك .

إذن — فهى تهمة غير مكتملة الأركان ، ومن الممكن أن تنهار تماماً ولا يترتب عليها أية عقوبة إذا ما صح من « ابن عمر » العون لـ « معاوية » على الخليفة « على » فى نزاعهما .

وثانيهما : التلويح لـ « ابن عمر» بالخلافة صراحةً فى هذه المرة إطماعاً

له فى المنصب الخطير إن لم يكن سلاح التهديد غير مقنع له بالاستمالة أو الحيدة — ومَنْ لم تردعه الرهبة ربما تجتذبه مغريات الإطماع .

وكانت تلك خطة يجافيها سداد النظر فى تعامل « معاوية » مع « ابن عمر » فمثل « ابن عمر » ما كان يأبه لرغبة أو رهبة مهما بلغت قسوة التهديد أو عظمت المغريات — مما سنستدل عليه الأحداث فيما بعد !!!

وما كان لوالى الشام أن ينصب من نفسه مدعياً عاماً وممثلاً للاتهام يوجهه إلى مَنْ يريد كما يتراءى له دون أن ينصّبه أحد لذلك، أو تكون له أى صفة رسمية فيه — مما سوّغ للعامة التلاعب بهذه التهمة الخطيرة فى غير موضعها ، فلأىّ داعٍ للتنازع يوجهها أى فرد ليعم بها أى فرد آخر ، فخرجتْ التهمة عن خطر الاغتيال السياسى وأصبحتْ سلاح تهديد يمكن أن يوجّه لأى خصم قصد إيقاع الضرر به والنيل منه .

وما كان لـ « معاوية » الوالى أن يجعل من نفسه وصيا على خلافة المسلمين — يسندها لمن يشاء ، ويصرفها عمن يشاء ، أو يترك أمرها شورى وكأنه قد جمع سلطة أهل الشورى والحل والعقد وركزها فى شخصه فى مجامع المسلمين ، وأهل الشورى والحلّ والعقد فيهم أحياء ما تزال لهم مكانتهم ولرأيهم فى الخلافة وعظائم شئون الدولة وزنه وقيمته — بدليل لجوئه إلى بعضهم هنا يحاول معهم ما يحاول !!!

هذا — وقمة الإغراء من « معاوية » لـ « ابن عمر » تركزتْ فى أسلوب قصير حاسم للخلافة فى « ابن عمر » بميلاً إياها إليه منْ بعد أن

نفاها عن نفسه تأميراً ورياسة أورده على سبيل النفى والاستثناء قائلاً :
لستُ أريد الإمارة عليكَ ولكنى أريدها لك ، ولما كان « معاوية »
حريصا على إذهاب الشبهة القائمة المتمثلة فى أنه يسعى إلى الخلافة لنفسه
من وراء جهوده هذه — لذا — نراه فى تعبيره قد صَدَّر أسلوب القصر
بتوكيد ظاهر ليزيد معنى نَفْى السعى لها والتطلع إليها وثاقةً فى نفس
« ابن عمر » الذى يحاول إقناعه بهذا المضمون ، فأسلوب القصر ذاهب
فى تعبيره إلى إثبات نية الإرادة فى : لست أريد ولكنى أريد عند
تفريغه من الضمائر المعيِّنة للأشخاص — ونفى الإمارة عن نفسه وأثبتها
لـ « ابن عمر » .

وكأنى به يعنى بتعبيره هذا : أنه لا يستطيع التطاول بالإمارة عليه
إحساساً بعظَم مقامه ، وتسليماً بمنزلته التى لا تُدافع ، وهو إذا كان
يتقبَّل رغمنا إمارة « ابن عمر » عليه فهو فى المقابل لن يتقبلها
لـ « على » عليه .

إنها القوة فى التعبير المُقْنِع .

ولم يكتف « معاوية » فى رسالته الخاصة هذه بما أورده من معان
حاول بها الإقناع ، وإنما نراه قد عمَد إلى الشعر ليَدْعم به ما قَصَد إليه
نثراً فقال :

ألا قل لـ « عبدالله » واخصُصْ « محمداً »(١)
وفارسنا المأمون « سعدَ بنَ مالك »(٢)

---

(١) محمد بن مسلمة (٢) سعد بن أبى وقاص

ثلاثةُ رَهْطٍ مِنْ صِحَابِ « مُحمد »
نُجومٌ ومأوَى للرِّجالِ الصَّعالِكِ (١)

ألا تُخبرونا والحوادثُ جَمَّةٌ
وما النَّاسُ إلا بين ناجٍ وهَالِكِ

أحلٌ لكم قَتْلُ الإمامِ بِذَنْبِهِ ؟
فلستُمْ لأهْـــــلِ الجَوْرِ أولَ تاركِ

وإلا فكُنْ ذنبا أحَاطَ بِقتلِهِ
ففي تَرْكه — واللهِ — إحْدَى المهالكِ

وإلاّ وقَفْتُم بَيْنَ حَقٍّ وباطِلٍ
تَوَقُّفَ نِسْوانٍ إماءٍ عَوارِكِ (٢)

وما القَولُ إلا نَصْرُهُ أو قِتَالُه
أمَانةُ قومٍ بدلت غير ذلك

فإنْ تنصُرونا تَنصُرُوا أهْـلَ حُرمةٍ
وفي خَذْلِنا يا قـوم جَبُّ الحَوَارِكِ (٣)

البيان الأدبي :

ودور الشعر المصاحب للرسالة هنا يؤدِّي ما يلي :

(أ) التمجيد للثلاثة الخاصة من كبار الصحابة : « عبدالله بن عمر » و « سعد بن أبي وقاص » و « محمد بن مسلمه »

بأنهم : (النجوم) سُمُوّاً ورفعة ، و (المأوى) يَلْجأ إليه كل مُستضام.

(ب) طلب البيان لحقيقة ما تم فيما يتعلق باغتيال الخليفة « عثمان » يُراد من الخاصة من أهل الثقة من الصحابة للبتِّ في أمر اغتياله ، والبيان مُنْصبٌّ على إيضاح الرأي : هل في قتله قصاص أم لا؟ والأسلوب

---

(١) الفقراء (٢) نسوة حوائض

(٣) القضاء علينا بالقطع لأعلى الكاهل

لا يعنى بتحديد موقفهم من الجريمة الكبرى قدْر ما يُعنى بالتوريط الثلاثة الخاصة بمجابهتهم بحادث جلل ألمّ بالأمة الإسلامية، ولا يتوفى السكوت عليه من أمثالهم

ويتجه هذا إلى محاولة الدفع لثلاثتهم لينضموا إليه فى الدعوى الناهضة المطالبة بدم « عثمان » حتى إذا ما تم له إقناعهم بذلك أصبح من الحتم عليهم الانضواء تحت لواء زعيم المطالبين بالقصاص وهو « معاوية »

وذلك — أسلوب الدهاء السياسى المنقطع النظير — فقد أوقف أعيان الصحابة موقفاً يستحيل عليهم فيه الحياد — وإلا فالركون إلى عدم المبالاة إزاء ما يعدو على الأمة من أحداث وهم قادة الرأى العام فيها !!!

وخاصة: من بعد أن اعتبرهم (النجوم والأوى) من بين الصحابة.

ومن بعد أن صنّف الأمة إلى ناجين وهالكين بخصوص مصابها.

ومن بعد أن طلب منهم الرأى فى جريمة اغتيال رأس الدولة.

ومن بعد أن أقسم أن ترك القصاص له ضياع للأمة.

ومن بعد أن غمزهم فى حيدتهم بأنها تمثّل موقفاً غير كريم منهم.

ومن بعد أن أعلى قدْرهم إلى حد يصعب عليهم معه سلوك أراذل النسوة فى أسوأ حال لهن.

لقد حاول « معاوية » جاهداً بأسلوبه المقنع فى رسالته أن يزحزح الثلاثة الخاصة قسْراً بتذكيرهم بأن ركونهم إلى الحياد موقف لمن فارق رجولته!

وزاد القَسْر عنفاً بما أتبعه مِنْ تقريع خفي بأن المُحاز إلى ذلك هذا الموقف لم يفارق رجولته فقط . وغَدَا بعد التحوّل امرأة كريمة لها قدرها بين بنى جنسها فقط — وإنما غَدَا ساقطاً أمَةً بين النساء ، وزاد الأمر مساءة بجعلها لا يُرغَب فيها إطلاقاً لوجودها على حال تلوثها الشهرى علاوة على خساستها كجنس متحول فى عداد الإماء منهن مما يزيد النفور والعزوف عنها نهائياً .

(جـ) وعلى الرغم من أن «معاوية» يطلب رأى الخاصة فى الجريمة غير أنه يُدلى برأيه الشخصى مُقيِّماً أوضاعها طبقاً للاعتبارات التى ارتآها : فالأحداث التى أدّت إلى اغتيال الخليفة كانت تُحتِّم عليه التقييم لها ، واتخاذ موقف تجاه الخليفة بناء عليها بنصره إن كان محقاً فى تصرفاته ، أو تخذله وقتاله إن كان قد عبث بمقدرات الأمة .

وإذا كان الاعتبار الثانى قد سقط بقتله غيلة ، فلم يبق غير النظر فى أمر القصاص له — وهو الاعتبار القائم الآن .

وقد حمّل الخاصة بهذا مسئولية الممارسة لحقوق سياسية يلزمهم إياها وضعهم فى الأمة حيث يتحتم عليهم النظر فى تصرفات الخليفة ، وهم إذا كانوا لم يمارسوها فهذا تفريط ارتكبوه ، ولا ينبغى ارتكاب تفريط آخر بترك القصاص له إذا كان قد ظُلِم ، واعتبر ذلك أمانة دينية قومية يجب أن تؤدّى كاملة — وهى الآن تتعرض لمحاولات الخيانة لها .

وهذا تعريض عن رأى أن الاغتيال كان فتنة طاغية عامة يستحيل معها إيقاع القصاص فى حقه لعدم التحقق من شخص القاتل بعينه .

و « معاوية » بهذا يكون قد أقام نفسه داعيةً للمطالبة بأداء الأمانة الدينية القومية بالقصاص لـ « عثمان » والنُصرة للمطالبين به ، ويَعنِي بها نفسه المتزعمة لذلك — إذن — الخذل له فيه التحمل لدم من يُقتَل فى سبيل إقرار هذا الحق وأداء تلك الأمانة، والثلاثة الخاصة على رأس المحتَملين للوزْر — كما نَرَى فى قوله :

فإن تنصرونا تنصروا أهل حرمة
وفى خذْلنا يا قــوم جَبُّ الحَوارك

والقصيدة بتمامها استثارة شعورية يحاول بها تفجير حماس خاصة الصحابة لينا صروه فيما يدعو إليه ، فعمَد إلى الدعم لقُوَى التأثير عنده لجمع بين الإقناع الفكرى والإِيحاء الشعورى بما سلكه فى رسالته من الجمع بين فَنَّىِّ المنثور والمنظوم .

« عبدالله بن عمر » يرد على « معاوية »

الموقف السياسى : لم يقتصر « ابن عمر » فى الرد على مايصله من رسائل والى الشــام إبأن عنفوان التراشق بها — فنراه على الرغم من أنه قد سبق له الرد على « معاوية » و « عمرو »[1] مُشكِّكاً فى أمرها — مقرِّعاً إياهما لتدخلهما فى أمر الخلافة — يَنبَرى للرد على معاوية مجيباً على رسالته الخاصة إليه قائلا : « أما بعد — فإن الرأى الذى أطمَعكَ فىّ هو الذى صيَّرَكَ إلى ما صيَّرك إليه — أنّى تركتُ « عليا »

(١) راجع رده السالف فى « معاوية » يحاول تحييد أهل المدينة .

فى المهاجرين والأنصـــار و « طلحة » و « الزبير » و « عائشة » أم المؤمنين واتبعتُك ؟ !

أما زعمُكَ أنى طعنْتُ علَى « علىّ » فلعَمْرِى ما أنا كـ « علىّ » فى الإيمان والهجرة ، ومكانِهِ مِنْ رسول الله ﷺ ونكايته فى المشركين ولـكنْ حدَثَ أمرٌ لم يـكن مِنْ رسول الله ﷺ إلىّ فيه عَهْد ، ففزِعتُ فيه إلى الوقوف [١] وقلتُ : إنْ كان هُدًى ففَضْل تركْتُه ، وإن كان ضَلالة فشرٌّ نجوتُ منه — فأَغْنِ عنَّا نَفْسَكَ ». [٢]

ويدل فحوى الرسالة على ما يلى :

التعليق :

(أ) مبادرة « ابن عمر » فى صدر رسالته إلى التنديد بصنيع والى الشام فى أسلوب مبكِّت له على طمعه فى أن يزحزحه عن موقفه الحيادىّ ومحاولة إمالته نحوه نزولاً على ما أغراه به .

(ب) التصميم على موقف الحياد ، واستحالة متابعته لـ « معاوية » فى أىّ شئ من عروضه استمساكاً منه بملازمته لأرومة خاصة المسلمين من المهاجرين والأنصار بعامة ، و بـ « طلحة » و « الزبير » و « عائشة » بأعيانهم — وهو إذا كان لم يفارق ما أجمعوا عليه فيما مضى فلن يسوغ له الآن بل يستحيل عليه بعد الشك فى تحركاته أن يفارقهم بعد طول ملازمة وتفهمه .

وقد أدتْ الأداة (أنَّى) دورها فى إفادة الاستبعاد المفضى إلى

(١) التوقف والتريث انتظارا لجلاء الأمور .

(٢) وقعة صفين ص ٧٢ — ٧٣ .

لاستحالة ترك الملازمة المنْفية فيا مضى ، والمستمرة على انتفائها مستقبلاً بصياغتها الأسلوبية القاطعة لكل أمل لوالى الشام فى متابعته بالاستفهام المُنكَر النامى عليه تصرفاته وما يهدُف مِنْ ورائها .

(ج) يؤكد « ابن عمر » أن « عليا » قمة لا تُضاهَى فى عظائم الإسلامية لها مكانتها المرموقة فى قلوب المسلمين — حفظها له تاريخ الإسلام — لا يمارِى فيها أحد ، ولا يجرؤ عــلى إنكارها من : سبقه وهجرته وقربه ومكانته عند الرسول عليه السلام؛ وعنفه على المشركين .

وبهذا قد أعطى « ابن عمر » « عليا » حقه فى التصدر للمسلمين بشهادة لها قدرها كفيلة بقطع الطريق على كل مَنْ يحاول منافسته فى ذلك ولو كان « ابن عمر » عينه، وبالتالى فيها التبرئة له مِنْ كل مطعن عليه ولو أجمع عليه أهل الشام كلهم لضخامة رصيده الإسلامى .

(د) يذكر « ابن عمر » أن الأحداث التى أحاطتْ بالخليفة « عثمان » وانتهتْ بمصرعه ما كانت إلا أموراً لم يكن للمسلمين بها عهد من قبل لم يستطيعوا أن يتبينوا فيها (الضلال من الهدى) فتحرّزوا عن الخوض فيها طلباً للسلامة فى الحياد عنها ، وصاحب الحق فى التصريف لها كمسئول أول هو الخليفة وَحْده، وهى فى نفس الوقت أحداث جديدة تُؤْذِن بتطورات جديدة تدخل حياة الأمة — لذا — آثروا فيها التوقّف قناعةً منهم أنها حتما ستنتهى إلى حلول مناسبة يُبْرمها الخليفة .

ويبدو أنه لم يدر بخَلَد أحد من كبار الصحابة أن الأمور ستزداد سوءاً فى تطورها حتى تبلغ حدّ العنف السياسى الذى انتهى باغتيال

الخليفة وإلا ما تَوَانَوْا عن مَحْضِ الرأى له فى حينه، ونجدته عند إحداق الخطر به .

ولم يكن موقفهم هذا سلبيةً منهم وإنما كان قناعة بأن يتركوا الحق لصاحب الحق يكوِّن له فيه رأيا ، ويتخذ فيه قرارا ينفذه طبقاً للصالح العام للأُمة نبْعاً من التشريع الإسلامى الذى على أساسه تَنَصَّب وبايع له الجميع.

ولربما اعتقدوا أن حيادهم إزاء تصرفات تتعلق بالخليفة ورعيته طبقاً لما يقرره « ابن عمر » ، هو عَيْنُ السلامة والبراءة والصواب سواء أكان هدىً أم ضلالة فليستْ لهم صلاحيات تؤهلهم للتدخل فى التصرفات والأحداث وصاحب الحق الأول فى التصرف والفصل فيها قائم بالأمر — وهو الخليفة فكيف يَفْتَاتُون على حقه ؟!

. هذا — ووضعهم السياسى فى سُلَّمِ الحكم رأوْه لا يسوِّغ لهم التدخل حتى وإن كانوا من أعيان الصحابة وكبار المستشارين، ولا أن يفرضوا أنفسهم على الأحداث أو الخليفة دَسّاً لأنوفهم فيما ليس لهم بحق ، أو تحميل أنفسهم لمسئوليات لم توكل إليهم .

(ه) يقطع « ابن عمر » عن « معاوية » كل أملٍ له فى رجاء العون منه بقوله : أَغْنِ عنا نفسك .

فهو يَرْدعه بأسلوب الأمر القاطع لكل مطامعه فيه بمحاولة الاستمالة أو التحييد أو الإسكات عن التأييد لمنازعه الخليفة .

وبهذا الأسلوب يكون « ابن عمر » قد دفعه بعيدا عن ملاحقته

وإلحاحه ، وأزاحه صارفاً له عن نفسه إلى حيث يمكن أن يرتجى لنفسه غناءً في عَوْن آخر يلتمسه .

ولم يكتف « ابن عمر » برسالته القاضية على كل مأمل لـ « معاوية » فيه وإنما نراه يَعْمَد إلى الشعر يَنْشُد فيه العون عساه يتسنَّى له أن يقنع بالاستثارات الشعورية فيه ما حاول الإقناع به من أفكار أوردها في رسالته جَرْيا على النَّهج الذي سلكه جميع من لَفَّهم النزاع .

وتوصــــلاً إلى هذا الغرض يطلب « ابن عمر » من أشعر قريش « ابن أبي غُزَيَّة » أنْ يُجيب « معاوية » بشعر يتوافق ومضمون رسالته فقال (١)

« مُعاوِيَ » لا ترجُ الذي لَسْتَ نائلاً
وحاوِلْ نَصِيراً غيْرَ « سعد بنِ مالكِ »

ولا ترجُ « عبدَالله » واتركْ « محمداً »
ففي ما تريد اليوم جَبُّ الحَــــوارِكِ

تركْنا « علياً » في صِحابِ « محمَّــدٍ »
وكان لما يُرْجَى له غـــــير تاركِ

نَصِيرُ رسول الله في كلِّ مَوْطِنٍ
وفارسُه المأمونُ عند المعارِكِ

وقد خفَّتْ الأنصارُ معْه وعصبة
مهاجِرةٌ مثل اللُّيوثِ الشَّوابِكِ (٢)

(١) وقعة صفين ص ٧٣
(٢) مشتبكة الأنياب قوية الافتراس

و « طلحة » يدعو و « الزبير » وأمنا

فقلنا لهـا قولى لنـــا ما بَدَا لَكِ

حذارِ أمورٍ شُبِّهَتْ ولعلها

موانع فى الأخطـار إحدى المهالك

وتَطْمعُ فينا يا « ابنَ هِنْـدٍ » سَفَاهةً

عليكَ بعُليا حِمْيَرَ والسَّكاسِكِ (١)

وقوم يمانيون يحفظوك نَصْرَهم

بِضَمِّ العَـوالى والسيوف البواتك

البيان الأدبى :

ويدور حول التركيز على النقاط التالية :

(أ) « معاوية » يحاول المستحيل فى ابتعاثه العَوْن مِنَ الثلاثة الخاصة ليحقق مِنْ ورائه أهدافاً ينتويها تجرُّ الهلاك الحقيقى عـلى الأمة (فقبما تريد اليوم جب الحوارك)

لذا — كرَّر (لا ترجُ) قطعاً لأمله فى هذا، وإذا لم يَنْتصح بالـكف عما يريد مالم يوافقه عليه الخاصة فعليه نُشْدان النصير لدى من بعيه مِنَ اليمانين .

(ب) « علىٌّ » مَعقد آمال الأمة فى أزمتها السياسية الراهنة ، ويملك سائر الخصائص التى تؤهله للتصدر لقيادة الأمة طِبقاً لمَنْشَد المسلمين فى خليفتهم — فهو على الجادة فى جمع صحابة النبى عليه الســلام والمهاجرين والأنصار — من أجل ذلك نراهم قد خَفُّوا معه رِضًى به ونَصْراً له — مما يضمه فى الـكفة الراجحة فى ميزان القُوَى المادية والمعنوية.

---

(١) يمانيون

(ج) الأحداث التى أدت إلى وقعة الجمل لم تكن إلا مهالك نزلتْ بالأمة، وأحاطتْ بها الشبهات ولم تُدْعَم بحقائق تبين وجه الحق فيها فتُبرِئُها من الشكوك التى غشيتْها.

٢ — رسالة « معاوية » إلى « سعد بن أبى وقاص[1] ».

وقد كان الشأن مع « سعد » لا يختلف كثيراً عن سابقه وإنما يدور فى نفس الإطار الذى نَسَج عليه فكره فى تراسله مع الخاصة — فقد كتب إليه يقول:

« أما بعد — فإنّ أَحَقَّ الناسِ بنَصْر « عثمان » أَهْلُ الشُّورى مِنْ قريش الذين أَثبتَوا حقه واختاروه علَى غيره، وقد نصره « طلحة » و « الزبير » وهما شريكاك فى الأمر، ونظيراكَ فى الإسلام، وخَفَّتْ لذلك أُمُّ المؤمنين، فلا تَكْرَهَنَّ مارَضُوا، ولا تَرُدَّنَّ ما قَبلوا — فإنما نردُّها شُورَى بين المسلمين ».

التعليق:

تتصدر الرسالة هنا روح اللَّوم لـ « سعد » لعدم المسارعة إلى نَصْر « عثمان » كما نَصَره « طلحة » و « الزبير » والثلاثة مِنْ أهل الشورى، وعلى قِدَم المساواة فى الإسلام وقد تأيَّدتْ مناصرتهما بخروج أم المؤمنين معهما مسارعة لذلك وتقاعس « سعد » مما أوجب عليه الملامَة من بعد أن اعتبر الخروج على الإمام الخليفة مناصرة للخليفة

---

(١) هو سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن كلاب القرشى الزهرى أحد الستة أهل الشورى — وَلِىَ الكوفة لـ « عمر » وهو بانيها، وقد عُزِل عنها ثم وَلِيها لـ « عثمان » توفى عام ٥٥ هـ.

المقاتل . وينطوى اللوم المدعوم بالأدلة على التحريض والدفع الخفى لـ « سعد » أن يسلك مسلكهما فى الخروج علىَ الخليفة « علىّ » وقد لاحتْ له الفرصة الآن ليلحق بركب (الخارجين الناصرين) ليتساوى مع أنداده مِنْ أهل الشورى ، إذا كانت الفرصة فى المناصَرة قد فاتته بالمشاركة لهما فيما سلف من أحداث فلا أقل مِنْ أنْ ينضوى تحت لواء المطالبة بالقصاص لـ « عثمان » الذى يتزعمه « معاوية » ليصحح موقفه ويسلم مِنَ اللوم وتلك هى المناصَرة المرغوب فيها عند « معاوية » .

أما الخلافة فقد أصدر بحقها حُكماً آكداً بردِّها إلى الشورى وفى ظلال فكر الرسالة ونَبْءاً من مضمونها يصوغ « معاوية » قصيدة يُرفقها برسالته لتدعمها فيما هى موجهة إليه فقال[1] :

ألَا « ياسَعْدُ » قد أظهرتَ شكاً	وشكُّ المرءِ فى الأحداث داءُ
على أىِّ الأمور وقفْتَ حقاً	يُرَى أو باطلاً فله دَوَاءُ
وقد قال النبى وحَدَّ حَداً	يحلُّ به من النَّاسِ الدِّماءُ
ثَلاثٌ : قاتلٌ نَفْساً ، وزانٍ	ومُرْتدٌّ مضَى فيه القضاءُ
فإنْ يكنِ الإمامُ يُلِمُّ منها	بواحدةٍ فليس له وَلاءُ
وإلا فالتى جئتُم حَرامٌ	وقاتله وخاذله سَواءُ
وهذا حكمه لا شكَّ فيه	كما أنَّ السماءَ هىَ السماءُ
وخيرُ القَوْلِ ما أوْجزْتَ فيه	وفى إكثاركَ الداءُ العَياءُ

---

(١) وقعة صفين ص ٧٤ — ٧٥ .

«أبا عمرو» دعوتُكَ في رحال فجاز عراقي الدَّلْوِ الرشاء[1]
فأما إذ أبيْتَ فليس بيني وبينكَ حُرْمة ذَهَبَ الرَّجاء
سِوَى قولي إذا اجتمعتْ قريشٌ على «سَعْدٍ» مِنَ اللهِ العَفَاء

البيان الأدبي :

يلم الشاعر في القصيدة بالمعاني التالية :

(أ) النعي على «سعد» توقفه في أمر «عثمان» وعدم القصاص له دون سند من دليل قوي قاطع يرتكن عليه وإنما الأمر مجرد ريب .

(ب) يسوق الشاعر قياساً مؤداه أن قتل النفس بإحدى ثلاث — ولما كان الخليفة «عثمان» لم يلم بواحدة منها .

فالتقصير في القصاص له ارتكاب لحرمة التعطيل لحد من الحدود فيه الحياة للأمة .

ويمثل هذا القياس الدفع لـ «سعد» للتمسك بالقصاص لـ «عثمان» مع المنادين به والمتزعمين له ، والخروج عن التوقف والحياد في هذا الحكم الديني الثابت الذي لا يخالطه شك (كما أن السماء هي السماء) .

(ج) يعلق الشاعر عظيم الرجاء على استثارة همة «سعد» بعينه على إصلاح الأمور التي اعتورها الخلل ، وها هو قد عدّه واعتبره ودعاه مع الرجال ذوي النخوة للإنجاد في حينه وإلا فعلى «سعد» العفاء في مجامع قريش التي تعده من خيرة رجالها حمية ونجدة .

---

(١) عراقي الدلو — خشبتان متعامدتان في فم الدلو على هيئة الصليب يربط بها الحبل الذي ينزل ويرفع به من البئر — والمراد دعوتك بعد أن انقطع الأمل في صلاح الأمور .

رَدُّ سعد بن أبي وقاص

ولم يكن من « سعد بن أبي وقاص » إلا أن عمد إلى تحرير رسالة جوابية له قال فيها[1] :

« أما بعد — فإن « عمر » لم يُدخِل في الشورى إلا مَنْ يحلُّ له الخِلافة مِنْ قريش ، فلم يكن أحدٌ أحقَّ بها مِنْ صاحبه إلا باجتماعنا عليه — غير أنَّ « عليا » قد كانَ فيه ما فينا ، ولم يكُ فيه مافينا .

وهذا أمر كَرِهنا أوله وكَرِهنا آخره — فأما «طلحة» و «الزبير» فلو لَزِما بيوتهما كان خيراً لهما .

والله يغفِر لأمِّ المؤمنين ما أَتَتْ » .

التعليق :

والرسالة تفنِّد وتصحح المفاهيم التي طرحها عليه « معاوية » :

(١) فهو يقرر أن الخلافة لاتتم إلا بإجماع شورى بين الستة القرشيين المؤهلين لها — وكلهم في حقها على قدم المساواة ، وقد أُبرِم هذا بقرار (عُمَرِيٍّ) لايسوغ تحريفه أو العدول عنه مِنْ بعد أن صدر واضحاً لا لبث فيه .

وقد صدَّر بهذا الحكم الآكد رسالته ليصحح المفهوم الخاطئ الذي عمد إليه (معاوية) بطرحها شورى عامة — مما يمثِّل خروجاً على قرار اعتُمِد دستوراً للخلافة ، ومما يعرِّض الخلافة لأن تصبح مباءةً للصراع والأهواء والخلاف بين مَنْ لا يقدر خطورة المنصب — الأمر الذي ينبغي تجنيب الأمة مضاره .

---

(١) وقعة صفين ص ٧٥ .

(ب) «عليٌّ» استوفى شرائط الخلافة ، وزاد فيها على مالدى البقية الباقية من أهل الشورى المؤهَّلين لها ـ مما يدفع به إلى التصدُّر لسائر المرشَّحين ، وأصبح خليفة عن جدارة كفيلة بسدِّ الطريق على صواب التنصيب لأى شخص آخر و« عليٌّ » حيًّا !!

(حـ) إسقاط دعوى المناصرة لـ « عثمان » المنسوبة إلى صنوبع «طلحة» و«الزبير» وبيان أنَّ الأجدر بهما كان اعتزال المشاركة فى تلك الأحداث التى لم تُحرز منًّا أى رضيًّ .

وفى ظلال المبادئ والشخصية الرزينة الثابتة على صواب الرأى ينشئ قصيدة يُفصح فيها عن قوة الصمود ثباتًا على مايُعتقد أنه الموقف الأمثل فيقول :

« مُعَاوِىَ » داؤُكَ الدَّاء العياء   فليس لِمَا تجىءُ بِهِ دواء

طعنْتَ اليومَ فينا[1] يا « ابْنَ هِنْدٍ »
فلا تَطْمعْ فقــــــدْ ذَهَبَ الرَّجاءُ

عليكَ اليوم ما أصبحت فيه   فما يكفيكَ مِنْ مِثْلى الإباء ؟!

فما الدنيا بباقيـــــــة لحىٍّ   ولا حَىٌّ له فيها بَقَاءُ

وكلُّ سُرُوره فيها غُرُورٌ   وكل متاعه فيها هَبَاءُ[2]

أيدعونى « أبو حَسَنٍ علىٌّ »   فلم أَرْدُدْ عليه بِمَا يَشَاءُ ؟ !

---

(١) ورد فى الأصل (فى) والأوفق بالمعنى والأصوب لموسيقى البيت (فينا) التى أثبتناها .

(٢) ورد فى الأصل (سرورها فيها) و(متاعها فيها) وتعديل الضمائر المثبت فى النص أنسب .

وقلتُ له اعطنى سَيْفاً بَصيراً ... تمَيَّزُ بِهِ العداوةُ والولاء؟[1]
فإنّ الشرَّ أصغرُهُ كبيرٌ ... وإنّ الظّهْرَ تثقلُه الدّماء؟
أتطمعُ فى الذى أعْيا «عَلياً» ... على ماقدْ طمِعْتَ به العَفَاء
ليومٌ منه خيرٌ منكَ حيّاً ... وميْتاً — أنتَ للمرءِ الفِداء؟
فأمّا أمْرُ «عثمانٍ» فَدَعْهُ ... فإنّ الرأىَ (أذْهَبَهُ البَلاء؟)

البيان الأدبى :

يدور الفكر فى القصيدة حول ما يلى :

(ا) يعيب «سعد بن أبى وقاص» على «معاوية» جُرأته عليه وعلى خاصة الصحابة من أهل الشورى — تلك الجرأة التى ما كانت له قبل أحداث الفتنة مما أطمعه فيهم يتهددهم ويحاول فرض رأيه عليهم .

وعلى الرغم من ذلك فلا استجابة له، وإنما القطع لرجائه ومطمعه ، ويكفى «سعداً» حياده واعتزاله الأحداث إباءً منه لمقارفتها ووجه الحقيقة فيها لم يتضح بعد .

(ب) الموقف الوعظى فى القصيدة (الأبيات ٣ ، ٤) مساق تطبيباً للداء العصى الذى يعانى منه «معاوية» والذى علمه فيه «سعد» والذى لا يُرْجَى له البرء منه من بعد أن أدخل نفسه فى نزاع سياسى مع الخليفة «على» رضوخاً لسيطرة الداء العضال عليه .

---

(٢) روى عن «سعد» أنه قال فى شأن النزاع : لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان ولسان وشفتان فيقول : هذا مؤمن وهذا كافر . ابن عبد البر فى الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٦٠٩ ، ٦١٠ ط نهضة مصر .

(حـ) قوة الشخصية والثقة بالنفس يبديهما الشاعر فى استمساكه بما يعتقد أنه صواب وحق مهما دعاه الموقف إلى مجابهات عصيبة — حيث لم يستجب لـ « على » البطل والخليفة بالانضمام له ، وعاق ذلك على مستجيل (السيف المبصر) المميز بين المستحق للقتل به والأبرأ منه.

وفى هذا تنويه بقوته وصلابته التى لم ينل منها أحد حتى « على » القوى — الخليفة وصاحب السلطة والحق حيث لم يرهبه فيخرج عن حياده واعتزاله ، فبالأولى ان تكون لتهديدات « معاوية » عنده كبير أثر ، وبناء على هذا فأطماعه فيه قد ذرتها الرياح ، ولن يقوى على تحقيق ماعجز عن تحقيقه « على » معه !

(د) يثبت الشاعر مؤكداً (اليوم) وهو فى معرض الموازنة بين « على » و « معاوية » على توفر الفضل والخيرية فى « على » متمثلا حتى فى أقل القليل مما يصدر عنه لدرجة أنها كفيلة على الرغم من قلتها باستغراق كل « معاوية » فى حياته وموته ، و« سعد » يتمنى هذه القلة ويرغبها ويؤثرها ويفدى بها الكثرة غير المفضلة عنده !!

وقد ساق هذا المعنى فى صورة قياس يمكن أن يفهم بأسلوب معادلة رياضية :

عدد

١ يوم من حياة « على » على الرغم من قلته عددياً = كل حياة « معاوية » مهما طالت وحتى وفاته

ولما كان الموت ليس فيه فضل غير انقطاع النزاع — لذا نستطيع أن نقول : إن العطف فى (حياً وميتاً) يعطى انطباعاً مؤداه : أن اليوم

من حياة « على » أىّ يوم كان يفوق ناتج كل حياة « معاوية » فيما بين أقصى حدّيها من الميلاد وحتى الوفاة ! !

(ه) يقطع الشاعر بأن المطالبة بالقصاص لـ « عثمان » أمر لا يخص « معاوية » فى قليل ولا فى كثير وما عليه إلا أن يُخرج نفسه منه ، فيأمره ناصحاً (فدَعْه) ثم يُصدر رأيه الآكد فى تقييمه لتلك الأحداث التى انتهتْ بالاغتيال بأنها ما كانتْ إلا بلاء ذهب بالخليفة ، ولا أحد يرغب فى عودة البلاء ولا فى التذكير به .

٣ — رسالة « معاوية » إلى « محمد بن مسلمة »

وقد كان مِنْ أمْر « معاوية » مع الثالث من الخاصة أن بعث إليه يقول(١) :

« أما بعد — فإنى لم أكتب إليكَ وأنا أرجو متابعتَكَ(٢) ، ولكنى أردتُ أن أذكِّركَ النعمة التى خرجْتَ منها والشك الذى صِرْتَ إليه .

إنكَ فارسُ الأنصار ، وعُدة المهاجرين — ادَّعيْتَ على رسول الله ﷺ أمراً لم تستطع إلاَّ أنْ تَمضى عليه ، فهذا نهاكَ عن قتال أهل الصلاة — فهلا نَهيْتَ أهل الصلاة عن قتال بعضهم بعضا .

وقد كان عليكَ أنْ تكْره لهم ما كَرِه لكَ رسول الله ﷺ — أو لم تر « عثمان » وأهل الدار من أهل الصلاة ؟ فأمَّا قومك فقد عصَوْا الله وخذلوا « عثمان » والله سائلكَ وسائلهم عن الذى كان يوم القيامة » .

---

(١) وقعة صفين ص ٧٦

(٢) اتباعك لى

التعليق :

والرسالة فى صميمها موجهة قصد اللوم لـ « ابن مسلمة » لعدم مسارعته إلى إنجاد « عثمان » على الرغم من فروسيته المتميزة بين قومه الأنصار والتى اعتُبِرتْ قوة للمهاجرين أيضا ، وكان الأولى بها أنْ تُستخدَم فى هذا الموطن — لا أنْ يعتزِل الأحداث هو وقومه حيث عرضهم للمسئولية عن هذا التقصير يوم القيامة أمام الله .

أمّا ما وراء ذلك من قَصْد المتابعة له فيما هو ناهض به فليس من مراده .

رد « محمد بن مسلمة »

ولم يتوان « ابن مسلمة » فى الرد على « معاوية » مصحِّحاً له العِوَج فيما رماه به ، وكاشفاً له حقيقة قصده من تدخله فى أحداث « عثمان » بتلك الكيفية فقال :[1]

« أما بعد — فقد اعتزَل هذا الأمر مَنْ ليس فى يده مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل الذى فى يدى ، فقد أخبرنى رسول الله ﷺ بما هو كائن قبل أنْ يكون ؛ فلما كان كَسرْتُ سَيْفى ، وجلستُ فى بيتى ، واتهمت الرأى على الدين — إذ لم يصح لى معروف آمرُ به ، ولا منكر أنهى عنه .

وأما أنتَ فلعمرى ما طلبْتَ إلاَّ الدنيا ، ولا اتبعْتَ إلاَّ الهوَى —

---

(١) وقعة صفين ص ٧٦ ، ٧٧

فإن تَنْصُرُ « عثمان » ميّتاً فقد خَذَلْتَهُ حَيّاً . وما أخرجنى الله مِنْ نِعمة ، ولا صَيَّرنى إلى شك ، وإن كنت أبصرْتُ خلاف ما تحبنى به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار فنحن أولى بالصّواب منك » .

التعليق :

ويبدو من ثنايا الرسالة أنّ «ابن مسلمة» قد استكثر على «معاوية» خطاب اللوم والتقصير الذى ألحقه به وقومه فكان رده العنيف الذى تضمّن ما يلى :

(أ) كَشْفُ « ابن مسلمة » لخبرٍ أُنْهِيَ إليه من الرسول عليه السلام كان فيه الإعلام المسبّق له بأحداث الفتنة التى سيضرب فيها المسلمون بعضهم بعضا ، وأمله بدلائلها ، وأشار عليه بالتزام العزلة عنها ، وقد أنفذها امتثالاً لما أُصْدِرَ إليه من أمر [1] — وفى هذا إظهار لمدى قرب « ابن مسلمة » من الرسول عليه السلام إلى حدّ اختصاصه بمثل هذا الخبر ومدَى بُعْد « معاوية » عن فضيلة هذا الاختصاص .

(ب) النّعى على الوالى « معاوية » بأنه ما تدخّل فى الأحداث على هذا الوجه إلا وكان قصدُه الدنيا وليس الدّين ـ اتباعاً منه لرغبة تمكنتْ منه يريد تحقيقها ، ثم يفنّد دعواه فى النهوض للمطالبة بالقصاص له.

---

(١) روى عن « ابن مسلمة » قوله : « أعطانى رسول الله ﷺ سيفا فقال : قاتل به المشركين ما قوتلوا ، فإذا رأيت أمتى يضرب بعضهم بعضا فائت به أُحُداً فاضربْ به حتى ينكسر ، ثم اجلس فى بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية خاطئة » الإصابة ص ٧٨ .

يتخذ منها الدليل على أنها لم يُرِدْ بها حقيقتها الدينية من بعد أن أثبت على سبيل التوكيد أنه قد خذله فى الوقت الذى كان يجدُر به أنْ يناصره (فقد خذلته حيا) .

(جـ) الرد على زعم (الشك والعصيان) الذى اتهم به وقومه بأن الموقف الذى وقفه المهاجرون والأنصار كان وما يزال هو الموقف الأصوب دائما ، والأولى بالأمة الاقتداء بهم فيه لالتزامه جادة الصواب فى التوجيه للأمة ولا قيمة لأى رأى يقول بخلاف ذلك مهما كان مصدره حتى ولو كان والى الشام !!!

ورسالة « ابن مسلمة » هذه هى الوحيدة من بين الرسائل الجوابية التى لم تُشْفَع بقصيدة تدور فى فلك معناها ، وقد كان عُزوف « ابن مسلمة » من قول الشعر هو السبب فى وِحدة رسالته وتفردها بطابَع النثر فقط .

وقد صح منه الطلب من أحد الحضور « مروان بن عتبة » الأنصارىّ أن يجيبه شعرا فقال : أَجِبْه يا « مروان » فاعتــذر بأنه لم يــكن عند بنى عقبة شِعرٌ ، فأُنفِذَتْ الرسالة على ما هىَ عليه .

إلْهَابُ نِيرانِ الفِتْنة

الموقف السياسى : يبدو أن التسامع بتزعم والى الشام المنــاداة بالقصاص للخليفة « عثمان » قد أحدثَتْ أثرها فى نفوس مَنْ يميلون إلى هذا الرأى ، فتدافعتْ ركبانهم إلى الشام موطن الزعامة يستحثون ويستثيرون — وهم بين هذا وذاك يُغرِقون فى إلهاب نيران الفتنة بمـــا يتساقط من ألسنتهم مِنْ صواعق الكلمات التى تفعل فعلها فى الإغضاب

والإيحاء والاستشارة ، وبما يضفونه على والى الشام من ألقاب تدفع إلى تطلعات سياسية تعقّد المواقف ولا تحلّها ، وتُعكّر الصفاء ولا تُبقى عليه أو تحاول ترويقه من شوائب التعكير — فبينما « معاوية » جالساً إذْ أقبل عليه رجل متلفّف حتى إذا ما انتهى إليه قال الرجل : يا أمير المؤمنين [1] — أتعرفنى ؟

معاوية : أنت الحجاج بن خزيمة بن الصمة — فأين تريد ؟

الرجل : إليك القُرْبان — أنعَى إليكَ « ابن عفان » ثم أنشد [2]

إنَّ بنى عمِّكَ عبدِ المطَّلب ... هم قتلوا شيخَكم غير الكذِبْ

وأنتَ أَوْلى الناس بالوثْب فَثِبْ

واغضَبْ « مُعاوِيَ » للإلهِ واحْتَسِبْ

وسِرْ بها سَيْرَ الجرىءِ المُلتَئِبْ [3]

وانهَضْ بأهْلِ الشّامِ تُرْشَدْ وتُصِبْ

ثُمّ اهزُز الصَّعْدَةَ [4] للشّأْسِ الكَلِب [5]

---

(١) هذه هى المرة الأولى الذى يلقّب فيها والى الشام « معاوية » بأمير المؤمنين عند التسليم عليه وقد لقبه بهذا الحجاج بن خزيمه بن الصمه ، وقد افتخر على أهل الشام بهذا التلقيب والتسليم — راجع ص ٧٧ ، ٨٠ وقعه صفين .

(٢) وقعه صفين ص ٧٧ — ٧٨

(٣) المستقيم المطرد

(٤) القناة المستوية

(٥) المترفع عن الناس المسعور تحرقا إلى القتل

معاوية : عندك مَهَزّ ؟

الرجل : نعم (ثم أضاف)

يا أمير المؤمنين — إنى كنتُ فيمَنْ خرج مع « يزيد بن أسد القسرى » مُغيثاً لـ « عثمان » فقدمنا أنا و « زفر بن الحارث » فلقينا رجلا زعم أنه ممن قتل « عثمان » فقتلناه .

وإنى أخبرك يا أمير المؤمنين أنك تقوى على « علىّ » بدون ما يقوى به عليك — لأن معك قوماً لا يقولون إذا قلتَ ، ولا يسألون إذا أمرْتَ .

وإن مع « علىّ » قوماً يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر ، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه .

واعلم أنه لا يرضى « علىٌّ » إلا بالرضى وإنّ رضاه سَخَطُكَ — ولستَ و « علىٌّ » سواء !!!

لا يرضى « علىٌّ » بالعراق دون الشام ، ورضاكَ الشام دون العراق .

التعليق :

إن فى الكثير مما أتاه « الحجاج بن خزيمة » من أفعال وأقوال مدعاة للتساؤل عن الغرض من وفوده ، وتستره متلفقاً مستخفياً وتسليمه على والى الشام بأمير المؤمنين للمرة الأولى مما يمنحه اعترافاً بالخلافة ، وفخره على أهل الشام بسبقه إلى هذا التلقيب فى التسليم ونثره الألفاظ النارية المثيرة فيما أنشده مما نُحِسُّ معه أنّ وفادة الرجل قد استهدفَتْ غرضاً مُعيناً يمكن أنْ نستشفَّه من بيانه على النحو التالى :

(أ) استغضاب والى الشام ليتخذ خطوات عملية فى مسألة القصاص

لـ « عثمان » بالتأهب للوثوب على أبناء عمومته (بنى عبد المطلب) الذين صرّح بأنهم القتلة لـ « عثمان »

(ب) ليس غير الحرب من وسيلة لتحقيق هذا الغرض . فهيء لذلك جندكَ مِنْ أهل الشام وسِرْ بهم فى جُرأة لملاقاة «علىّ» تحقق مَأملك.

(جـ) الألفاظ النارية تغطى النص تترى إثْر صدور الحكم فى القضية بأن « بنى عبدالمطلب » هم القتلة ، وكلها ألفاظ للأمر باتخاذ إجراءات سريعة لا تحتمل أى تأخير ، ويسوقها للدفع إلى القتال فى أسلوب ملتهب فتراه يقول : ثِبْ واغضبْ واحتسبْ وسِرْ وانهضْ واهْزُزْ

وفى الألفاظ حركة وجرأة وتدافع وقفز وتداعٍ للقتال مدعوم بحمية استُغضِبتْ وعزيمة استُنهِضتْ .

والعبارات تنحو إلى نفس القَصْد من الإثارة وإلهاب الموقف فتراها : بنو عمك قتلوا شيخكم — أنت أولى الناس بالوثْب — اغضبْ للإله واحتسبْ — سِرْ بنا سير الجرىء — انهضْ بأهل الشام — اهزز الصعدة للمترفع المسعور !!!

هذا — والرجل مُتحامِل على الإمام فى نعته إياه بأنه المترفِّع التيّاه على الناس (المعلنب) وبأنه المسعور يُغريه القتْل بالقتل (الـكَلِب)

وقد قوّم (الحجاج) عوامل النصر والهزيمة فى المعركة المتوقعة بين الخليفة الإمام ووالى الشام مِنْ بعد أن أكّدَ أنهما واقعة حتماً نتيجة لتحليله للموقف بين الإمام والوالى بدقة متناهية تُضاهى أصح التحاليل وأصدق النتائج المترتبة عليهما التى يتوصل إليهما المحللون السياسيون المعاصرون .

فقد أثبتَ أن « عليا » لا يرضى إلا بالرضى التام بمعنى أنه لا يرضى بأنصاف الحلول ، والقبول بالبعض وإغماض العين عن البعض الآخر - فهو لا يُرضيه إلا النَّيْل لما هو حق له كاملا ، ثم فرَّع على هذا القول بأنَّ ما فيه رِضَى « عليّ » هو بَسْط نفوذه على أصقاع الخلافة كلها وهذا : يستوجب السخط من « معاوية » لحرصه على أن يكون والياً على أقل تقدير على الشام .

ولما كان الخليفة الإمام لا يرضى بانتقاص إقليم الشام من أرض الخلافة و « معاوية » لا يرضَى أن يُنحَّى عن الشام موقع رضاه - إذن فالحرب واقعة لا محالة بين الخليفة والوالي التقرّر مصيرهما.

ولم يقف « الحجاج بن خزيمة » عند حدّ بيان حَتْمية الحرب ، وإنما تراه قد كشف عن عوامل النصر والهزيمة المتاحة لدى كل مِنَ المتنازعَيْن حيث أثبت لوالي الشام أنَّ القلة إلى جانبه كفيلة بإحراز النصر على الكثرة الكاثرة التي مع الإمام .

قال هذا بناء على نظرة فاحصة قيِّمَةٌ (الموقف الاستراتيجي) على كلا الجانبين ، وقدَّم الدليل على صحة الاستنتاجات التي توصَّل إليها بما ذكره من أن قوة القلة تعود إلى أمر جوهري ينبني عليه نصر الجيوش وهو ما يعرف حديثا بـ (الضبط والرَّبط) وقد رآه « الحجاج » محكما بين أتباع « معاوية » حيث يصغون تماما إلى كلامه ، وينفذون أوامره دون نقاش (لا يقولون إذا قلت . ولا يسألون إذا أمَرْت) والأمر على خلاف ذلك تماما لدى الإمام !!!

ولا شك أنّ مثل هذا التحليل والتقييم كان له كبير الأثر فى دفع والى الشام إلى الحرب من بعد أن صرّح له بأن (بنى عبد المطلب) هم القَتَلة لـ « عثمان » ومن بعد أن أوضح له إمكان النصر عليهم على الرغم من قلة الجند .

ويمكن إدراك أثر الإيحاء الدافع إلى الحرب من رثاء « معاوية » لـ « عثمان » حيث قال:[1]

أَتانِىَ أمرٌ فيه للنَّفْس غُمَّةٌ وفيه بُكاءٌ لِلعيون طويلُ

وفيه فَنَاءٌ شَامِلٌ وخَزايةٌ وفيه اجْتِداعٌ للأنُوفِ أَصِيل

مُصابُ أمير المؤمنين وهدة تَكادُ لها صُمُّ الجبال تَزُول

فلله عينا مَنْ رأى مثل هالكٍ أُصِيبَ بلا ذَنْبٍ وذاكَ جليل

تداعتْ عليه بالمدينة عُصْبَةٌ فريقان منها : قاتلٌ وخَذول

دعاهم فَصَمُّوا عنه عند جَوابِهِ وذا كم علَى ما فى النفوس دَليلُ

نَدِمْتُ عَلَى ما كان مِنْ تَبَعِى الهوَى وقصرى فيه حَسْرَةٌ وعَوِيلُ

سأَنْعَى[2] « أبا عَمْرو »[3] بِكلِّ مُثَقَّفٍ وبِيضٌ[4] لها فى الدَّارِعين صَلِيلُ

---

(١) وقعة صفين ص ٧٩ — ٨٠

(٢) سأطالب بثأره

(٣) كنية الخليفة « عثمان بن عفان »

(٤) السيوف

تركتكَ للقـــــوم مُمُ فـاذا بعـد ذاكَ أقـولُ

فلستُ مقيماً ما حَييتُ ببـلدةٍ أَجُرُّ بها ذَيْلى وأنتَ قتيل

فلا نَوْم حتى تشجر[1] الخيـل بالقنا

ويشفى مِنَ القَوْمِ الغُـواةِ غليـلُ

ويطحنهـم طحن الرحى بثفالها[2]

وذاكَ بمـا أَسْـدَوْا إليكَ قليـل

سألقحها حَرْباً عَوَاناً ملحة وإنّى بها مِنْ عامِنا لكفيل

البيان الأدبى : يُعبِّر

القصيدة من ضرب الرثاء رثى به « معاوية » عن غمّه وحزنه الذى أصابه نتيجة لاغتيال الخليفة « عثمان » مع ما سيترتب عليه من الدخول فى معارك مُقبلة وإلا فدون ذلك احتمال الخزى والعار ، ثم بيّن أنّ الخليفة قد اغتيل بدون وجه حق وأن قتلته عصابة تآمرتْ عليه ، وصح منهم الاتفاق الجنائى عليه وإن كانت أدوارهم قد توزّعتْ إلى مباشرة القتل له ، وإلى حرمانه النجدة باعتزال الأحداث وتركها تلفه وتقضى عليه ، وسيجدُ فى الأخذ بثأره خلاصاً من عار احتمال دمه ، وسيدخل لذلك فى معارك قتالية ضارية يسارع إليها .

لقد طغتْ عاطفة الحزن على الشاعر فاندفع يستخدم عبارات ليستْ من طابع العصر الإسلامى مثل : الأخذ بالثأر ، وشنّ حرب عوان

---

(١) يطعن الفرسان بالرماح

(٢) ما يفرش من جلد تحت الرحى ليستقبل عليه الطحين

طاحنة توصلاً لهذا الغرض، وتقطيع حبائل الود إلى الأبد بين الأقرباء.

وقد اجتمعتْ على الشاعر مآلم الحزن والندم والخزى لتقصيره فى حق «عثمان» (تركته) مما جعله ينهض مهدداً بحرب لا تُبقى ولا تَذَر تعويضاً عما فرّط منه.

البيعة لـ «معاوية»

الموقف السياسى: يبدو أن نيران الفتنة الملتهبة عند ما تطايرتْ ألسنتها فبلغت الشام قد أحدثتْ آثارها السيئة ضيقاً وندماً[1] فى صدر «معاوية» كما أنها قد عجّلتْ باتخاذ الإجراءات العملية نحو (إعلان حركة المطالبة بالقصاص) واتخاذها الشكل الرسمى والقانونى تقوم عليه السياسة فى ولاية الشام بزعامة واليها المعزول من قبل الخليفة «علىّ»

فقد خرج «معاوية» إلى المسجد، ثم نادى فى الناس أن يحضروا، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام ثم قال:[2]

«يا أهل الشام — فقد علمتم أنّى خليفة أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» وخليفة «عثمان» وقُتِل مظلوماً، وقد تعلمون أنّى وليه، والله يقول فى كتابه: «ومن قُتِل مظلوماً قد جعلْنا لوليّه سُلْطاناً»

وأنا أحبُّ أن تُعلمونى ما فى أنفسكم مِنْ قَتْل «عثمان» فقام «كعب بن مرة السلمى» فقال:[3]

---

(١) وقعه صفين ص ٧٩ (٢) وقعه صفين ص ٨١

(٣) نفس المرجع ص ٨٢

« والله لقد قمتُ مقامى هذا وإنى لأعلم أنَّ فيكم مَنْ هُوَ أقدم صحبة لرسول الله ﷺ وآله منى (١) — ولكنى قد شهدتُ مِنْ رسول الله مَشْهداً لعل كثيرا منكم لم يشهده .

وإنا كنا مع رسول الله ﷺ نصف النهار فى يوم شديد الحر فقال « لتكونن فتنة حاضرة » فمرّ رجل مقنَّع فقال رسول الله ﷺ : هذا المقنع يومئذ على الهدى .

قال « كعب » فقمتُ فأخذت بمنكبيه وحَسَرْتُ عن رأسه فإذا « عثمان » فأقبلتُ بوجهه إلى رسول الله فقلت : هذا يارسول الله ؟ قال : نعم !!!

فما كان من الحضور إلا أن أطبقوا علىَ « معاوية » وبايعوه على الطلب بدم « عثمان » أميراً لا يطمع فى الخلافة ، ثم الأمر شورى بعد القصاص تختار الأمة لها خليفة ، وبايعه البعض على كتاب الله وسنة نبيه (٢) ، ثم أقبل « مالك بن هبيرة الكندى » ولم يكن قد حضر البيعة ، ولكنه قد تسامع بها أنها قد تمَّتْ على الخلاف (٣) فى الأمر المبايَع عليه ، وكأنه لم يحز رضاه فما كان منه إلا أنْ سارع إلى حيث « معاوية » ووقف خطيبا وقال (٤)

---

(١) قيل كان فى المسجد نحوا من أربعمائة من أصحاب النبى عليه السلام

(٢) ورد فى حديث « عثمان بن عبيدالله الجرجانى » ص ٨٠ صفين

(٣ ، ٤) أنظر ص ٨٠ وقعة صفين

« يا أمير المؤمنين[1] — أخدجت[2] هذا الملك ، وأفسدتَ الناس، وجعلتَ للسفهاء مقالاً .

وقد علِمتْ العرب أنَّا حيّ فعال ، ولسنا بحي مقال ، وأنا نأتي بعظيم فعالنا على قليل مقالنا ، فابسط يدك أبايعك على ما أحببْنا وكرهنا »

ثم تبعه « الزبرقان بن عبدالله السكوني » فأنشد[3]

« معاوى » أخْدَجْتَ الخلافَةَ بالتي
شَرَطْتَ فقد بَوَّا لَكَ الْمُلْكَ مَالِكُ

ببيعة فَصْلٍ ليس فيها غميزة ألا كلُّ مُلْكٍ ضمّه الشَّرْطُ هالِكُ

وكان كبيتِ العنكبوتِ مُذَبذباً
فأصبحَ محجوباً عليه الأرائكُ

وأصبح لا يَرْجوهُ راجٍ لعلة
ولا تَنْتَحي فيه الرجالُ الصَّعالِكُ

وما خيرُ مُلْكٍ يا « مُعاوِيَ » مُخْدَجٌ
تجرع فيه الغَيْظُ والوجه حَالِكُ

إذا شاء ردّته السَّكون وحِمْيَر
وهَمْدان والحيُّ الخِفاف السَّكاسِكُ

البيان الأدبي :

يبدو أنّ البيعة لـ « معاوية » كانت مَسْرحًا لظهور خبايا

---

(١) يبدو من التلقيب لوالى الشام المخلوع بأمير المؤمنين أنه سيبايعه خليفة على الأمة لاختصاص هذا اللقب بذلك (٢) أنقصته وذهبت بكماله

النفوس — فبينما كانت فى أساسها وعلى فرض التسليم بصحتها كانتْ مبايعة على الأخذ بدم « عثمان » فى ظاهرها الأعم — غير أن « مالك بن هبيرة الكندى » لم يفهمها إلا ملكا يمكن أن يُصار إليه فبايع عليه بيْعة عامة ، ثم يأتى الشاعر « الزبرقان السكونى » فيرى أن الملك مِنْحة ساقها الله إليه فى صورة خلافة — فلا ينبغى الانتقاص لهذا الملك أو تعريضه للضعف والفساد بأى شرط يُداخله ما دامتْ البيعة عليه قد تمت واضحةً لا مَطْعن عليها ، ويرى الشاعر أن القصد إلى الهدف فى صراحة ووضوح أفضل من اصطناع أساليب الدوران حوله ريثما تحين الفرصة للانقضاض عليه فلربما كان ذلك سببا فى احتيازه ناقصا — وما أروع الاحتواء له كاملا !!!

وإذا كان « معاوية » قد نَحَى هذا المَنْحَى لضعفٍ فى موقفه السياسى وقدراته القتالية فعشائر اليمن مَن : السكون وحِمْيَر وهَمْدان والسَّكاسك أقدر على معاونته .

إنه عَرْض للمساعدات الحربية لاحتياز الملك كاملاً حيث لا جدوى فى ملك مُنْتَقَص .

بين « عُبَيْد الله بن عمر » و « معاوية »

الموقف السياسى : قدَم « عبيدالله » علىَ « معاوية » فى الشام وكان قُدومه مثاراً للتساؤل — غير أنّ والى الشام رأى فى ذلك القدوم فرصة يجب ألا تُفْلِت وإنما ينبغى أن تُهْتَبَل لحسابه فى النزاع الناشب بينه وبين الخليفة الإمام — فما كان منه إلاَّ أنْ سارع فى طلب مستشاره « عمرو »

وما أن وافاه حتى بادره قائلا :[١]

معاوية : يا « عمرو » إنَّ الله قد أحيا لكَ « عمر بن الخطاب » بالشام بقدوم « عبدالله بن عمر » وقد رأيتُ أنْ أُقيمَه خطيباً فيشهدَ علَى « علىّ » بقتْل « عثمان » وينالَ منه

عمرو : الرأى ما رأيتَ .

وما أن اتفق الرأى حتى بعثَ « معاوية » إلى « عبيد الله » فأتاها فقال له :

معاوية : يا ابنَ أخى إنَّ لكَ اسم أبيك فانظرْ بملء عينيك وتكلم بكلّ فيك فأنتَ المأمونُ المصَدَّق فاصعد المنْبر واشتمْ « علياً » واشْهَدْ عليه أنه قتَل « عثمان »

عبيدالله : أيها الأمير[٢] أما شتْمِيه فإنه « على بن أبى طالب » وأمه « فاطمة بنت أسد بن هاشم » فما عسى أن أقــول فى حَسَبه ، وأما بأسه فهو الشجاع المُطْرِق ، وأما أيامه فما قد عرفْتَ — ولكنى مُلزِمُه دمَ « عثمان »

عمرو : إذاً والله قد نَكأْتَ القَرْحة !

وما أن خرج إلى الناس حتى قال « معاوية :

معاوية : أما والله لولا قتله « الهرمزان » ومخافته « عليا » على نفسه ما أتانا أبداً — ألم تَرَ إلى تقريظه « عليا »

عمرو : يا « معاوية » إنْ لم تَغْلِبْ فاخلُبْ . فترامَى حديثهما إليه

---

(١) وقعة صفين ص٨٢

(٢) نسخة ابن أبى الحديد - راجع مصطلحات (صفين)

ثم خرجا فى إثره فلما قام خطيباً تكلم فيما شاء أن يتكلم حتى إذا ما أتى إلى أمر « على » أمسك وأنهى مقاله فعاتبه « معاوية » قائلا : ابنَ أخى إنك بَيْن عىٍّ أو خيانة .

فاحتملَ عتابه وانصرف ، ثم بعث إليه قائلا : « كرهتُ أنْ أقطع الشهادة على رجل لم يقتل « عثمان » وعرفتُ أنَّ النـاس محتملوها عنى فتركتها »

فهجره « معاوية » واستخفَّ بحقه وتطاول عليه (١)

وما أن بلغ ذلك « عبيدالله » حتى ثارتْ نفسه فأنشد :

« مُعاوِىَ » لم أخرس بخطبةِ خاطبٍ
ولم أكُ عيـــّاً فى لُؤَى بن غالبِ

ولـكننى زاولتُ نَفْسـاً أبيَّـةً
على قَذْفِ شَيْـخٍ بالعراقين غائبِ

وقذفى « علياً » بـ « ابن‌عفّان » جَهْرةً
يجِـدُ بالشَّحْنا أُنوفَ الأقارب

فأما انتقاى أشْهـدُ اليومَ وثبةً
فلستُ لـكم فيها « ابن‌حَرْبٍ » بِصاحب

ولـكنه قد قَرَّبَ القومَ جهده
ودبّوا حواليه دبيبَ العقارب

فما قال أحسنتم ، ولا قد أسأتمُ
وأطرق إطراق الشّجاعِ المواثبِ

---

(١) ورد فى الأصل (فسقه) ص ٨٣

فأما ابن « عفان » فأشهد أنه أصيب بريئاً لابساً ثوب تائب
حرامٌ علَى آماله تقتفُ شعره فكيف وقد جازوه ضربةَ لازب؟!
وقد كان فيها « للزبير » عجاجة و « طلحة » فيها جاهدٌ غير لاعب
وقد أظهروا مِنْ بعد ذلك توبةً فياليتَ شعْرى ماهما فى العواقب

البيان الادبى :

القصيدة وثيقة صادرة عن شخص موثوق به يسجل فيها المواقف والأحداث التى أحاطتْ باغتيال الخليفة «عثمان وفيها يقرر مايلى :

(ا) الإمساك عن المهاجمة للإمام لم يكُ ناتج عى أو تخرص كذب؛ ولكنه الإباء النفسىّ الذى حمله على عدم ارتكاب جريمة القذف فى حق الخليفة الغائب الذى بذل غاية جهده فى محاولة التقريب والتوفيق بين الآراء ولكنها الفتنة كانت تدور حوله لتفعل فعْلها فى الخفاء، والتزم الحيدة عنها مِنْ بعد أن أخفقتْ مساعيه ، ومحاولتُكم الخروج والانقضاض عليه واتهامه بجريمة هُوَ منها براء أنا اسْتُ الكم فى كل ذلك بصاحب .

(ب) « طلحة » والزبير لَعِبا دوراً خطيراً فى التأليب على « عثمان » بلغ حد الـ (عجاجة) وبذل غاية الجهد ، ثم أظهرا التوبة عما فعلاه من بعد أن كان ما كان ووقع ماوقع ، وأشهد على أنَّ « عثمان » قُتِل بريئاً مِنْ بعد أن تاب مِنَ الممارسات التى أججتْ عليه نيران الفتنة .

وتبلغ القصيدة « معاوية » فيهتز لخطورتها التى تَتهدد دعواه التى ينهض بها فى الصميم وتُسقطها من أساسها لإثباته براءة الإمام من تهمة القتل واعتزاله الأحداث مِنْ بعد أن لم تفلح جهوده فى الوساطة ،

وما كان من « معاوية » إلا أنْ بعث إلى «عبيد الله » وتَرضّاه وقرّبه وقال : حَسْبي هذا مِنْك .

وبهذا منك « يكون عبيد الله » قد بلغ بشعره مالم يستطع أنّ يبلغه بنثره من إقناع — وما ذلك إلا خشية « معاوية » مِنْ أنْ تتناقل الألسُن القصيدة فتُفسِد عليه ماهُوَ فيه .

وَفْدُ المُصَالحَة

الموقف السياسى : قدِم على « معاوية » وفد من قراء الشام وأداروا معه نقاشاً حول وجهة نظره فى نزاعه مع الإمام وتَهيُّبهما لِقتال بعضهم بعضاً عسام يتوصلون إلى تعديلٍ لمواقف الطرفين ، والعثور على نقطة التقاء ، وللمصالحة بدل الاحتراب — فسكان الحوار التالى :

الوفـد : يا « معاوية » علامَ تقاتل «عليا» . وليس لكَ مِثْـل صُحبته ولا هِجرته ولا قَرابته ولا سابقته؟

معاوية : ما أقاتل «عليا» وأنا أدّعى أن لى فى الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته — ولـكنْ خبِّرونى عنكم — ألستُم تعلمون أنّ «عثمان» قُتِل مظلوماً ؟

الوفـد : بلى

معاوية : فَلْيدَعْ إلينا قتلته فنقتلَهم به ، ولا قِتال بيننا وبينه .

الوفـد : فا كتُبْ إليه كتاباً يأتيه به بعضنا .

وفعلا — أنجز «معاوية» رسالة موجهة إلى «على» أسلمها إلى « أبى سلم الخولانى» جاء فيها :[1]

(١) وقعة صفين ص ٨٦

«مِنْ «معاوية بن أبى سفيان » إلى «على بن أبى طالب» :

سلامٌ عليك — فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو :

أما بعد — فإن الله اصطفى محمدا بعِلْمه ، وجعله الأمين على وَحْيه، والرسول إلى خَلْقه ، واجتَبى له مِن المسلمين أعْوانا أيّده الله بهم ، فكانوا فى منازلهم على قَدْر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم فى إسلامه وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة مِنْ بعده ، وخليفة خليفته ، والثالث الخليفة المظلوم «عثمان» فكلَّهم حَسَدْتَ ، وعلى كلّهم بَغَيْتَ . عَرَفْنا ذلك فى نَظَرِكَ الشَزْر ، وفى قولكَ الهُجْر ، وفى تَنَفسك الصّعداء ، وفى إبطائك عَن الخلفاء — تُقَادُ إلى كل منهم كما يُقادُ الفَحْل المَخْشُوش[1] حتى تبايع وأنتَ كاره ، ثم لم تكن لأحدٍ منهم بأعظم حَسَداً منك لابن عمّكَ « عثمان » وكان أحقهم ألاّ تفعل به ذلك فى قرابته وصِهره — فقطعتَ رحمه — وقبّحْتَ محاسِنه ، وألّبْتَ الناسَ عليه ، وبطنْتَ وظَهَرْتَ حتى ضُرِبَتْ إليه آباطُ الإبل ، وقُيدتْ إليه الخيل العراب ، وحُمل عليه السلاح فى حَرَم رسول الله ، فقُتل معكَ فى المحلة وأنتَ تسمعُ فى داره الهائعة — لا تَرْدَعُ الظن والتُّهمة عن نفسكَ فيه بقولٍ ولا فعْل .

فأُقسِمُ صادقاً أنْ لو قمتَ فيما كان مِنْ أمرِه مقاماً واحداً تُنَهْنِه الناسَ عنه ما عدل بكَ من قبلنا مِنَ الناس أحدا ، ولمحا ذلك عندهم

---

(١) المخزوم الذى خُزِمَ بوضع حلقة فى أنفه ليسهُل قِياده

(٢) الصوت المرتفع



